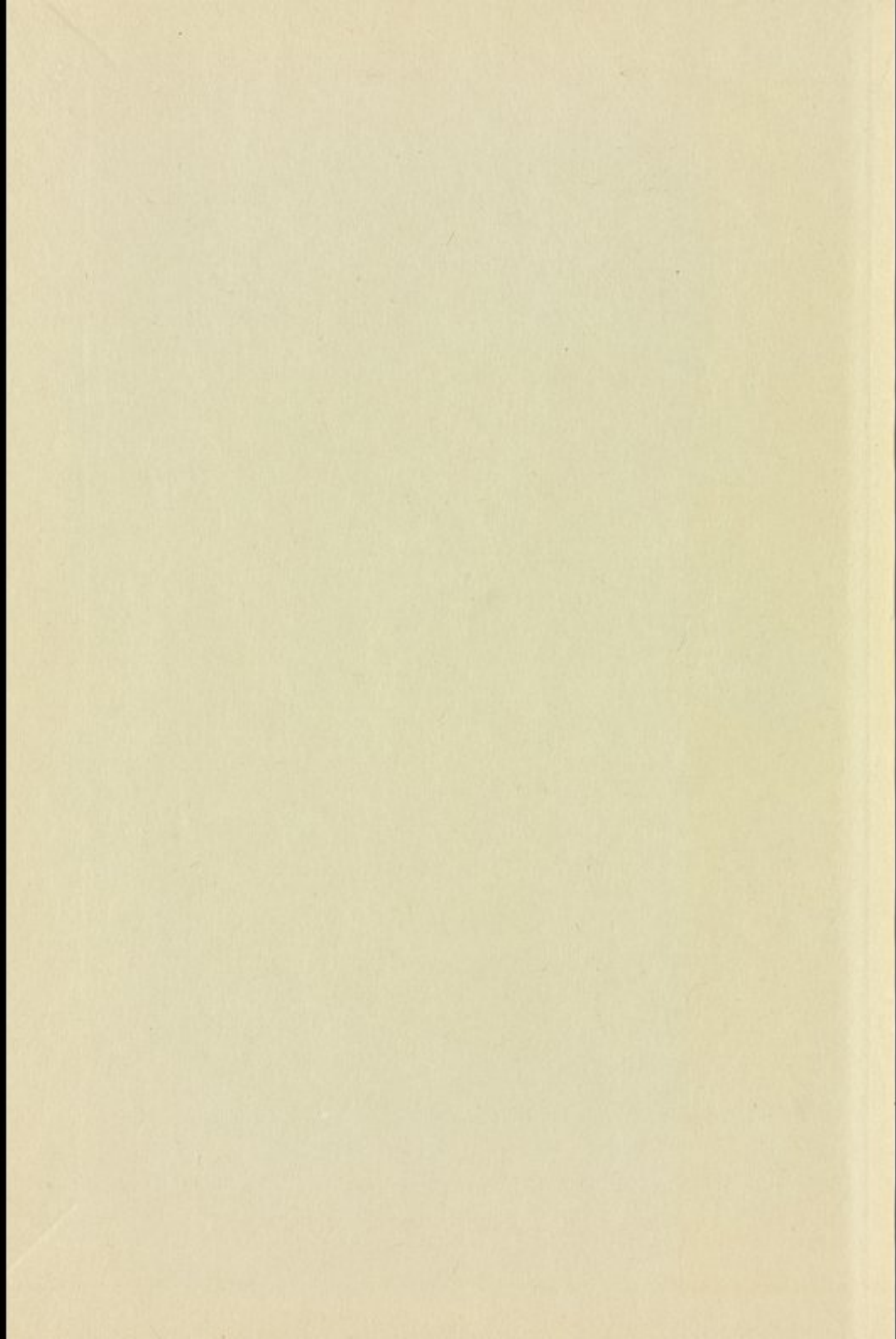


THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY



GENERAL LIBRARY





ديب
المكتبة المركزية
لجامعة بغداد

شيد العبيدي
الأستاذ بجامعة بغداد

دراسات في النفط الأدبي

المجلد: الثاني

ساعدت جامعة بغداد على نشره

الطبعة الأولى

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

مطبعة المعارف - بغداد

١٩٦٨ - ١٩٦٩

PJ
7507

•U2

v. 2

v. 2

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله القائل لا يزال الرجل عالماً ما طلب العلم فإذا ظن انه قد علم فقد جهل ، وعلى آله الابرار
وأصحابه الاخير .

أما بعد فهذا الجزء الثاني من كتاب دراسات في النقد الادبي حاولت فيه اليسر والسهولة ، لعلمي ان الموضوعات المطروقة يجب ان تقصر على مفهوم عنوان البحث لا زائدة عليه ولا ناقصة عنه .

لقد تضمن هذا الكتاب أول ما تضمنه البحث في الادب والنقد ولم يبخل بذكر آراء كبار الادباء والنقاد المتقدمين والمحدثين ليعلم القارىء مراحل التطور وايصال الماضى بالحاضر وليدرك المدى الثقافي الذى يحتاجه الناقد الادبي . ثم تحدث الكتاب عن أثر العاطفة والخيال والاسلوب والذوق فى تحسين الكلام . واما قوله علماء البيان فى موضوع الرسالة والمقامة والمقالة والقصة العربية القديمة والحديثة ثم تناول فصلاً خاصاً بالشعر مبيناً حدوده وضروره كالشعر الغزلي بقسميه العذرى والصناعي . ثم الشعر القصصي أو الملحمي ثم الشعر التمثيلي وموسيقى الشعر .

ولقد تحدث عن النثر الفني بقسميه الكتابي والخطابي . ثم النثر المرسل والنثر المسجوع مع نماذج تمثل كل نوع من النثر كما تحدث عن الكتب النقدية القديمة . مثل كتاب نقد الشعر لقدماء بن جعفر . وكتاب نقد النثر المنسوب اليه خطأ . وكتاب الموازنة للامدى . وكتاب الوساطة لعلي بن عبدالعزيز الجرجاني . وكتابه أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز لعبد القاهر

الجرجاني • ورسالة الغفران وكتاب عبث الوليد للمعري • وكتاب سر
الفصاحة لابن سنان الخفاجي وكتاب المثل السائر لابن الاثير •

هذه هي الكتب النقدية القديمة التي تناولها الكتاب • أما الكتب
النقدية الحديثة فهي : (١) كتاب تاريخ النقد الادبي عند العرب للمرحوم
الاستاذ طه ابراهيم • (٢) كتاب النقد الادبي للمرحوم الاستاذ أحمد أمين •
(٣) كتاب اصول النقد الادبي للاستاذ أحمد الشايب • (٤) كتاب اسس
النقد الادبي عند العرب للدكتور أحمد أحمد بدوي • (٥) كتاب النقد
المنهجي عند العرب للمرحوم محمد مندور •

ولزيادة الفائدة من هذا الكتاب فقد وضعت في
آخره بحثا جعلته بمثابة عرض تاريخي لاهم المصادر المدونة
الخاصة بالادب والنقد منذ نشأتها حتى عصرنا الحاضر •
ومما تقدم سوف يتأكد للقارى الكريم أن هذا الكتاب الذى بين يديه قد
جمع بين دفتيه كتبا كثيرة من امهات الكتب فى النقد والادب • وانه سوف
يوفر له الوقت الذى هو بأمس الحاجة اليه فيغنيه عن تحرى بعض الكتب
التي تكاد تكون فى حكم المفقودة • ذلك التحرى الذى لا طائل تحته ولا
يزيد عن كونه مضيعة للوقت • ولعلي لم أكن مبالغا اذا قلت : ان هذا
الكتاب سيسد فراغا فيما نحن بسبيله من الابحاث النقدية التي يحتاجها
المتبع للدراسات النقدية •

هذا وانى لا أحب أن أقول انى تعبت فى العثور على بعض المصادر
المطلوبة دراستها • لان التعب - ما الذه وما أحلاه - فى سبيل المدة العملية
والخدمة الوطنية ، بل ربما كان ذلك لي راحة وسعادة • وأخيرا أتوسل
الى الله تعالى أن يجعل عملي هذا خالصا لوجهه وسببا لمرضاته ووسيلة
للاتفاف به فهو ربي وبه استعين •

رشيد العبيدي

استاذ النقد الادبي فى كلية التربية
قسم الآداب

الفصل الأول

الادب والنقد

لفظتان موجزتان ولكنهما مشتملتان على أوسع المعاني وأدق الافكار •
ولقد تحدث عنهما عباقرة الادباء وكبار النقاد فأطنبوا فيهما وأسهبوا فجعلوا
الادب هو الحياة بجميع أحداثها وأطوارها وجعلوا النقد هو المهذب لها
الصاقل لفنونها والذال على جمالها •

لقد أصاب فن الادب في عصرنا هذا نجاحا كبيرا ولا سيما في القصة
والشعر والمسرحية لما لهذه الفنون من الاتصال المباشر والملابسات الشديدة
في حياة الناس على اختلاف أجناسهم وأزمنتهم وأمكنتهم ، ذلك لان الادب
ميراث مشترك بين الجميع ولهذا السبب تعددت تعاريفه وتوسعت أبحاثه
وصار الشغل الشاغل في دنيا الفنون •

فمنهم من قال : الادب تعبير عن الذات الانسانية التي تعيش مع
الجماعة في واقعها الحقيقي • وبدون هذا الواقع الاجتماعي تنعدم كل رغبة
في التعبير فهو حاجة اجتماعية قبل أن يكون متعة عابرة •

ومنهم من قال : الادب هو تلك الثمرة الفكرية التي ابتدعتها عقل
الاديب وصقلها طبعه ولونتها عواطفه فصاغها قطعة شعرية أو رسالة نثرية
أو مقالة اجتماعية أو قصة مسرحية صورت آمال الناس وآلامهم •

وقال المرحوم محمد مندور : « ان المقصود بالادب^(١) أن يكون في

(١) مجلة المعرفة السورية في عددها الممتاز وفي سنتها الثالثة شباط
سنة ١٩٦٥ ص (٢٣٢) •

خدمة الشعب وان يستمد موضوعاته ومضامينه من معارك الشعب الحارة:
أى من الاوراق الخضراء لا الاوراق الصفراء . وان يكون أدبا هادفاً أى.
ادبا قائداً يسعى الى تطوير حياتنا الشعبية دائماً الى الامام والانتصاف للشعب.
من الذل والفقر والجهل . وذلك بالكشف الدائم عن منابع الشر التى.
ترسبت فى حياة شعوبنا العربية من عهود الظلام ، كما يبحث عن مواضع
الثقة والامل فى حياة أكثر عدلا واسعادا لشعوبنا العربية المتطلعة .

ومنهم من قال : الادب هو الصورة المثالية للحياة الانسانية على اختلاف.
الزمان والمكان فليس له ماض وحاضر ومستقبل انه نبضة من نبضات العقل.
والروح ، فهو مرآة تتجلى فيها أحداث الحياة ، بل هو الصورة المثالية لها ،
يحب رؤيتها جميع الناس ، وأنه الصورة المحافظة على جمالها أبد الدهر.
تحمل للانسانية المتحضرة ممكنات لا تنفذ فى اثاره الاحساس بالجمال.
الفني والخلقي .

وقالوا : ان للادب صورتين أدب المعرفة وأدب القوة ، ووظيفة أدب.
المعرفة أن يمدنا بالمعلومات . وغاية أدب القوة تحريك العواطف واثارة.
المشاعر وتوجيهها نحو الافضل ، فهو على العموم هذا النتاج الفكري.
المتمثل فى الاقوال الحكيمة والتعابير البليغة مما تبذره قرائح الكتاب.
والخطباء والشعراء وتهذب به الانسانية على مدى الزمان واختلاف المكان .
ومن اعلى مظاهر الادب العربي هى تلك المعاني التى جاء بها القرآن.
الكريم ونطق بها نبينا العظيم (ص) وأخذ الادباء يترسمون الفاظها.
ومضامينها فى خطبهم ورسائلهم وأشعارهم وما استحدثوه من الانواع
الادبية كالمقالة والقصة والمسرحية وما يتبع ذلك من فنون الادب .

النقد الادبي

النقد الادبي هو دراسة التجارب والنظريات الادبية التى يتوصل بها
الباحثون الى فهم النصوص فيكشف عن بواعثها ونتائجها وما تركه فى حياة

الناس من أثر فينظر النقد الى مفردات النص هل هي فصيحة جامعة لاسباب
الحسن والجمال ، وينظر الى تراكيبه هل هي بليغة مؤثرة ذات معاني تعبر
عن اوجه النشاط العقلي والروحي وتكفل للمجتمع الانساني السعادة
والرقي . ؟

هذا وان للنقد أهدافا بعيدة المدى ، ومن أهدافه البحث في عموم
الكائنات والتمييز بين اشكالها ومحتواها واصدار الحكم عليها بصلاحتها او
فسادها بخلودها او اندثارها او اجراء مقارنة شاملة بين مختلف التجارب
الادبية ثم تفضيل بعضها على بعض بما تضمنته من قيم تعبيرية واجتماعية
ونفسية ووجدانية وعقلية . وغير ذلك مما يتصل بحياة الناس من عادات
وتقاليد وعقائد ورغبات في شتى المجالات .

وقد عرفه بعضهم بانه ثمرة التفكير في الآثار الادبية لتقويمها ببيان
زيها من صحتها وتفسير نواحيها الفنية ثم الحكم عليها .

وغالبا ما يكون النقد لاحقا للانتاج الادبي لانه تقويم لشيء سبق
وجوده ولكن الواقع يدل على أن أقدم صورة للنقد تمثل في نقد الاديب
لما ينتجه فلا ينظم شاعر أو يشر كاتب دون أن يتبع بعض القواعد او المبادئ
يعتمد عليها في بناء قصيدته أو قصته وهو في عمله هذا يبذل جهد الناقد . وقد
اصبح هذا النوع من النقد اكثر حيوية واعظم قيمة واوضح اثرا في النقد
الحديث (٢) .

الناقد الادبي

الناقد انسان نضج عقله وتهذب ذوقه وحسن طبعه واحاط بعلوم
اللغة فقها ونحوها وصرفها وبلاغتها وتاريخ آدابها ، ثم انه اذا نطق
أصاب واذا حكم عدل واذا تولى أمراً أجزأ فيه وجاءك منه بالخير اليقين
فلا يمارى ولا يداجي . له حلم وناة لا يصبر على باطل ولا يفضب الا

(٢) المدخل الى النقد الادبي الحديث ص (١٠) .

للحق يستطيع أن يتغلغل في أعماق التجارب الأدبية التي يتعرض لنقدها وتفسيرها ، كما انه يستطيع أن يتجرد من سلطان هواه ويصدر حكما مبنيا على قواعد أكثر علمية والصق بالناحية الموضوعية • رائده اظهر الحق وبلوغ الكمال عن طريق التجرد والحياد التام • (والناقد الحق يجب أن يكون ذهنه منتبها ومرنا ، حاد النظرة سريع الاستجابة ، قوى الفهم وفوق ذلك يجب أن يكون كما قال ارنولد قادرا على أن يرى الشيء كما هو في الحقيقة ، وألا يزيغ في ضباب من ميوله الخاصة وأفكاره السابقة • ومعنى ذلك انه يجب أن يكون خاليا تماما ومتجردا عن ميل الاذواق الفردية وميل العقيدة والطائفة والحزب والطبقة والامة) (٣) •

من هنا نعلم ان الناقد انسان مصلح وهادى الى الخير باسلوب لا يشم منه رائحة التهكم والسخرية بشخصية المنقود في تبيان الاخطاء نعم انه يوجه الى الخير باسلوب مقنع يرضى به كل من يقرأ نقده وارشاده •

وقد ينزل الناقد نفسه منزلة المستفهم المتطلع الى معرفة الحقيقة دون أن يشعر المنقود بأنه ناقد له ، متعال عليه • وانه فوق ذلك يلزمه أن يلم بتراث امته ولغته في مختلف موضوعاتها وعهودها وأقطارها حتى يعرف الادباء السابقين واللاحقين ، ويميز بين المبدعين الذين تواردت في خواطرهم المعانى بدون قصد وبين السارقين الذين أخذ بعضهم من بعض عن قصد ، ويكون رائده في كل ذلك الخير المحض للناس أجمعين • كما يلزمه حين يقارن بين النصوص الأدبية أن يكون مثقفا ثقافة واسعة سواء أكانت هذه السعة في حدود لغته أم كانت خارج نطاق لغته • الامر الذي يدعوه الى اتقان بعض اللغات الحية ، ليعلم ما اشتملت عليه تلك اللغات من اصول

(٣) كتاب النقد الادبي ، ل احمد أمين ، الجزء الاول ص ١٩٧ •

البحث وطرق الاستنتاج ومحاسن المعاني وأساليب التعبير .
ذكر ابن سلام في كتابه « طبقات الشعراء » كثيرا من الشروط التي
يجب أن تتوفر في الناقد والناقد : قال :

« قال قائل لخلف اذا سمعت انا بالشعر واستحسنته فما ابالي ما قلت
فيه أنت وأصحابك ، فقال له اذا أخذت درهما فاستحسنته فقال لك الصراف
انه ردىء هل ينفعك استحسانك له » . فابن سلام يرى ان للشعر صناعة
وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلوم والصناعات ، منها ما يتقفه
اليد ومنها ما يتقفه اللسان . ومن ذلك اللؤلؤ والياقوت لا يعرف بصفة أو
وزن دون المعاينة ممن يبصره . ومن ذلك الجهبذة بالدينار والدرهم
لا تعرف جودتهما بلون ولا مس ولا طراز ولا حسن ولا صفة ويعرفه
الناقد عند المعاينة فيعرف بهرجها وزائفها وستوقها ومفرغها . ومنه البصر
بغريب النخل والبصر بأنواع المتاع وضروبه واختلاف بلاده وتشابه لونه
ومسه وزرعه حتى يضاف كل صنف منها الى بلده الذي خرج منه .

وكذلك بصر الرقيق ، فتوصف الجارية فيقال ناصعة اللون جيدة
الشطبة نقية الثغر حسنة العين والانف جيدة النهود ظريفة اللسان واردة
الشعر فتكون بهذه الصفة بمائتي دينار وتكون اخرى بألف دينار وأكثر
لا يجد واصفها مزيدا على هذه الصفة ، ثم يقول : ان كثرة المدارس لتعدى
على العلم .

حاجة الناقد الادبي الى ثقافة تاريخية

في عادات الامم وتقاليدها

علمنا من خلال دراستنا ان مهمة النقد الادبي مهمة حيوية وشاقة لم
تقف بالناقد عند حدود تمييز الكلام الجيد من الكلام الردىء شكلا
ومضمونا ، بل عليه أن يدخل في جو التجربة وكأنه عاش مع صاحبها الذي
أبدعها فيدرس بيئته ونشأته وحياته الخاصة والعامة والمراحل التي هيأته

ودعته أن يقول ما قال ويلم بجميع البواعث سواء أكانت تلك البواعث مادية أو معنوية . وقد لا تقتصر دراسة الناقد على نتاج المنقود بل تتجاوز ذلك الى دراسة الذين انجبوه والسلالة التي انحدر عنها وما نفتت فيه من قوى ذهنية و ارادية ووجدانية كما عمل العقاد في كتابه ابن الرومي .

ثم ان وجوه النقد كثيرة ذات مجالات واسعة وعميقة . ومن تلك المجالات الكثيرة ، تفسير الكلام المراد نقده وبيان ما انطوى عليه من أفكار واسرار تصل بحياة قائله وموقفه الراهن من نفسه ، ومن الناس الذين عاش بينهم ، بما لهم من عادات وتقاليد اصيلة فيهم أو مقتبسة من غيرهم . ذلك ان من الشعر شعرا يحتاج تفسيره الى معرفة تلك العادات والتقاليد فان لم يفسر على ضوءها ذهب العلم بحقيقته واضطربت فيه الظنون والافهام . خذ مثلا قول امرئ القيس في معلقته :

وما ذرفت عينك الا لتضربي بسهميك في اعشار قلب مقل

فان ظاهر معنى هذا البيت يدل على ان امرأ القيس يريد أن يقول لحييته وابنة عمه انك لم تبكي لانك مظلومة وانما بكيت لتحطمي قلبي بدموع عينيك اللتين هما كسهمين اخترقا قلب محبك جميعه .

ان تفسير هذا البيت بهذه الصورة هو أيسر تفسير له . ولكن المطلع على تاريخ العرب والعارف لعاداتهم وتقاليدهم يستطيع تفسير البيت المذكور بأعمق وأدق مما فسرناه به .

ذلك ان من عادات العرب حين يجرون عملية القسمة انهم يجعلون الشيء المراد قسمته عشرة انصباء ثم يجال عليها بالسهم التي هي الفذ والتوأم والرقيب والجلس والنافس والمسبل والمعلى ويجعلون للفذ نصيبا واحدا اذا فاز وللتوأم نصيبين وللرقيب ثلاثة انصباء وللجلس أربعة

(٤) كتاب طبقات الشعر ص ٧ من الطبعة القديمة .

وللنفس خمسة وللمسبل ستة وللمعلى سبعة • فقوله بسهميك يريد المعلى
الذى له سبعة انصباء والرقيب الذى له ثلاثة انصباء فهو بهذا كأنه شبه
عينها بالسهمين اللذين أصابا جميع قلبه •

ومما يدعم هذا الرأى ويوجب على الناقد معرفة تقاليد وأساطير
القوم الذين يراد نقد أدبهم قول أبي العلاء المعري •

طربن لضوء البارق المتعالى	ببغداد وهناً مالهن ومالي
سمت نحوه الابصار حتى كأنها	بناريه من هنا وثم صوالي
إذا طال عنها سرها لورؤوسها	تمد اليه فى رؤوس عوالي
إذا لاح ايماض سترت وجوها	كأنى عمرو والمنطى سعالى

ومجمل القول فى ذلك انه جاء فى أساطير العرب اسم الغول والسعلاة
وهى انثى الغيلان ••••• اذ كانوا يزعمون انهم يتزوجون من اناتها لما يجدون فيها
من متعة وسعادة • غير ان دوام عشرتها مقرون بمكوئتها فى البيت وعدم
رؤيتها للبرق فان خرجت وتعرضت لرؤيته تركت زوجها واسرتها وطارت
نحو البرق ولم تعد الى بيت الزوجية •

ومن قصصهم فى ذلك انهم زعموا ان عمرو بن يربوع التميمي كان
قد تزوج من سعلاة وكان بها من أسعد الرجال • وكان كلما لاح برق
ضمها اليه وأخفى رأسها بردائه • غير أنها فى وقت ما لاح لها البرق وغفل
عنها عمرو فطارت نحو البرق وذهبت الى غير رجعة •

ولتوضيح ذلك يجمل بنا شرح الايات التى أوردناها حتى نكون على
بينه من صحة ما ذكرناه •

ففى البيت الاول ان أحمد بن عبدالله المعري مكث ببغداد مدة ثم
اشتاق الى وطنه الشام فأخذ يستفهم عن حاله وحال ابله متعجبا من برح
الاشتياق فيقول ما الذى أصابنا عند رؤيتنا هذا البارق المتعالى الذى لاح

لبي ولابلبي من ناحية الشام حتى طربت ابلبي معي كل هذا الطرب ؟
وفي البيت الثاني يقول ان البارق لما أخذ يبرق من ناحية الشام سما اليه بصري
كما سمت اليه أبصار الابل شوقا الى الوطن حتى كأن هذه الابصار تصطلي
ببنار البارق حين تراه وترمقه •

وفي البيت الثالث يقول اذا بعد البارق عن ابلنا تمت تلك الابل لو
تقطع رؤوسها وترفع على أسنة الرماح العالية حتى تراه وتمتع أبصارها به
من شدة اشتياقها اليه لانه يومض من جانب وطنها الحبيب •

وأما البيت الرابع وهو بيت القصيد في الاشارة الى تلك الاسطورة
فمعناه ان ابل المعري لشدة حنينها الى وطنها كانت تهيج كلما اومض البرق
لها من نحو أرض الوطن • لذلك كان يستر وجوها • وانه ليفعل ذلك
حتى لا تهيج لرؤيته فتركه وحيدا • فمثله في هذا الصنيع مع ابله كمثل
عمرو التميمي مع سعلاته التي كان يستر وجهها كلما لاح البرق لها
فيعتريها ما يعتري تلك السعلاة •

من هنا نعلم ما يلزم للناقد الادبي من سعة الاطلاع وعمق الثقافة
والاحاطة التامة بتاريخ الامة التي ينتمي اليها صاحب التجربة الادبية
المراد نقدها وتبيان قيمتها •

الفصل الثاني

عناصر الادب

١ - العواطف الادبية :

العاطفة انفعال شديد ينزع بصاحبه الى ميل نحو أمر من الامور ملكة عليه منافذ حواسه فلا يستطيع الانفلات منه ولا التخلي عنه .
وقد يتخذ هذا الانفعال طريقا الى عقل الانسان يسول له أن ميله هذا نحو ذلك الشيء انما هو عقلي ومنطقي .

والعاطفة قد تنشأ عن حنان بين الولد ووالديه وقد تنشأ عن مودة بين الفرد وأبناء وطنه أو بينه وبين أبناء جنسه وقد تنشأ عن علاقة الحب بين الزوج وزوجه وهي أعظم انفعال فينا يستولي على مشاعرنا ويرتفع بنا الى أسنى درجات الخيال .

وقد يتأله الحب عند بعض الناس كحب الصوفية مثل حب ابن الفارض ورابعة العدوية حتى يصبح مجرد عشق للجمال المطلق الذي يسمو على النزوع الجنسي ويعلو على الشهوات الجسدية . كقول أحدهم :
يهش قلبي اذا ما لحت ضاحكة ويتشبي كانشاء العشب بالمطر
لا ابتغي الوصل كي اجني لباته تأله الحب في قلبي وفي فكري
والعاطفة الادبية شحنة من الافكار تحتم في نفس الاديب لا يهدأ حتى يفرغها في قوالب من الالفاظ ويجلوها بشكل قصيدة أو رسالة أو خطبة أو مقالة أو قصة أو مسرحية أو في غير هذه الاشكال من فنون الكلام مما يختاره ويرضاه وتتجلى فيه القوة والجدة والايحاء .

والعاطفة عنصر مهم في التجارب الادبية توهم بها الالفاظ وتتجسد

بها المعانى ويجد الانسان من تأثيرها في نفسه نشوة تغريه بالاستزادة من معين
• تلك التجارب •

ولقد كان ادباء العرب الاقدمون يحسون بفعل العاطفة وتأثيرها على
النفوس ولكنهم لم يسموها بهذا الاسم بل سموها بانثارها الصادرة عنها •
وللعواطف الادبية دواع كثيرة ومجالات واسعة وان العاطفة تتفاوت
رقيا وانحطاطا بحسب تلك الدواعي • فان كان الداعي لها شريف المقصد
نبيل المأرب شرفت تلك العاطفة وارتقت وان كان الداعي لها خسيس الغرض
وضيع المقصد انحطت تلك العاطفة وهبطت قيمتها بنسبة وضاعتها •

وإذا احتوت القطعة الادبية على جمال الالفاظ وصدق الكلام وشرف
الهدف طال عمر تلك القطعة ومنحتها تلك الاطالة صفة البقاء والخلود
بمقدار ما يفيد الناس منها وبمقدار ما يتأثرون بها •

ذكرت ان العاطفة انفعال • والانفعال مصدره القلب الذي هو مجمع
الاضداد فيه الرضا والغضب فيه الكره والحب فيه الرجاء والياس فيه القوة
والضعف فيه الشجاعة والجبين فيه الكرم والبخل وفيه ميول اخرى يطول
تعدادها واحصاؤها •

من هنا نعلم ان العاطفة لا تختص بواحدة من تلكم الصفات غير انها
قد تكون في شئون الحب والبغض أقوى منها في غيرها • وليس معنى
ذلك ان قوة التجربة الادبية وقف على هذين الموضوعين وانما هي توجد
في أنواع اخرى أيضا على قدر احساس الاديب بالموضوع الذي تناوله •
كالشكوى والعتاب والاعتذار وما الى ذلك مما يرتقي الى مستوى
الانفعالات الوجدانية والحوافز العاطفية الاخرى •

ذكروا ان النضر بن الحارث كان شديد العداوة لله وللرسول فأهدر
رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه • ولما أسر يوم بدر أمر علياً رضي الله

منه بقتله فقتله • وبعد قتله عرضت اخته قبيلة بنت الحارث للنبي فأشدته
عتابها • فقالت :

يا راكبا ان الاثيل مظنة	من صبح غادية وأنت موفق
أبلغ بها ميتا بأن تحية	ما ان تزال بها النجائب تعنق
منى اليه وعبرة مسفوحة	جادت بواكفها واخرى تخنق
هل يسمعن النضر ان ناديته	ان كان يسمع ميت لا ينطق
ظلت سيوف بني أبيه تنوشه	لله أرحام هناك تشقق
قسرا يقاد الى المنية متعبا	رسف المقيد وهو عان موثق
أمحمد ها أنت صنو كريمة	في قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما	من الفتي وهو المغيظ المحنق
فالنظر أقرب من قنلت قرابة	وأحقهم ان كان عتق يعتق

هذه القصيدة وان كان موضوعها عتابا غير انها تدفق عاطفة وتنفجر
بكاء لان عتابها مشوب بلوعة الاخوت التكلية التي فدحتها المصيبة ولبسها
الحزن والهم • وهكذا تكون العواطف زاخرة بجياشة في القطعة الادبية
حين يكون شعور صاحبها متقدما واحساسه بها قويا • ومن الشعر العاطفي
قول الصمة بن عبدالله بن طفيل يحن الى وطنه ويتشوق الى أحبته ويبكي
على حاله :

حننت الى ريا ونفسك باعدت	مزارك من ريا وشعبا كما معا
فما حسن ان تأتي الامر طائعا	وتجزع ان داعي الصباة اسمعا
قفا ودعا نجدا ومن حل بالحمى	وقل لنجد عندنا أن يودعا
بنفسي تلك الارض ما أطيب الربا	وما أحسن المصطاف والتربعا
وليست عشيات الحمى برواجع	عليك ولكن خل عينيك تدمعا
ولما رأيت البشر أعرض دوننا	وحالت بنات الشوق يحنن نزعنا

بكت عيني اليسرى فلما زجرتها
تلفت نحو الحي حتى وجدتي
وأذكر أيام الحمى ثم انثني
على كبدي من خشية أن تصدعا
و كقول شمس الدين وهو من الشعراء المعاصرين في قصيدته موكب
الجمال التي يقول فيها :

في مغاني الهوى نسيت وجودي
ايه يا عمر كيف تمضي هباء
هذه الارض كلها صبوات
وحفيف الاوهام يزعج وعيي
وعزيز عليّ أحسب حياً
وتلاشت مشاعري في شرودي
أين ذاتي وأين رجع نشيدي
وظلال تكاثفت في صعيدي
نافذ الصوت في فؤادي الوئيد
وانا الميت في حنايا لحدودي

وأوجز بعض النقاد هذه العواطف الادبية في أربعة فقال : الرغبة
والرهبة والطرب والغضب ورأوا ان أغراض الشعر تصدر عنها • فمع
الرغبة يكون المدح والشكر ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف • ومع
الطرب يكون الشوق ورقة النسيب • ومع الغضب يكون الهجاء والتوعد
والعتاب الموجع (١) •

وقال دعبل الخزاعي في كتاب له في الشعر (من أراد المديح
فبالرغبة ومن أراد الهجاء فبالغضاء • ومن أراد التشبيب فبالشوق والعشق •
ومن أراد المعاتبة فبالاستبطاء (٢) •

٢ - الخيال :

الخيال للادب كالجنح للطائر فاذا دخل عنصر الخيال في تركيب
الكلام صار الكلام رائقاً مؤثراً كما ان الطائر اذا رفرف بجناحيه

(١) اسس النقد الادبي عند العرب للدكتور أحمد أحمد بدوي نقلا عن
العمدة •

(٢) العمدة ج ١ ص ٧٩ •

ارتقى الى أجواء عالية • وهكذا الشاعر اذا جمّل شعره برداء من التشبيه والاستعارة والبسه غلالة من المجاز والكناية وجعل معانيه ذات قيم انسانية زاخرة بالعواطف المتزنة الراقية كان جديرا بالاعجاب والاكبار وكان خليقا بأن يكون أدبا رفيعا موسوما بسمه الجمال •

عذبة أنت كالطفولة كالأحلام	كاللحن كالصباح الجديد
كالسما الضحوك كالليلة القمر	كالورد كابتسام الوليد
كلما ابصرتك عيناى تمشين	بخطو موقع كالنشد
خفق القلب للحياة ورق الزهر	ر في حقل عمرى المجرود
وانتشت روحي الكئيبه بالحب	وغنت كالبلبل الفريد
خطوات سكرانة بالاناشيد	وصوت كرجع ناي بعيد
كل شئ موقع فيك حتى	لفتة الجيد واهتزاز النهود ^(٣)

ان كل لفظه من الفاظ هذه القطعة يشتمل على خيال بديع فضلا عن التشبيهات والاستعارات المبتوثة في تراكييها • ففي كلمات الطفولة واللحن والصبح والسما الضحوك والليله القمر والورد وخفقان القلب وانتشاء الروح والخطوات السكرانة وترجيع الناي ولفتة الجيد واهتزاز النهود فى كل ذلك معان لو اتعمنا النظر فيها ونظرنا اليها بمنظار العاطفة والجمال لوجدنا أنفسنا فى غمرة من الأحلام الجميلة • خذ مثلا كلمة الطفولة وحدها وتمعن فيما توحيه اليك من البراءة وما تحسه فى قلبك من الحنان لهذا المخلوق الجميل فستجد نفسك فى عالم زاخر بالذكريات العذبة والاماني المعسولة فى عالم محاط بهالة من نور البراءة المتمثلة فى تلك الطفولة •

وقد يكون الخيال متمثلا فى خلق قصة ذات حوادث وشخصيات

(٣) من قصيدة للشابى تحت عنوان (صلوات فى هيكل الحب) •

ومناظر ينشئها الاديب ويصورها من بنات أفكاره وخواطره دون أن يكون لها ظل من الحقيقة في دنيا الواقع فيث فيها أمانيه وأحلامه وجميع تصوراته الدائرة في خلدته مما لا يقوى على تحقيقه في واقع الحياة •

وقد أنشأ العرب قصصا على السنة الحيوان والنبات والجماد مما يدل على قدرتهم في الابداع في أى مجال كان •

الاسلوب

هو الطريقة التي يعرض فيها الاديب أفكاره ومعانيه كتابة أو خطابة • ويقسم الاسلوب مبدئيا الى ثلاثة أقسام : علمي وأدبي وخطابي •

أما الاسلوب العلمي فهو أهدأ الاساليب وأكثرها احتياجا الى المنطق السليم والفكر المستقيم وأبعدها عن الخيال الشعري لانه يخاطب ويناجي الفكر ويشرح الحقائق العلمية التي لا تخلو من غموض وخفاء وأظهر ميزاته سهولة العبارة وقوة الحججة ووضوح المعنى وتقريره في الافهام من أقرب وجوه الكلام •

أما الاسلوب الادبي فهو هذا الذى تظهر به المعاني جليلة قوية جميلة مؤثرة به تعرف شخصية الاديب وخصائصه الفنية بما ينفثه فيه من روعة التعبير وجمال التصوير ودقة التفكير وبما يبثه فيه من حرارة العاطفة وبديع الخيال • ولامر ما قالوا الاسلوب هو الاديب والاديب هو الاسلوب •

ولقد تعرض لتعريف الاسلوب الادبي جمهرة كبيرة من الفنانين والادباء • وها أنا ادون بعضها لما فيها من نفع وفائدة قانوا :

الاسلوب هو النظام الذى يتبعه الاديب في اختيار الكلمات وتأليفها على نسق خاص •

وقالوا : الاسلوب هو الطريقة اللفظية التي يعرض الاديب فيها صور شعوره وأحاسيس نفسه •

وقالوا : هو تلك المعاني الشعورية التي يخرجها الاديب فى عبارات ملائمة لها •

وقالوا : الاسلوب هو طريقة التفكير والتصوير والتعبير •

وقال المرحوم علي الجارم : الاسلوب هو المعنى المصوغ فى الفاظ مؤلفة على صورة تكون أقرب لنيل الغرض المقصود من الكلام وأفضل فى نفس سامعيه •

وجاء فى كتاب فنون الادب من سلسلة الفكر الحديث : الاسلوب هو الطريقة الخاصة فى اخراج المعانى • ثم جاء فى الكتاب نفسه ان الجيد من الاساليب هو ذلك الذى يصور خلجات نفس الاديب ويكون له أعمق الأثر فى نفس قارئه وسامعيه •

وأعود فأقول : ان الاساليب كثيرة متشعبة لا تكاد تحصى لكثرة المبدعين الممتازين بقوة اسلوبهم وبراعتهم فى التعبير • فهى اذن تصميم ذهنى يفرغه الاديب فى قوالب من الالفاظ تجمل به ويجمل بها ويكون لها التأثير القوى فى نفوس القارئين والسامعين •

ولا يخفى ان الاساليب تختلف باختلاف الأنواع الادبية فللقصة اسلوب وللمقالة اسلوب وللمسرحية اسلوب وللرسالة اسلوب ولكل نوع من أنواع الشعر اسلوب • وكذلك تختلف بالنسبة للاغراض الادبية فللمدح اسلوب وللهجاء اسلوب وللغزل اسلوب وللرثاء اسلوب وللوصف اسلوب فلا يصح استعمال اسلوب المدح فى الهجاء ولا اسلوب الغزل فى الرثاء فلكل موضوع الفاظه ومناهجه ولكل مقام مقالته وعبارته • من هنا نعلم ان الاسلوب يقتحم جميع هذه الأنواع والاعراض وانه يتحكم فيها من جهة ويخدمها من جهة اخرى •

الذوق

الذوق لغة هو الحاسة التي نميز بها خواص الاجسام الطبيعية بواسطة الجهاز الحسي في الفم • ومركزه اللسان • فبالذوق ندرك طعم الحلاوة والمرارة والحموضة وما يتراوح بين هذه الطعوم من مذاق^(٥) والذوق بعامة يظهر في مجالات كثيرة ••• يظهر في رعايتك لنفسك وأهلك ، ويظهر في تصرفك مع جيرتك وصحبتك ، ويظهر مع من تادهم وتسهر معهم في جمعيتك وناديك ، ويظهر مع من تعاملهم في شرائك وبيعك ويظهر في مجالستك مع أساتذتك وأبناء صفك •

وإذا ارتقى ذوق الانسان وعرف ماله من حقوق وما عليه من واجبات نال حظا كبيرا من سمو المنزلة وسمو الذات وصار أهلا للتقدير والاحترام •

الذوق الادبي

وأما معنى الذوق في الادب والفن فهو حاسة معنوية يصدر عنها انبساط النفس أو انقباضها لدى النظر في أثر من آثار العاطفة أو الفكر • أو هو كما يقول البلاغيون حصول ملكة البلاغة للسان • فيقال مثلا هو حسن الذوق للشعر فهامة له خير بنقده •

ولقد تكون هذه الحاسة البيانية في الانسان الذي ينشأ بين فصحاء اللغة ويأخذ عنهم علومها وادبها ونقدها رواية ودراية وحفظا منذ طفولته حتى يتخرج فيها شاعرا أو كاتباً أو خطيباً •

وقد تكون أحكام حاسة الذوق غير صائبة في بعض الاحيان • وذلك حين تتأثر بتأثيرات نفسية وعضوية تفسد على صاحبها صدق النظر في التجارب الادبية •

(٥) المعجم الوسيط ج ١ ص ٣١٨ •

ومن هنا جاز للبعض أن يقول بعدم الاعتماد الكلي على أحكام
الذوق •

أما إذا ثبت على وجه التحقيق سلامة تلك الحاسة واكتمال مادة العلم
والادب في نفس صاحبها فإن الذوق حينئذ يصبح عنصرا هاما ومرجعاً
معتبراً تعرض عليه الأحكام النقدية في أية تجربة أدبية •

يرى الدكتور مندور أن الذوق وان يكن من أعمق ملكاتنا البشرية
في ادراك مواضع الجمال والقبح الا انه لا يمكن أن يصبح وسيلة مشروعة
للمعرفة التي تصح لدى الغير الا اذا علل بأسباب عقلية وفنية ونفسية
تستطيع أن توحى بمثل ما تحس به • والا أصبح ما نقوله ادعاء كاذبا ان
لم يكن نصبا^(٦) •

وعلى ذلك يكون الذوق الجدير بالاعتبار هو ذلك الذوق المثقف
الذي هذبته التجارب العلمية والادبية والمؤيد بالاستعداد الفطري والموهبة
اللدنية •

رأي عبدالقاهر الجرجاني وابن خلدون في الذوق

الذوق عند عبدالقاهر استعداد خاص يهيء صاحبه لتقدير الجمال
وفهم أسرار الحسن ••• فالجرجاني يجعل هذا الاستعداد الخاص شرطا
أساسيا لتذوق الجمال في الشؤون الادبية^(٧) كما أنه لم يغفل ثقافة الناقد
الادبي ثم لا يكون الناقد ناقدا حتى يكون محيطا بجميع أسباب العلم
والمعرفة مدركا لكل ما يقتضيه فن القول من مظاهر الحسن والجمال •

أما ابن خلدون فقد قال ان الذوق معناه حصول ملكة البلاغة
للسان ••• ويرى ان هذه الملكة لا تحصل الا اذا استقرت ورسخت في

(٦) ملخص عن مقدمة كتاب في الميزان الجديد •

(٧) دلائل الاعجاز ص ٢٢٥ •

محالها • حيثذ تظهر كأنها طبيعة وجبلة لذلك المحل •

من هنا نعلم ان ابن خلدون لا يقول بالاستعداد الفطرى ويرى ان الملكات انما تنشأ من المخالطة والممارسة •• ويقول فى ذلك : ان كثيرا من المغفلين ممن لم يعرف شأن الملكات يظن ان الصواب للعرب فى لغتهم اعرابا وبلاغة أمر طبيعي والحقيقة ليست كذلك ••• وانما هي ملكة لسانية فى نظم الكلام تمكنت ورسخت فظهرت فى بادي الرأي كأنها جبلة وطبع • وحجة ابن خلدون فى ذلك ان صاحب هذه الملكة لو رام جيدا عن هذا السبيل المعينة والتراكيب المخصوصة لما قدر عليه ولا وافقه على ذلك لسانه • واذا عرض عليه الكلام حائدا عن اسلوب العرب وبلاغتهم فى نظم كلامهم عرض عنه ومجته ذوقه على اعتبار انه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم •

ثم يقول ابن خلدون ان اسم الذوق الذى اصطلح عليه أهل صناعة البيان انما هو موضوع لادراك الطعوم • لكن لما كان محل هذه الملكة فى اللسان من حيث النطق بالكلام كما هو محل لادراك الطعوم استعير له اسمه فسموه الذوق على سبيل الاستعارة ••

ثم قال فان عرض لك ما تسمعه من أن سيويه والفارسي والزمخشري وأمثالهم من فرسان الكلام كانوا أعجاما مع حصول هذه الملكة فاعلم ان هؤلاء الذين تسمع عنهم انما كانوا عجماء فى نسبهم فقط • وأما المرابي والنشأة فكانت بين أهل هذه الملكة من العرب ومن الذين تعلمها منهم • فاستولوا بذلك من الكلام على غاية ما وراءها غاية •

ثم قال ما معناه لو أن واحدا من غير العرب رسخت فيه ملكة مخالفة الملكة اللسان العربي ثم أقبل على ممارسة كلام العرب وأشعارهم بالمدارسة والحفظ فهل تحصل له ملكة اللسان العربي ؟ ان ابن خلدون ينفي ذلك

ويرى ان الملكة اذا سبقتها ملكة اخرى في المحل فلا تحصل له تلك الملكة
الطارئة الا ناقصة مخدوشة^(٨) .

ومن جميل ما يروى في أمر الذوق مقالة قالها الاستاذ حمزة فتح الله
في كتابه المواهب^(٩) : قال انه متى تقاربت المعاني في بيتين أو أبيات أو
جملتين أو جمل عسر التعبير عن علة كون هذا أجود من ذلك وكان المعول
عليه في التفضيل انما هو الذوق البحت والسليقة السليمة بل قد يوجد من
الكلام في غير المقارنة ما يبلغ في حسن اللفظ والمعنى مبلغا يأخذ بمجامع
القلوب فان حاولت التعبير عن صفة ذلك الحسن استعصت عليك العبارة
وضاق عنها نطاق الامكان حتى قالوا : ان ذلك كالحسن في وجوه الملاح
يعرف ولا يوصف الا ترى انه قد يكون فرسان سليمان من كل عيب
وموجود فيهما سائر علامات العتق والجودة والنجاة ويكون أحدهما أفضل
من الآخر بفرق لا يعلمه الا أهل الخبرة والدربة الطويلة وكذلك
الجاريان البارعتان في الجمال المتقاربتان في الوصف السليمتان من كل عيب
قد يفرق بينهما العالم بأمر الرقيق حتى يجعل بينهما فضلا كبيرا فاذا قيل
له أو للنخاس اتى لك هذا التفضيل ؟ لم يقدر على عبارة توضح الفرق بينهما
وانما يعرفه كل واحد منهما بسليقته وكثرة دربه وطول ملبسته .

فكذلك الشعر قد يتقارب البيتان الجيدان النادران فيعلم أهل العلم
بصناعة الشعر أيهما أجود ان كان معاهما واحدا أو أيهما أجود في معناه
ان كان معاهما مختلفين .

حكى اسحاق الموصلي قال : قال لي المعتصم : اخبرني عن معرفة
النعم وبينهما لي فقلت : ان من الاشياء أشياء تحيط بها المعرفة ولا تؤديها الصفة .

(٨) المقدمة ص ٣٢٢ طبعة بولاق .

(٩) المواهب الفتحية ج ٣٢ (١٢٢) .

وقال اسحاق أيضا سألتني محمد الامين عن شعرين متقاربين وقال اختر
أحدهما فاخترت * قال من أين فضلت هذا على هذا وهما متقاربان فقلت
لو تفاوتتا لامكنتني التبيين ، ولكنهما تقاربا وفضلت هذا بشيء تشهد به الطبيعة
ولا يعبر عنه اللسان *

لقد بان من عموم ما ذكرت ان هناك استعدادا فطريا يساعد صاحبه
على ادراك مواطن الجمال بقوة خفية ولباقة فائقة لا تتأنيان الا لعبرى عظيم
له حاسة فنية يعرف بها دقائق الحسنى واسراره مما هو أدق من فتنة الخدود
وسحر العيون وأعمق من رشاقة القد ونصاعة الجبين *

وجمال البيان كجمال الفتيات الحسان لا يدركه الا صاحب الحاسة
الفنية الخبير بالشئون الادبية يدركه بفطرته وحاسته ويعجز عن وصفه
وتصويره * ولامر ما قالوا « شيان لا نهاية لهما البيان والجمال » كم من
الناس من يدرك صورة الهول الذي صورته الآية الكريمة (أو كظلمات
فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها
فوق بعض) أو يدرك صورة تلك الغادة الحسناء التى صورها خيال
الشاعر مصطفى صادق الرافعى حين يقول :

تقاسمت الحسن الالهى وانتنى يقاسمها والامر بينهما إمر
فللشمس منها طلعة الحسن مشرقا وفيها من الشمس التوقد والجمر
وللظبي منها مقلتها وجيدها وفيها من الظبي التلفت والذعر
نعم لا يدرك أسرار سحر البيان الا الموهوبون من الكتاب والشعراء *

الفصل الثالث

المعاني والالفاظ

أركان الكلام اثنان معان والفاظ • فالمعاني هي تلك الافكار التي تتضمنها الالفاظ والتي هي مدار حاجات الناس جميعا • فالمعاني يحقق الافراد أغراضهم ومقاصدهم وبقوتها تمايز عقولهم ومنازلهم في مدارج الكمال • ومن عرف دقة المعاني وعمقها وأحسن ترتيبها على وجوهها المنطقية بلغ الذروة في البلاغة وفصل الخطاب • فكم من مغمور برز في مجتمعه وتقدم على أقرانه بما أتى به من معنى دقيق ولفظ رشيق وتركيب أنيق وكثير ما هم • الا ترى الذين يطلقون الفاظهم دون أن تكون لهم في أنفسهم فكرة معينة واضحة تأتي تلك الالفاظ باردة جامدة لا روح فيها ولا تأثير لها؟ بلى ان المعاني اذا كانت جديدة عميقة لعبت بالعواطف وسحرت العقول •

من ذلك قول بعضهم :

تقلت زجاجات أتتسا فرغا حتى اذا ملئت بصرف الراح
خفت فكادت أن تطير بما حوت وكذا الجسوم تخف بالارواح

وكقول سلم الخاسر :

فأنت كالدهر مبسوئا جبائله والدهر لا ملجأ منه ولا هرب
ولو ملكت عنان الريح اصرفه في كل ناحية ما فاتك الطلب

وكقول أحدهم :

والله لو وجدوا للبدر تسمية لاخير اسمك يا من تعشق المقل

كلا كما الحسن فتانا بصورته وزدت انك أنت الحب والغزل
وكقول الآخر اجتمع فيه دقة المعنى ولطف الخيال :

أشفقت ان تئد الدموع جروحها ان اظهرت فسكبتها في خاطري
ولعلماء البيان آراء مختلفة في قيم المعاني والالفاظ في الشعر خاصة ،
فذهب بعضهم الى ترجيح قيمة المعنى على اللفظ بينما البعض يرجح قيمة
اللفظ على المعنى . وممن قال ان العبرة بالمعاني لا بالالفاظ الشيخ عبدالقاهر
الجرجاني في كتابه أسرار البلاغة حيث يقول (ان محاسن الكلام ترجع
الى المعاني واذا استجدنا شعرا ووصفنا الفاظه بالحلاوة والرشاقة وغيرها من
الاصناف فانها لا تنبىء عن أحوال ترجع الى جرس الحروف والى ظاهر
الوضع اللغوى بل الى أمر يقع من المرء في فؤاده وفضل يقتدحه المرء من
زناده . وأما استحسان اللفظ من غير شرك المعاني فيه فلا يكاد يعدو نمطا
واحدا وهو أن يكون اللفظ مما يتعارفه الناس في استعمالهم ويتداولونه
في ازمانهم ولا يكون وحشيا غريبا أو عاميا سخيفا) .

وكذلك ذهب هذا المذهب في ترجيح قيمة المعاني على قيمة الالفاظ
ضياء الدين بن الاثير في الجزء الاول من كتابه المثل السائر حين أخذ في
الاطراء على جلاله المعاني في قول الشاعر :

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالاركان من هو ماسح
أخذنا بأطراف الاحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الاباطح

فقال ان في قول الشاعر كل حاجة مما يستفيد منه أهل النسيب
والرقة والاهواء والمقة مالا يستفيدة غيرهم ولا يشاركهم فيه من ليس منهم .
الا ترى ان حوائج منى كثيرة فمنها التلاقي والتشاكبي ومنها التخلي للاجتماع
الى غير ذلك مما هو تال ومعقود الكون به فكان
الشاعر صانع في هذا الموضع الذي أوماً له وعقد غرضه عليه بقوله في

آخر البيت (ومسح بالاركان من هو مسح) أى انما كانت حوائجنا التي
فضيناها وأرابنا التي بلغناها من هذا النحو الذي هو مسح بالاركان وما هو
لاحق به وجار في القربة من الله مجراه • أى لم تتعد هذا القدر المذكور
الى ما يحتمله أول البيت من التعريض الجارى مجرى التصريح • وأما
البيت الثانى فان فيه « أخذنا بأطراف الاحاديث بيننا » وفي هذا ما نذكره
لتعجب به وبمن عجب منه ووضع من معناه وذلك انه لو قال أخذنا في
أحاديثنا أو نحو ذلك لكان فيه ما يكبره أهل النسيب فانه قد شاع عنهم
واتسع فى محاوراتهم علو قدر الحديث بين الالفين والجدل بجمع شمل
المواصلين • الا ترى الى قول بعضهم :

وحدثني يا سعد عنها فزدني جنونا فزدني من حديثك يا سعد

وقول الآخر :

وحديثها السحر الحلال لو انه لم يجن قتل المسلم المتحرز

فاذا كان قدر الحديث عندهم على ما نرى فكيف به اذا قيده بقوله
(أخذنا بأطراف الاحاديث) فان فى ذلك وحيا خفيا ورمزا حلوا الا ترى
انه قد يريد بأطرافها ما يتعاطاه المحبون ويتفاوضه ذوو الصبابة من التعريض
والتلويح والايحاء دون التصريح • وذلك أحلى وأطيب وأغزل وأنسب
من أن يكون كشفا ومصارحة وجهرا وان كان الامر كذلك فمعنى هذين
البيتين أعلى عندهم وأشد تقدما فى نفوسهم من لفظهما وان عذب ولد
مستمعه فى قول الشاعر : (وسالت بأعناق المطى الاباطح)

من لطافة المعنى وحسنه ما لاخفاء فيه • وسأنبه على ذلك فأقول :
ان هؤلاء لما تحدثوا وهم سائرون على المطايا شغلتهم لذة الحديث عن امسك
الازمة فاسترخت عن أيديهم وكذلك شأن من يشره وتغلبه الشهوة فى
أمر من الامور ولما كان الامر كذلك وارتخت الازمة عن الايدى أسرع
المطايا المسير فشبهت أعناقها بمرور السيل على وجه الارض فى سرعته •

وهذا موضع كريم حسن لا مزيد على حسنه • والذي لا ينعم نظره فيه لا يعلم ما اشتمل عليه من المعنى • فالعرب انما تحسن الفاظها وتزخر فيها عناية منها بالمعاني التي تحتها فالالفاظ اذا خدم المعاني والمخدوم لا شك أشرف من الخادم •

أما الذين قالوا ان العبرة بالالفاظ فمنهم أبو هلال العسكري اذ قال • وليس الشأن في اعداد المعاني لان المعاني يعرفها العربي والعجمي والبدوي • وانما هو جودة اللفظ وصفائه وحسنه وبهائه ونزاهته ونقائه وكثرة طلاوته ومائه مع صحة السبك والتركيب والخلو من اود النظم والتأليف • وليس يطلب من المعنى الا ان يكون صوابا ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما وصفنا من نعوته التي تقدمت • وقال في موضع آخر • الكلام اذا كان لفظه عذبا وسلسا سهلا ومعناه وسطا دخل في جملة الجيد وجرى مع الرائع النادر • وهذا الرأي مستمد من قول الجاحظ حين يقول (وانما الشأن في اقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وجودة السبك وانما الشعر صياغة وضرب من التصوير •

وكذلك ذهب الى هذا المنحى ابن خلدون اذ قال في مقدمته • اعلم ان صناعة الكلام نظما ونثرا انما هي في الالفاظ لا في المعاني وانما المعاني تبع لها وهي أصل • والمعاني موجودة عند كل واحد وفي طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى فلا تحتاج الى صناعة • وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة وهو بمثابة القالب للمعاني فكما ان الاواني التي يعترف بها الماء من البحر منها آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والزخرف والماء واحد في نفسه • وتختلف الجودة في الاواني المملوءة بالماء لا باختلاف الماء ، كذلك جودة اللغة وبلاغتها في الاستعمال تختلف باختلاف طبقات الكلام في تأليفه باعتبار تطبيقه على المقاصد والمعاني واحدة في

نفسها (١) . انتهى .

والصواب عندى ان المعاني والالفاظ كجناحي الطائر لا يطير الا
بسلامتها فاذا هبض أحد جناحيه ظل يتخبط ولصق بالتراب .
ولقد كنت قد ذكرت في كتابي (الادب ومذاهب النقد فيه) رأيا
للمرحوم مصطفى لطفى المنفلوطي وضح فيه العلاقة القوية بين المعاني
والالفاظ فبلغ به غاية الصواب اذ قال :

لم أر فيما رأيت من الآراء في قديم الادب وحديثه أغرب من اولئك
الذين يفرقون في أحكامهم بين اللفظ والمعنى ويصفون كلا منهما بصفة
تختلف عن صفة الآخر فيقولون ما أجمل اسلوب هذه القصيدة لولا ان
معانيها ساقطة مردولة . أو ما أبدع هذه القطعة لولا ان اسلوبها قبيح
مضطرب . كأنما يخيل اليهم أن اللفظ وعاء وان المعنى سائل من السوائل
يملاً ذلك الوعاء فتارة يكون خمرا وتارة يكون خلا ويكون حيناً صافياً
واخرى كدراً والوعاء باق على صورته لا يتغير . وما علموا أنهما متحدان
ممتزجان امتزاج الشمس بشعاعها والخمر بنشوتها فكما لا يجوز أن نقول
ما أجمل الشمس وأقبح شعاعها ولا ما أعذب الخمر وأمرّ نشوتها كذلك
لا يجوز أن تصف اللفظ بالجمال والمعنى بالقبح أو نعكس ذلك .

فليعلم الناشء المتأدب انه ليس للفظ كيان مستقل ولا حيز خاص
فجماله جمال معناه وقبحه قبحه وان القطع الادبية الشعرية أو النثرية التي
تصف اسلوبها بالجمال انما تصف بذلك معانيها وأغراضها . وان الذين
يزعمون من الشعراء والكتاب ان اساليبهم الغامضة الركيكة المضطربة
تشتمل على معان شريفة عالية كاذبون بزعمهم أو واهمون . لا يضطرب
اللفظ الا لان معناه مضطرب في نفس صاحبه ولا يغمض الا لان معناه

(١) صفحة (٣٣٠) الطبعة الاولى في المطبعة الخيرية بالقاهرة .

غامض في نفسه • ومحال ان يعجز الفاهم عن الافهام ولا المتأثر عن التأثير
ولا المقتنع عن الاقناع •

وما البيان الا المرآة التي ترسم فيها صورة النفس فحيث تكون جميلة
فهو جميل أو قبيحة فهو قبيح أو مضيئة فهو مضيء أو مظلمة فهو مظلم •
فاذا استطعنا ان نتصور مرآة تكذب في تمثيل الصورة الماثلة أمامها
استطعنا أن نتصور بياناً يختلف في وصفه عن وصف نفس صاحبه (٢) •

(٢) كتاب الادب ومذاهب النقد فيه صفحة ٣٥ •

الفصل الرابع

الاجناس الادبية

الاجناس الادبية : هي تلك الفنون التي استحدثتها الادباء وصوروا بها ما جادت به قرائحهم من بدائع المعاني ومحاسن الالفاظ وفنون الاساليب كالخطبة والرسالة والمقامة والمقالة والقصة والمسرحية وما يمكن أن تبذره عواطف الادباء ومستلزمات التطور .

الخطبة

الخطبة فن من فنون الكلام نشأت منذ فجر الحياة الاجتماعية . غير انها نشأت بشكل يتناسب مع تفكير تلك الجماعات البدائية ويتلاءم مع حاجاتهم الزمنية ، ثم أخذت تتطور وتتهذب شيئا فشيئا بحسب تقدم الناس في مضمار الرقي .

ان الظاهر من تتبعات الباحثين في الشؤون الخطابية ان الخطبة أخذت شكلها الموضوعي زمن أثينا غير أن هذا الشكل لم يأخذ نصبه من النضج الا بعد أن ألف ارسطو كتابه « فن الخطابة » الذي اعتبره المعنيون بالخطابة كتابا اصيلا . اذ قالوا عنه ان اصله ثابتة له شكلا ومضمونا ولا ينبغي أن نفهم بأن الاصلية ابتكار واختراع محض ، وانما للاصلية العلمية معنى آخر غير معنى الاختراع . ولا يقدر فيها ان يسبق المؤلف الى موضوعه اذا كان المؤلف المتأخر قد عرض لآراء من تقدموه وألح عليها بالنقد والنقض وهكذا كان ارسطو فقد سبقه افلاطون في الكلام عن الخطابة . وسبقه السوفسطائيون الى موضوعها علميا وعمليا وسبقه خطباء من غير السوفسطائيين حيث دونوا ملاحظاتهم على خطبهم واتخذوا من هذه

الملاحظ قواعد ومقاييس ساروا عليها^(١) .

وهكذا ظل فن الخطابة موضوع اعجاب الناس ومحل تقديرهم وطريقا الى اكتساب المجد وذيوع الصيت حتى تهافت على تعلمها كل من يريد علواً في الحياة الاجتماعية والسياسية والادبية وغيرها من مظاهر الحياة العامة .

ولم يقف شأن الخطابة في اليونانية بل تعداها الى البلاد الرومانية فانشأت فيها مدارس اهتمت بفن الخطابة اهتماما كبيرا ، وكان ممن اشتهر بالخطابة من الرومان الخطيب المفوه شيشرون . وكان انجيل هاتيك المدارس هو كتاب ارسطو « فن الخطابة » هذا من ناحية الخطابة تاريخيا . أما من ناحية اهتمام الناس بها وتأثيرها على نفوسهم فهي تعتبر أمرا مشتركا بين جميع الامم على اختلاف أجناسها ولغاتها وأهدافها .

وانا لا اجافي الحق اذا قلت ان امتنا العربية لها القدر المعلى في شؤون الخطابة ولا سيما بعد ظهور الاسلام . ذلك لان الدعوة الاسلامية هي الدعوة الحققة التي يستطيع الخطيب أن يقول فيها ما وسعه القول من المحامد والمكارم والمثل العليا . ولا يقول الا حقا ولا يدعى الا صدقا . ذلك ان الاسلام هو الشريعة الوحيدة التي يرتفع بها صوت الحق وتسان بها كرامة الانسان ويتقدم بها الرقي الخلقي حتى يبلغ ما شاء له الله أن يبلغه من مراتب الكمال .

ولهذا فاني موقن بأن الخطابة الحققة هي التي نشأت في جزيرة العرب واتسع مداها ابان ظهور الاسلام . نظرة الى معجزة الفتح العربي الاسلامي تجد ان الخطابة كانت من أكبر العوامل في انتشار الدعوة الاسلامية واتساع رقعة الفتوحات العربية . . . لان نصف قرن في تاريخ

(١) في صدر ترجمة كتاب الخطابة لارسطو للدكتور ابراهيم سلامة .

نهضات الشعوب لا يعتبر شيئاً كثيراً بالنسبة للتطورات العظيمة في تغيير العقائد واصول الاجتماع ... من هنا كانت الخطابة أقوى قوة بيد القادة والزعماء ينشرون بها مبادئهم ومناهج أعمالهم وأعظم وسيلة للاقناع والتأثير فهي كبرى مزايا الهداة والمصلحين ومنبر الولاة والحكام ومرتقى العلماء والمعلمين ثم هي زينة في المحافل وسلاح في الحروب واداة للسلام ، بها تفض الخصومات وبها تحل الازمات وبها ترجع الامور الى مجاريها الاعتيادية .

هل الخطابة علم أو فن ؟

قلت ان الخطابة فن ... والفن تطبيق عملي للنظريات العلمية بالوسائل التي تحققها ... وأهم نظريات الخطابة هي تلك التي تجعل الخطبة ناجحة في تحقيق أهدافها ... ولا تكون كذلك ما لم تكن الخطبة مشتملة على فصاحة مفرداتها وبلاغة تراكيبها وجمال صورها . ومتضمنة أعلى المبادئ التي تهفو اليها الاسماع وتلهج بها الافئدة وتحقق للناس أغراضهم الحيوية المتصلة بصميم حياتهم الفردية والاجتماعية مما تقتضيه أحداثهم الراهنة وتشير اليه قضايا الساعة .

من هذا المنطلق كان لزاماً على الخطيب أن يكون ملماً بجميع المقاييس العلمية والفنية والذوقية مدركاً لكل مظهر من مظاهر الجمال ذواقة للمصور الأدبية الرائعة التي تجسد المعاني المثالية للحياة الانسانية .

إذا المرء لم تبدهك بالحزم والحجج قريحته لم تغن عنه تجاربه كما كان لزاماً عليه أن يكون رابط الجأش ساكن الجوارح مسيطراً على التعبير لا يكلم البلغاء بكلام السوقه وان يكون لفظه مونقاً ومعناه نيراً . ومدار الامر على افهام كل قوم بقدر طاقتهم والحديث معهم بما يناسب أقدارهم . وان يكون مؤمناً بالافكار التي يريد نشرها في الناس لان فاقد

الشيء لا يعطيه • ومعنى ذلك ان الانسان الذي لا يؤمن بما يقول لا يستطيع نقل أفكاره الى غيره فعامل التجاوب بين الخطيب والسامع انما هو تجاوب روحي قبل أن يكون تجاوبا عن طريق الالفاظ • فالفكرة الصادرة من قلب صاحبها المؤمن بها هي التي لها التأثير الاول ، ولألفاظها التأثير الثاني • ان حروف اللغة التي نسجت منها آيات القرآن الكريم والتي صيغت منها أحاديث النبي هي نفس الحروف التي نخطب بها ونكتب •• ولكن أين يقع كلامنا من كلام الله وما محل أحاديثنا من محل أحاديثه صلوات الله وسلامه عليه •

خطبة له عليه الصلاة والسلام

أيها الناس ان لكم معالم • فانتهاوا الى معالمكم • وان لكم نهاية فانتهاوا الى نهايتكم • فان العبد بين مخافتين بين عاجل قد مضى لا يدري ما الله فاعل به وبين آجل قد بقى لا يدري ما الله قاض فيه فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ومن الحياة قبل الموت ، فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعجب ، ولا بعد الدنيا من دار الا الجنة أو النار •

الرسالة

ومن الاجناس الادبية الرسالة وهي : كلام بين اثنين أو أكثر مشتمل على قليل من المسائل الخاصة بين المتراسلين ••• وتكون عادة في موضوع واحد يهم المرسل والمرسل اليه فيما يدور حول شئونهم الخاصة أو العامة • وقد تطلق الرسالة على بحث مبتكر يقدمه طالب العلم لنيل شهادة عالية كشهادة الماجستير أو الدكتوراه مثلاً • وكذلك تطلق الرسالة على شريعة من الشرائع السماوية التي أوحى

الله بها سبحانه وتعالى الى الناس كافة عن طريق أنبيائه ورسله لتطوير حياتهم وانتقالهم من عهد الى عهد آخر اشمل منه وأكمل .

وكان المتراسلون من العرب في العهد الجاهلي وصدر الاسلام يبدأون رسائلهم بداية بسيطة خالية من الفاظ التعظيم وفخامة الالقاب ، فالعربي في الجاهلية يبدأها باسمك اللهم ثم يكتب من فلان الى فلان ، ويمضي الى غرضه حتى يتمه وكان النبي (ص) يفتح كتبه باسم الله الرحمن الرحيم . ثم يكتب من محمد رسول الله الى فلان السلام عليك أو السلام على من اتبع الهدى ثم يحمد الله ويثني عليه ثم يمضي الى مقصوده . وكذلك الصحابة فقد كتب عمر رضى الله عنه الى الامصار فقال بسم الله الرحمن الرحيم من عمر أمير المؤمنين الى ولاة الامصار . اني لم أعزل خالدا عن سخطه ولا خيانة ولكن الناس فتنوا به فخفت ان يوكلوا اليه ويبتلوا به فأحييت أن يعلموا ان الله هو الصانع وان لا يكونوا بعرض مفتنة . والسلام (٢) .

وفي أواخر الدولة الاموية أخذت الرسائل اسلوبا آخر فيها ميل شديد الى تميق اللفظ وزخرفة القول والعناية باقتضاء المقام على يد عبدالحميد بن يحيى الكاتب .

استمع الى رسالة كتبها الى أهله وهو منهزم مع مروان بن محمد آخر خلفاء الدولة الاموية حيث يقول :

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فان الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور . فمن ساعده الحظ فيها سكن اليها ومن عضته بناها ذمها ساخطا عليها وشكا مستريدا لها . وقد كانت اذاقنا أفاويق استحليناها ثم جمحت بنا نافرة ورمحتنا مولية فملح عذبتها وخشن لينها فأبعدتنا عن الاوطان

(٢) جمهرة رسائل العرب ج ١ ص ١٥٧ .

وفرقتنا عن الاخوان فالدار نازحة والطير بارحة وقد كتبت والايام تزيدنا
منكم بعدا واليكم وجدا فان تتم البلية الى أقصى مدتها يكن آخر العهد بكم
وبنا وان يلحقنا ظفر جارح من أظفار من يليكم نرجع اليكم بذل الاسار
والذل شرّ جار نسأل الله الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء أن يهب لنا
ولكم ألفة جامعة في دار امنة تجمع سلامة الابدان والاديان فانه رب العالمين
وأرحم الراحمين •

وهكذا كلما أمعنا في رسائل البلغاء في القرنين الثاني والثالث وجدنا
رسائلهم رقيقة الاسلوب بليغة التراكيب قوية الصنعة ووجدنا السلاسة في
ألفاظها جارية والرشاقة في معانيها قشبية ووجدنا الجمال في تصويرها رائعا
أخاذا • ومن هذه الرسائل رسالة الحسن بن سهل الى محمد بن سماعة
القاضي يلتمسه التعرف الى رجل كامل الصفات يستطيع النهوض في شؤون
ديوان الدولة •

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد : فاني احتجت لبعض اموري الى رجل جامع لخصال الخير
ذى عفة ونزاهة طعمة قد هذبته الآداب وأحكمته التجارب ليس بظنين في
رأيه ولا بمطعون في حسبه ، ان أوتمن على الاسرار قام بها وان قلد مهما
من الامور أجزاء فيه له سن مع أدب ولسان تقعه الرزانة ويسكنه الحلم
قد فرّ عن ذكاء وفطنة وعض على قارحة من الكمال تكفيه اللحظة وترشده
السكته قد أبصر خدمة المملوك وأحكمها وقام في امورهم وحمد فيها • له
اناة الوزراء وصوله الامراء وتواضع العلماء وفهم الفقهاء وجواب الحكماء
لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده يكاد يسترق قلوب الرجال بحلاوة لسانه
وحسن بيانه دلائل الفضل عليه لائحة وامارات العلم له شاهدة مضطلعا بما:

(٣) جمهرة رسائل العرب ج ٢ ص ٥٧٠ •

استهض مستقبلا بما حمل وقد آثرتك بطلبه وجوتك بارتياحه ثقة بفضل
اختيارك ومعرفة بحسن تأتيك •

المقامة

المقامة في أصل اللغة المجلس الذي يقوم الناس فيه ثم استعملها
الادباء فيما يحتفل به من الخطب الادبية والمواعظ الدينية والملح الفكاهية
والنوادير التاريخية والخواطر الوجدانية لغرض اظهار ثروتهم اللغوية
وبراعتهم البلاغية •

وكانهم أرادوا في هذه التسمية ذلك الكلام الذي كان يلقي في
هايتك المجالس والمحافل فسموا الكلام باسم المكان على سبيل المجاز المرسل
للعلاقة المحلية ثم خصوها بالقصص التي يتحدثون بها في تلك المقامات
والاندية عن السنة قوم يسمونهم الرواة يعرضون فيها أخبارهم النادرة
ومقاصدهم العجيبة •

وكان من أشهر هذه المقامات :

أولا - مقامات أبي الفضل أحمد بن الحسين الملقب ببديع الزمان
الهمداني فريد دهره وغرة عصره المتوفى سنة ٣٩٨ هـ وقد اتخذ لمقاماته
شخصيتين خياليتين أحدهما عيسى بن هشام وثانيهما أبو الفتح الاسكندري •
وعدد المطبوع من تلك المقامات خمسون مقامة وقد زعم بعضهم ان عددها
في الاصل (٤٠٠) مقامة •

وقد أتى عليها أبو اسحاق الحصري في كتابه زهر الآداب حين
عرض لكلام بديع الزمان فقال انه غض المكاسر أنيق الجواهر يكاد الهوى
يسرقه لطفًا والهوى يعشقه ظرفًا في معان تضحك الحزين وتحرك الرصين
يتطلع منها الى كل طريفة ويوقف منها على كل لطيفة •

ثانيا - مقامات العالم الجليل أبي محمد القاسم بن علي الحريري -
 البصري ولد سنة ٤٤٦هـ وهو عربي صميم كانت أسرته تسكن قرية يقال -
 لها مسنان من قرى البصرة وتوفي سنة ٥١٦هـ وهو كالبديع الهمداني اتخذ -
 لمقاماته شخصيتين خياليتين أيضا وهما الحارث بن همام وأبو زيد السروجي -
 وعدد مقاماته المطبوعة خمس وعشرون مقامة • ويعتبر الحريري نفسه -
 نادبا ووفاء منه تلميذا للبديع الهمداني • اليس هو القائل في مقاماته (ان -
 البديع رحمه الله سباق غايات وصاحب آيات والمتصدى بعده لانشاء مقامة -
 ولو اوتي بلاغة قدامة لا يعترف الا من فضائله ولا يسرى ذلك المسرى الا -
 بدلالته والله در القائل •

ولو قبل مبكاها بكيت صباية بسعدى شفيت النفس قبل التندم
 ولكن بكت قبلي فهيج لي البكا بكاهها فقلت الفضل للمتقدم

المقالة

المقالة فن من فنون الادب تقوم على نمط من التفكير الشعبي في كل
 ما يتصل بحياة الناس من أحداث وتطورات بأسلوب بسيط يستطيع أن
 يكتب فيه كثير من مثقفي الشعب لانطلاقه من بعض المستلزمات الفنية
 الواجب اتباعها في المسرحية والقصة والمقامة مما يحتاج الى دراية أوسع
 وأعمق واسلوب أرقى وأدق • ثم ان المقالة في الغالب الاعم تعالج موضوعا
 واحدا وتنتهي بدون غموض واطالة بحيث يستطيع قراءته عامة الشعب ممن
 يعرفون مبادئ القراءة والكتابة ومطالعة الصحف المحلية •

ولقد عرف الدكتور جونسن المقالة في طورها الاول فقال : ان المقالة
 نزوة عقلية لا ينبغي أن يكون لها ضابط من نظام هي قطعة لا تجرى على
 سق معلوم ولم يتم هضمها في نفس كاتبها وليس الانشاء المنظم من المقالة
 في شيء •

وكذلك عرفها موري في قاموسه فقال : المقالة قطعة انشائية ذات طول معتدل تدور حول موضوع معين أو حول جزء من الموضوع ثم قال : وكانت المقالة في الاصل تعنى موضوعا يحتاج الى مزيد من التهذيب • ولكنها أصبحت الآن تطلق على أية قطعة انشائية يتردد اسلوبها بين الايجاز والاسهاب ضمن مجال موضوعها المحدود • أما ادموند جونس فقد عرفها في بحثه المنشور في دائرة المعارف البريطانية فقال المقالة كفن من فنون الادب وهي قطعة انشائية ذات طول معتدل تكتب نثرا وتلم بالمظاهر الخارجية للموضوع سهلة سريعة ولا تعنى الا بالناحية التي تمس الكاتب عن قرب (٤) •

علمنا مما تقدم ان المقالة كسائر الفنون الادبية مرت في أطوار مختلفة وكانت تمارس أفكارا ساذجة في الفاظ بسيطة محدودة تناسب وطفولة العقلية العامة لتلك المجتمعات البدائية •

ولا بد انها كانت في بداية نشأتها جملا متقطعة وعبارات قصيرة كالذي نراه في كتابة التمايم والاساطير وكلام القدماء من الكهنة والرهبان • وما كانوا يكتبونه على صفحات المسلات وجدران الكهوف • ثم أخذت تنمو وتتكامل شيئا فشيئا على مرور الايام والاحقاب حتى أصبحت بشكلها الذي هي عليه الآن •

القصة

القصة حكاية عن حوادث ماضية وفي شؤون فردية أو اجتماعية يعالج بها أصحابها جانبا من جوانب الحياة • وقد تطول تلك القصة وتقصّر بحسب حوادثها قلة وكثرة وبحسب ما تناوله من الاغراض والمقاصد • وهي عادة تهدف الى توجيه الناس نحو غاية معينة وخطة مرسومة تفتح لهم

(٤) كتاب فن المقالة ص ٩٤ دار بيروت للطباعة والنشر •

آفاقا واسعة تنجلي في تلك الآفاق صور الماضي والحاضر فيأخذون منها العظة والعبرة ويستتجون منها أفضل ما تكون عليه حياتهم في المستقبل • وأعلى أنواع القصة هو ذلك النوع الذي يصور معاني العظمة ويكشف عن أسرار النفس البشرية وما فيها من غرائز ونوازع روحية وجسدية مما يهدى الى رفعة الحياة ورفيها • ولهذا الامر نفسه اتفق الباحثون في شؤون القصة على أن الفن القصصي الصحيح هو هذا الذي يعرض المثل العليا في صورة الواقع الممكن ويحقق للناس حياة أرغد عيشا وأنبل قصدا وأرقى عقلا وأحسن خلقا •

وللباحثين في شؤون القصة تعاريف كثيرة فمنهم من يعرفها بأنها تعبير عن الحياة بتفصيلاتها وجزئياتها كما تمر في الزمن ممثلة في الحوادث الخارجية والمشاعر الداخلية تبدأ وتنتهي في حدود زمنية معينة وتتناول حادثة أو طائفة من الحوادث بين دفتي تلك الحدود • ثم هي اختيار وتنسيق لا مجرد تسجيل لخط سير الزمن (٥) •

أما موضوع القصة فهو الحياة بكل ما يتضمنه معنى الحياة من خير وشر وسعادة وشقاء واستقامة وخداع وعدل وظلم وكرم وبخل واقدام واحجام وتضحية وانانية وعزيمة وحيرة وبلادة وغيره وصيانة ونزوع الى الكمال •

ان هذه الاضداد الماثلة على صفحات الحياة والتي هي موضوع القصة ليس الشر فيها شرا محضا ولا الخير فيها خيرا محضا وانما هما في حقيقة أمرهما مظهر من مظاهر طبيعة هذه الحياة التي يحيها الناس فوق سطح هذه الارض ثم هما مطلب من مطالب تنازع البقاء وبقاء الاصلح •

ومن هنا جاز للقاص أن يتناول جميع هذه الاضداد وينشئ منها

(٥) النقد الادبي اصوله ومناهجه لسيد قطب ص ٨٤ •

قصته ابتغاء أن تكون درسا للذين يقرأونها في كتاب أو يشاهدونها ممثلة
فوق خشبة المسرح •

وتتميز قصة عن قصة بما اشتملت عليه من أفعال خطيرة وحوادث
حيوية لها مساس مباشر في حياة الافراد والجماعات والامم وبما اتخذته
لنفسها من الاساليب المؤثرة في النفوس والداعية بجرأة الى التطور السريع
تحو الامثل والافضل •

هذا بالاضافة الى ضرورة جعل أحداث القصة متسلسلة بحيث تكون
القوة فيها منبثة وموزعة على جميعها حتى لا يتسرب السأم والملل الى نفوس
القارئ والمشاهد •

والقصة الفنية^(٦) هي تلك التي لا تقتصر على الجانب الواعي من
حياتنا اليومية واللون البادي من مجتمعنا الظاهر بل تغلغل فيما وراء الوعي
وتنفذ الى باطن الحياة والمجتمع • حتى تتجلى له تلك الطوايا التي اليها
مرجع الحفز والتوجيه •

والقصاص الفنان هو الذي يبصرنا بالحقيقة الخفية والباعث المكنون
فيرينا من أنفسنا ما سر ويصارحنا من أمرنا بما نكتم فان لم يفعل ذلك فهو
أقرب الى أن يكون صاحب عظمات طنانة تهتز لها المناير والمنصات فيصفق
لها السامعون ما شاؤوا أن يصفقوا وقلوبهم جميعا في شغل بما يضطرم فيها
من أشات الغرائز ومن مختلف العقد النفسية والملابس المتشابهة تسير
بهم على حكمها في طوع أو على كره •

القصة في أدب العرب

ولامتنا العربية القدر المعلى في تنشئة القصة وتاريخنا (قديمًا وحديثًا)
حافل بالقصص العجيبة ذات الموضوعات المختلفة والاهداف النبيلة

(٦) كتاب الادب الهادف للاستاذ محمود تيمور •

والاساليب المتنوعة والاختلاف البديعة ، ولقد قص علينا القرآن الكريم بعض هذا القصص الجدير بالمعرفة في ابان الدعوة الاسلامية وصد عن البعض الآخر لان القرآن كتاب هداية ودين فاقصر على ما اقتصر من القصص لامر هو أجدى على الناس وعلى الحياة وأحق بالذكر من غيره والله سبحانه وتعالى أعلم بما يقصه على الناس وما يكتمه عنهم لامور تتعلق بصالح الناس وتطور الحياة •

قال تعالى « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبل لمن الغافلين » •

وقال تعالى : « ولما ورد ماء مدين وجد عليه امة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما ؟ قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير • فسقى لهما ثم تولى الى الظل فقال رب اني لما أنزلت اليّ من خير فقير • فجاءته احدهما تمشي على استحياء قالت ان ابي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا • فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين • قالت احدهما يا أبتى استأجره ان خير من استأجرت القوي الامين • قال اني اريد أن انكحك احدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فان أتممت عشرا فمن عندك وما اريد أن أسق عليك ستجدني ان شاء الله من الصالحين • قال ذلك بيني وبينك أيما الاجلين قضيت فلا عدوان عليّ والله على ما نقول وكيل » •

ذكرت هذه القصة القرآنية لا لتكون نموذجا لنوع من أنواع القصص ولكن أردت الاستدلال بها على ان العرب كانت قد عرفت القصة قبل عصر القرآن بزمن بعيد ولو لم يعرفها العرب لما خاطبهم الله بأسلوب قصصي • فورودها في القرآن الكريم برهان ساطع على شيوع القصة منذ قرون سحيقة في التاريخ العربي ناهيك عن أخبار لقمان الحكيم وعبدالله بن

جدعان وقصص أيام العرب وأهل الكهف كلها شواهد ناطقة على وجود
القصة عند العرب الاولين • بل ربما كان العرب أسبق الامم في ابتداء
القصة حتى صارت عندهم كميراث طبيعي يروونها جيل عن جيل • وما ميلنا
الشديد للقصة في العصر الحاضر الا تعبير عما ورثناه وأعجبنا به واندمج
في طبيعتنا الادبية •

ولو أبتقت الايام ما فقدناه من تراثنا القصصي خلال هجوم الجيوش
البربرية من الشرق على أيدي المغول ومن الغرب على أيدي الصليبيين لرأينا
ما يبهر العقول ويحير الالباب • ومع ذلك فلو أحصينا البقية الباقية الموجودة
عندنا وفي مكتبات أوربا واطلعنا عليه لاطلعنا على قصص هو تاج على هام
الحضارة وغرة في جبين الدهر •

روى ان عمر بن الخطاب قد اذن لقاص أن يقص على الناس يوما في
الاسبوع وقد اذن عثمان بن عفان أن يقص يومين في الاسبوع • وكان
علي بن أبي طالب يجيز للحسن البصرى أن يقص دائما في المسجد •
وكذلك رتب معاوية أن يقرأوا له القصص كل ليلة وأمر بأن يرافق
القصاصون الجيوش في المغازى والفتوحات^(٧) •

وما بالنا نذهب بعيدا وبين أيدينا كتب زاخرة بالقصص غنية بأنواعه
وفنونه مثل كليله ودمنة والفة ليلة وليلة ومقامات البديع الهمداني وابي
القاسم الحريري ورسالة الغفران للمعري • والتوابع والزوابع لابن شهيد
الاندلسي ومحكمة الجن لاخوان الصفا وحى بن يقطان لابن طفيل وقصص
الامثال العربية اذ لكل مثل قصة ، وقصص كتاب البخلاء للجاحظ وقصة
التربيع والتدوير للجاحظ أيضا وما ورد في كتب المؤرخين كالطبري وابن
الاثير والمسعودي وفي كتب الادب كاليان والتبيين والعقد الفريد والاغاني

(٧) كتاب الادب الهادف للاستاذ محمود تيمور •

وعيون الاخبار والشعر والشعراء وما الى ذلك مما يطول ذكره نعجز عن
تعداده •

القصة العربية الحديثة

القصة بهذا الطول والسعة وبهذا العمق والدقة فن حديث النشأة
جديد الصفة اقتضته سنة التطور ودعت اليه ملابسات الحياة التي مر بها
الانسان الحديث • ان النفس البشرية قديما مهما اوتيت من قوة التعبير
وبراعة التصوير فانها لم تكن لتحتمل هذه الاطالة في الكلام ولم تألف هذا
الاستغراق والتفلسف في شؤون الحياة • أما الآن وقد بلغت من الرقي
ما بلغت فتوسعت الحضارة والمدنية وتنوعت العلوم والفنون وتناولت البحث
في تحليل العواطف والغرائز وسمت بالعقول الى أرقى المستويات فكان من
الطبيعي أن تقدم القصة الى هذه المرحلة وتكتسب هذه الشهرة المحموده
بين سائر الفنون الادبية • ويرتفع شأنها على شأن القصة القديمة ارتفاعا كبيرا
اذ كانت القصة القديمة محدودة الغرض بسيطة العرض تتناول ظواهر
الامور وبسائطها فنصل الى ما تريد بأقصر الطرق وأيسر الاساليب فهي
وليدة مراحل متعاقبة في خلال القرن الماضي من الترجمة فالحكاية
فالإبتداع مما جاء به البعث الجديد الذي تمخضت عنه صلات الشرق بالغرب
حين أخذت امة العرب تصطنع مظاهر الحضارة في شتى أسباب المعاش وفي
مختلف ألوان الثقافات • وكانت مهمة القصة تنتهي بانتهاء بيان القصد وجلاء
الغرض دون تعمق في فلسفة البواعث الغريزية ودون تحليل للنزوات
النفسية فلا يكلف القاص نفسه في البحث عن العلل ودواعيها ولا يفتش
عن الاسباب ونتائجها ولا يفلسف ما يترتب على ذلك من الاضطراب في
العلاقات الشخصية والاساءة الى صميم الحياة الاجتماعية •

وتد يطلق المعنيون بهذه الشؤون على القصة الطويلة اسم الرواية • أما اذا مثلت على

خشبة المسرح أو عرضت على شاشة الخيالة (السينما) فانهم يسمونها :
مسرحية • ولقد سئل الاستاذ نجيب محفوظ عن التفريق بين الرواية
والقصة الطويلة قال : « الرواية تتميز بتعدد الشخصيات وتكامل الاحداث
وبالتفاصيل النفسية والمادية • وأما الاقصوصة الطويلة فقد تغلب عليها
ميزات الاقصوصة من التركيز ووحدة الموقف أو التعبير وغلبة الشخصية
الواحدة •

المسرحية

المسرحية رواية يحكيها ويمثلها أشخاص فوق خشبة المسرح يقصون
بحوارهم وحركاتهم مضمون الرواية متقنين أرواح أبطالها سالكين مسالك
شخصياتها في انفعالاتهم وأصواتهم والبستهم وجميع تصرفاتهم حتى يحسب
الناظر اليهم كأنهم هم الذين مارسوا حوادثها واكتووا بناها •

ومبدعو المسرحيات في أغلب الاحوال يتحرون الحوادث المثيرة للخواطر
والمستغزاة للنفوس ذات العواطف المتأججة والمواقف الخطيرة • ويحاولون
أن يبعثوا فيها صراعا نفسيا غنيا حول فكرة هامة ومثل أعلى تأخذ بأيدي
الناس الى حياة أفضل وعيش أرغد •

والعناصر الاساسية التي تبني عليها المسرحية حوار وحركة ومكان
يسمى المسرح •

أما الحوار والحركة فقد ينشآن بين عدة أشخاص رجالا ونساء
وأطفالا يشتركون كلهم حيناً وبعضهم أحيانا في اصطناع حوادث وقعت بين
جماعة • وقد تكون تلك الحوادث مأساة أو ملهامة وفق ما تقضيه مجريات
حوادث الرواية •

أما المكان الذي تقع فيه تلك الحوادث فقد تتنوع مناظره فوق خشبة
المسرح ويجعلونها كأنها طبيعية • وكذلك ملابس الممثلين فانها هي الاخرى

تتنوع بحسب ما تستلزمه مواقف الرواية المسرحية • لذلك يرى أصحاب
الفن التمثيلي ان فهم أشد تعقيدا من الفنون التي تشترك معها في بعض
عناصرها الأساسية • ويجزمون بأن سبب هذا التعقيد ناشئ من أن التمثيل
يحتاج الى تدريب الممثلين تدريباً مضميناً ويحتاج الى مران طويل ودربة فنية
واسعة • ثم انه يحتاج الى أدوات عديدة ومناظر كثيرة والى أنوار خافتة
واخرى ساطعة والى عناصر بشرية ذات ثقافات مختلفة حتى تبرز المسرحية
مكيفة بشكل يكون أكثر انسجاماً مع واقع الحياة وأشبه ما يكون بحوادث
الناس •

نوع المسرحية وموضوعها

كان نوع المسرحية في أول نشأتها فردياً لا جمعياً يقف أحدهم على
المسرح يتغنى ببعض الاغاني والانشيد الجالبة للفرح والسرور والتي كثيراً
ما كانت تأخذ طابعاً دينياً فيه تضرع ودعاء واطراء وثناء على الآلهة التي
تجلب اليمن والبركة والسعادة وتنقذهم من المحل والقحط والخصومات •
وكانوا في هذا النوع من المسرحيات يدخلون الشيء الكثير من الخرافات
والاساطير بحيث يصورون تلك الآلهة بصورة الابطال والافئدة فتزل على
الارض وتعمل كما يعمل سائر الناس • وقد كان الممثل أحياناً يواجه نقده
الى واحد من أفراد المجتمع يصفه بالعار ويقذفه بالبذء من القول ويمثله
بأنواع من الحركات المفقوتة والمثيرة للضحك والسخرية • وبعد مراحل
تاريخية ازداد عدد الممثلين من واحد الى اثنين أو ثلاثة أو أكثر يتحاورون
بينهم ويقومون ببعض الافعال التي ترفع من شأن الفرد أو تحط من قدره •

أين ومتى نشأت المسرحية ؟

يكاد الباحثون في الشؤون المسرحية يجمعون على انها نشأت في اليونان ثم تسربت الى
الرومان منذ القرن العاشر قبل الميلاد يوم كان الناس يحيون حياة تغلب فيها

الميثولوجيا ويكثرون من تعداد الآلهة وأسمائها فيسمونها باله الخصب واله
الحب واله الجمال واله الحرب واله السلم وما الى ذلك مما يبدعه الخيال
الديني في نفوس الناس •

صفة المأساة الافريقية

ولقد وصف الاستاذ أحمد أمين في الجزء الاول من كتابه النقد
الادبي المأساة الاغريقية فقال : من المستحيل أن نفهم الميزات التكوينية ، أو نقدر
التأثير الجمالي للمأساة الاغريقية بدون معرفة المسرح الاثيني • فالنظارة كان عددهم
عظيما يزيد على عشرين الف نفس • وكانت خشبة المسرح ضيقة ، والممثلون
يلبسون ملابس ثقيلة تقليدية فيضعون فوق وجوههم دائما أقنعة مرسوما عليها
ملامح أعظم وأعرض من ملامح الرجل العادي • ويضعون بأرجلهم نعلا
غليظة محشوة لها كعوب عالية لكي يظهرها في هيئات البطولة • وهذه
الحقائق الثلاثة التي اذا أخذت معا شرحت المبادئ البارزة المتعددة للدرامة
القديمة • وبخاصة خلوها من كل شيء يقارب الحركة الحرة السريعة أو
الشخصية الفردية البارزة للممثل أو الصفة الواقعية • وكل هذا نجده في
القصص التمثيلية الحديثة • • فضيق خشبة المسرح حال دون مناظر
الجماعات ودون كل منظر يقتضى الاتساع والبعد • • • • • وابتعاد الممثلين عن
النظارة جعل من المستحيل وضوح الايماءات والاشارات المفصلة
الدييقة • ولما كان الالقاء السريع والنبرات المنخفضة والنعيمات المتبادلة امور
تضيق في هذا المسرح العظيم في الهواء الطلق • • • لذلك كانت اللغة
المستعملة لغة بلاغية وليست لغة الحديث الواقعي • فكانت نوعا ملاما لالقاء
الكلام كمحفوظات • وهذا يشرح ما تتميز به المحاوراة الاغريقية من جمود
وتحدد يختلفان عن هذه الحيل الماهرة في استعمال الكلمات والالفاظ في
اسلوب شكسبير وغيره من أساتذة الدراما الانجليزية • وملابس الممثلين
الثقيلة المرهقة كانت ترغمهم على ان يتحركوا في خطوات محددة بطيئة ،

وعلى أن يتجنبوا كل حركة قوية مجهدة • بينما استعمال القناع حال دون كل محاولة لتغيير سحنات الوجه دليلا على العواطف المتبدلة فطلت الملامح واحدة جامدة وأصبح الأشخاص أشخاصا نموذجيين للجنس أكثر منهم شخصيات فردية • كل هذه الحقائق تكفي لتوضيح لماذا كانت ظروف العرض في المسرح الاغريقي غير ملائمة لعرض أعمال العنف والانفعال ولعرض المعارك والمبارزات والحروب وجرائم القتل وأمثال هذه المناظر • وهكذا نفهم كيف أن كثيرا من الميزات الغربية للمأساة الاغريقية كانت نتائج مباشرة وضرورية لهذه الظروف الخاصة من العرض العام ، وذلك مثل بساطتها المتناهية والقالب البلاغي الذي كان لمحاورتها والذي كون شخصياتها شخصيات نموذجية تقليدية ، وليست فردية مستقلة وجعلها خالية من الحركة والسرعة • ولذا ذكر حقيقة اخرى ليس أشد غرابة على القارىء • للدرامة الكلاسيكية من وجود الكورس الذين هم جماعة من المغنين والراقصين يمثلون الشهود للرواية التمثيلية لا يتغيرون ولا ينتقلون من مكانهم ولا يغيرون ، ويعقبون على كل منظر ومرحلة بتعليقهم وشرحهم وتقديمهم بواسطة الغناء والرقص •

وقد سبب وجودهم الدائم أمام الممثلين هذه النتيجة الخطيرة • وهي انه لما كان من المفروض ان الدراما تؤدي من أولها الى ختامها أمام الكورس كان من الواجب على المؤلف أن يجعل قصته تحدث كلها فى مكان واحد وتحدث كلها فى يوم واحد • ومن هنا نشأت وحدات الزمن والمكان وكانت قواعد مقررة للتكوين الدرامى •

التطور المسرحي

ظل المسرح اليوناني نموذجا حيا للمسارح التي انشأت فى العصور المتعاقبة فقد قلد الرومانيون المسرح اليوناني تقليدا كبيرا • وبمرور الزمن أدخلوا عليه تحسينات اقتضاها التطور الزمني والعلوم الحديثة ••

وحيث نشأ المسرح الروماني بمعناه الفني حوالي منتصف القرن الثالث قبل الميلاد كانت موضوعاته ومناظره وملابسه أفريقية • وممن برعوا في الملهة من الرومانيين (بلوتوس) • وكان ذا اصالة في تصوير شخصيات ملاهيه وعواطفهم في حوار وطرائف لازعة عميقة •

وفي العصور الوسطى نشأت المسرحيات كذلك نشأة دينية • فكانت موضوعاتها مأخوذة من الانجيل تحكي ميلاد السيد المسيح أو صلبه أو حكايات القديسين أو خروج آدم من الجنة أو قتل قابيل هابيل وفي عصر النهضة رجع الاوروبيون عامة الى مسرحيات اليونانيين واللاتينيين في الموضوعات والافكار والنواحي الفنية جميعا • وعن حركة النقد العامة في عصر النهضة نشأت القواعد الكلاسيكية مجتمعة في مؤلفات الايطاليين الذين شرحوا كتاب فن الشعر لارسطو ، وقد حاكى الكلاسيكيون الاوروبيون جميعا مسرحيات الادب اليوناني والروماني • ولكن من خلال نقد ارسطو مع تأويله بما يتفق وقواعد العقلية الكلاسيكية ومع اصدقاء الطابع الارستقراطي المحافظ على المسرحيات بما يتفق وروح عصرهم ••• وفي الكلاسيكية قضى على الجوقة نهائيا المسماة (بالكورس) •

وقامت الرومانتيكية على انقاض الكلاسيكية في أواخر القرن الثامن عشر والنصف الاول من القرن التاسع عشر • وقد خالفت الكلاسيكية في كثير من القواعد الفنية الخاصة بالمسرحية ، فلم تقيد بضرورة توافر خمسة فصول لكل مسرحية وقضت على وحدة الزمان والمكان من الوحدات الثلاثة التي راعاها الكلاسيكيون •

وحرص الرومانتيكيون كذلك على عرض الاحداث على المسرح بدلا من حكاية كثير منها كما كان عند الكلاسيكيين • ولم يراعوا الفصل بين الاجناس المسرحية كما كان يفعل الكلاسيكيون بل خلطوا المأساة بالملهة ليؤلفوا (الدراما) الرومانتيكية • والى جانب هذه النواحي الفنية

العامّة تغير موضوع المسرحيات ومضمونها ، فصارت شخصياتها شعبية وقضاياها اجتماعية أو نفسية انسانية عامة . بعد ان كانت المأساة مقصورة على الابطال الالهيين في المسرح اليوناني وعلى النبلاء والارستقراطيين في الكلاسيكية . وصارت هذه الاعتبارات الفنية والاجتماعية عامة في الاداب الاوربية منذ الروماتيكين . وبعد الروماتيكين تغير طابع المسرحيات الفني والاجتماعي تبعا للمذاهب التي تلت الروماتيكية من واقعية ورمزية ووجودية وواقعية واشتراكية .

المسرحية في أدبنا العربي

لم يعرف الادب العربي القديم المسرحيات ولا فن التمثيل كما هو في العصر الحديث أو قريب منه . اذ ظل محصورا في نطاق الشعر الغنائي وأدب الرسائل والخطب . وعلى الرغم من معرفة العرب آثار اليونان الفكرية وعلى الرغم من ترجمتهم ارسطو فانهم لم يحاولوا احتذاء اليونان في التمثيل ولا ترجمة شيء من مسرحياتهم .

حقا لقد وجد في الادب العربي عنصر حوار اتخذ عمادا لحكايات قصصية . وأظهر ما يكون ذلك في فن المقامة ، ولكنه لم يقم أساسا لفن تمثيلي ، بل ان النقد العربي القديم لم يعن بهذا الجنس الادبي لانصرافه الى الاهتمام بالشعر الغنائي وما يتصل به .

وقد وجدت في الادب الشعبي العربي عناصر تمثيل بدائية فيما يسمى « خيال الظل » الذي يعرف بمصر باسم البابات وفي تركيا والعراق باسم قره كوز وقد يكون لمثل تلك المناظر الشعبية أثر في تهيئة الاذهان للاقبال على المسرحيات أو على دور الخيالة . وحقا كان لموضوعاتها طابع اجتماعي في نقد العادات والتقاليد وفي روح السخرية والفكاهة على ما سادها من استهتار وفساد على رغم بساطتها وسذاجتها .

ومما لا شك فيه ان المسرحيات العربية وجدت في نشأتها ونهضتها
دعامة من مسرحيات الغرب • وكان السبق الاول في ميدان المسرح العربي
لسوريا الكبرى التي كانت تشمل سوريا الحالية ولبنان وفلسطين في حوالي
منتصف القرن التاسع عشر • وكان أول من بدأ المسرحيات العربية فيها
هو مارون النقاش • وقد كانت ثقافته ايطالية فرنسية تركية الى جانب
ثقافته العربية • وقد أخذ عن الايطاليين فن الاخراج • ولكنه اعتمد في
موضوع مسرحياته على الثقافة الفرنسية وفي عام ١٨٤٨ عرض في بيته
في بيروت وبمساعدة آخرين من أهله ترجمة لمسرحية مولير التي عنوانها
البخيل بعد أن أضفى عليها صبغة عربية في أسماء الاشخاص والاماكن •
وجعل مناظرها غنائية تمثل على أنغام الموسيقى •

والمسرحية الثانية له هي ملهاة (أبو الحسن المغفل) وهي مأخوذة من
الف ليلة وليلة • وهي أول مسرحية عربية أصيلة • والمسرحية الثالثة
والاخيرة له هي ترجمة مسرحية تارتوف لمولير أيضا وقد صنع في تعريبها
ما صنع بمسرحية البخيل •

وفي الربع الاخير من القرن التاسع عشر أتت الى مصر جماعة
تمثيل سوري على رأسها سليم النقاش ابن أخ مارون النقاش ، ومن هذه
الجماعة أديب اسحاق ويوسف الخياط وقد قدم هؤلاء مسرحيات في
القاهرة أو الاسكندرية أكثرها مترجم عن الفرنسية الكلاسيكية مثل مسرحية
اندرماك وفيدر للشاعر الفرنسي راسين ومسرحية هوراس للشاعر كورني
ومسرحية زنوبيا للشاعر الفرنسي دونيك • ومسرحية ابنة النعمان والاكاسرة
ليوسف الحائك السوري • واستمرت المسرحيات مع اعضاء الطابع الغنائي عليها ومع
تغيير أسمائها بما يتفق والذوق العربي • وظلت الحال كذلك حتى ظهرت
مسرحية مصرع كيلوباترا لشوقي عام ١٩٢٧ فكانت بدء المسرح الصحيح

في لغتها الفصيحة وفي كثير من الجوانب الفنية التي توافرت فيها بالقياس الى ما سبقها من مسرحيات عربية • ومسرحية مجنون ليلى لشوقي أيضا وكذلك مسرحياته الاخرى • ومسرحية أهل الكهف ومسرحية نهر الجنون لتوفيق الحكيم ومسرحية حفلة شاي لمحمود تيمور ، ومسرحية مفرق الطرق وهي مسرحية رمزية لبشر فارس •

الفصل الخامس -

الشعر

من مبادئ مقتضيات الامانة العلمية ان الانسان اذا حاول اتقان عمله وأراد خدمة المعرفة عليه قبل كل شيء أن يتعرف الى النتائج التي توصل اليها من سبقه الى معرفة ما أراد لذلك رأيت ان أستعرض آراء الذين سبقوني في البحث عن معنى الشعر من القدماء والمحدثين عسى أن ندرك الغاية التي استهدفناها في هذا الفصل .

سأل بعض هواة الشعر أعرابيا عن الشعر فقال له :

« ان الشعر شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على الستنا »

من تعريف الاعرابي للشعر نرى أنه هو هذا الكلام الذي تمتلي به نفس الشاعر حتى يضيق به صدره وينطلق به لسانه بدهاءة شاء ذلك أم لم يشأ دون تعمل وتكلف تلبية لداع قوى من دواعي الانفعال ايجابا وسلبا .

وقال عنه أهل زماننا هذا :

« الشعر مرآة من الشعور تنعكس فيها صورة الطبيعة بواسطة الالفاظ انعكاسا يؤثر في النفوس انقباضا وانبساطا . »

حقا ان الشعر مرآة من الشعور تنعكس فيها صورة الطبيعة لان مبدعه وهو الشاعر العبقري لا يستطيع أن يمالئ الناس اذا كانوا على خطأ ولا يستطيع أن يغمط الحق ولو كان سيف الباطل مصلتا فوق رأسه اذ كيف يزيف عن الحق ويركن الى الباطل وهو أجمل مظهر لعظمة الطبيعة .
لعمرك ان الحر لا يتقيد الا فليقل ما شاء في المفتد

إذا أنا قصدت القصيد فليس لي به غير تبيان الحقيقة مقصد.
تعودت تصرّحي بكل حقيقة وللمرء من دنياه ما يتعود.
إذا رمت نصحا جئت بالنصح واضحا
وما كان من شأنى الكلام المعقد.
هكذا يرى معروف الرصافى ان الشعراء الاحرار ليس لهم فى دنياهم
غير التعبير عن حقائقها •

الشعر عند العرب

الشعر عند العرب مصدر الهام ومناظ حكمة ودليل المعية وتاريخ
امة • يمتاز فى تأليفه بالفاظ موحية ووزن موسيقى ونغم جميل •
ثم هو ديوان علومهم وسجل مآثرهم ومجلى عقولهم ومرتع عواطفهم •
فمن لم يعرف شعر العرب جهل قدرهم وفاته الشيء الكثير من معرفة طراز
حياتهم • لذلك كله كانت القبيلة العربية اذا نبغ فيها شاعر أتتها القبائل
مهتة وأتتها النساء يلعبن بالمزاهر • وشرع الناس يتباشرون بالخيرات
ويتبادلون بالمسرات • لان الشاعر يحمي أعراضهم ويثير نخوتهم ويخلد
مآثرهم ويحدوهم نحو المكارم والمحامد وكانوا لا يهتنون الا بغلام يولد أو
شاعر ينبغ أو فرس تنتج بسبب ان الغلام والشاعر والفرس قوة للعشيرة
تدفع عنهم الاعداء وتجلب لهم الاصدقاء ثم هم اداة للفخر والنصر
والاعتزاز •

قال ابن رشيق فى العمدة : (كان الكلام كله منشورا فأحتاجت العرب
الى الغناء بمكارم أخلاقها وطيب أعراقها وذكر أيامها الصالحة وأوطانها
النازحة وفرسانها الانجاد وسمحاتها الاجواد لتنهز نفوسها الى الكرم وتدل
أبناءها الى حسن الشيم فتوهموا أعاريض فعملوها موازين للكلام • فلما
تم لهم وزنه سموه شعرا لانهم شعروا به وفطنوا اليه من تلقاء أنفسهم •

وهكذا مارس العرب الشعر منذ فجر تاريخهم الذي أدركوا فيه
حقائق الحياة حتى شغفوا به وعكفوا عليه فعرفوا سحره وتأثيره ولمسوا
فوائده ومنافعه واتقنوا اصوله وقواعده وجرى عليه شعراء العربية في
مختلف عصورهم الادبية •

ومما لا ريب فيه ان من أبرز صفات الشعر العربي الاصيل أن يكون
له بحر وقافية يلتزمان في جميع القصيدة فضلا عن التزام الشاعر بوحدة
البيت وانسجامة مع أبيات القصيدة ثم لا بد من جريانها على قواعد اللغة
العربية نحوا وصرفا وبلاغة •

جاء في الصفحة السابعة عشرة من كتاب نقد الشعر لقدامية بن جعفر
المولود في طليعة النصف الثاني من القرن الثالث والمتوفى سنة ٣١٠ هـ •
« ان الشعر لفظ موزون مقفى يدل على معنى » •

وجاء في كتاب عيار الشعر لمحمد بن أحمد بن طباطبا العلوي المتوفى
في نصف القرن الرابع من الهجرة قال حين تحدث عن الشعر وأدواته :
(الشعر كلام منظوم بائن عن المنثور) وله أدوات يجب اعدادها قبل
مراسته وتكلف نظمه • فمن تعصت عليه اداة من ادواته لم يكمل له
ما يتكلفه منه وبان الخلل فيما ينظم ولحقته العيوب من كل جهة • فمنها
التوسع في علم اللغة والبراعة في فهم الاعراب والوقوف على مذاهب
العرب في تأسيس الشعر والتصرف في معانيه في كل فن قالته العرب
فيه ••• الى أن يقول ، حتى يكون كالسيكة المفرغة والوشي المنمّم والعقد
النظيم ، وتكون قوافيه كالقوالب لمعانيه وتكون قواعد البناء يتركب عليها
ويعلو فوقها فيكون ما قبلها مسوقا اليها ولا تكون مسوقة اليه فتتعلق في
مواضعها ولا توافق ما يتصل بها •

وهذا صاحب كتاب البديع في نقد الشعر اسامة بن منقذ المولود في

بداية النصف الاول من القرن الخامس للهجرة جمع في كتابه من شعر العرب ما جمع فلم نجد فيما جمعه شعرا غير موزون ولا خاليا من قافية.

ذكر ابن خلدون وهو من العلماء الذين يعد بأرائهم قال في مقدمته : ان الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والايوصاف المفصل باجزاء منثقة في الوزن والروي مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده . الجاري على أساليب العرب المعروفة .

هؤلاء علماء كبار تباعدت ديارهم وتباينت أزمانهم واختلفت دراساتهم . ذكرتهم لانهم يعلمون عن جوهر الشعر العربي الاصيل أكثر مما نعلمه بحكم تقدمهم علينا في الزمن وقربهم من شعراء العرب الفصحاء استطقتهم عن ماهيته وطبيعته فأفصحوا جميعا . بان الشعر العربي الاصيل هو هذا الكلام الموزون المقفى قصدا المعبر عن المعاني الخالدة والاخيلة البديعة الذي عرفته العرب منذ عصر المملكات حتى يومنا هذا بأسلوبه الجميل والفاظه المختارة الملمحة .

من هنا نعلم ان الوزن والقافية ركنان أساسيان مقصودان فيه . فاذا خلا الكلام منهما وأراد الناس تسميته بالشعر كانت هذه التسمية مجازية وليست حقيقية . وقد يقال ما قيمة الشعر اذا كان كالمرآة تنعكس فيها صورة الطبيعة . واذا كان الامر كذلك فقد يكون وجود الشعر حينئذ عبثا لان في صورة الطبيعة ما يفني عن الشعر . اني لاذكر ان الاستاذ توفيق الحكيم تعرض لمثل هذه المشكلة حين قال الشعر انعكاس الحياة على نفس الشاعر . ولكن الاستاذ الحكيم عقد مقارنة جميلة بين الشاعر والقمر وقال : الشاعر مثل القمر لا يعطينا الشمس في أشعتها المحرقة ووهجها الذي يعمي البصر ولكنه يتلقى بعض أشعتها ويصفيها خلال نفسه ويعرضها علينا بعد ذلك ضوءا جميلا منظما مهذبا ترتاح له العين ويسبح فيه الذهن ويأنس له القلب .

من أجل ذلك كان الشعر غير دقيق في تصوير الحياة كما ان القمر غير دقيق في نقل أشعة الشمس اليها • كلاهما يعطينا شيئا ممزوجا بطبيعته مخلوطا بخصائصه • فالسؤال الذي يلتقى على الشعر هو السؤال عينه الذي يطرح على القمر •

فلو سألتنا القمر ما الذي تقصد من اعطائنا هذا الضوء المهذب الجميل ؟
فيجيب القمر :

لست أقصد بهذا الضوء أن اريكم واقع الاشياء فانكم ترون هذا الواقع مثلا واضحا في وهج النهار ولكن اريد ان ادثر عليكم هذه الاشياء في رداء جديد من نور وظلال لاوقظ فيكم روح الوجود وجوهر الكائنات واثير في أذهانكم عوالم اخرى أجمل من الواقع • وأجعلكم ترون في ضوئي شيئا آخر غير الذي ترونه في ضوء الشمس فتحيون بذلك حياتين فيزداد وجودكم بذلك اتساعا •

ولو سألتنا الشعر ما الذي تقصد اليه من اعطائنا هذا اللون من الكلام الجميل ؟ فيجيب الشعر بمثل ذلك قائلا :

انا أيضا لست أقصد ان أريكم واقع الاشياء في حقيقتها المادية فهذا من شأن العلم وما يجري مجرى العلم من تاريخ وبحوث وتحقيق واحصاء وتسجيل ولكن اريد بضوئي أن أطرق أبواب تفكيركم ومشاعركم وانمي فيكم ملكة التخيل والتأمل ••• وأجعلكم أنا أيضا تحيون حياتين حياة الواقع الارضي وحياة الفكر العلوي • لا تنتظروا من عدستي ان تلتقط ظاهر الحياة فان الكاميرا والمصور والصحفي سيكون لهم غدا في ذلك فن دقيق رائع ولكن عدستي هي التي تلتقط وتسجل حياة القلب •

واخيرا يجيب القمر قائلا :

عدستي انا ايضا ليست مثل عدسة الشمس فهي لا تلقي اشعة كاشفة ولكنها تلقي اشعة موحية • اشعة الشمس تقول للناس ابصروا وفكروا •

وأشعني تقول للناس اشعروا وفكروا • انتهى •

وعلى هذا يكون الشاعر بيننا اجمل واعظم مظهر من مظاهر الطبيعة
يمدنا بشتى الاحاسيس ويوحى اليها بمختلف الافكار ويرسم لنا ابداع
الصور ويجعلنا نحيا حياة جديدة غير الحياة التي نحياها في دنيا الواقع •
ولعل قائلا آخر يقول :

وماذا نستفيد من هؤلاء الشعراء اذ كانوا ينتقلون بنا من حياتنا الواقعية
ويجعلوننا نسبح في أجواء الخيال الذي لا يعني من الحقيقة شيئا •

أقول : هكذا قضت سنة الله • قضت ان ينتزع الناس رقيهم من عالم
الغيب والخيال وان يكون الابداع بادىء ذى بدء فكرة عائمة فى اخلية
الملمهين من الكتاب والشعراء ثم يتلقفها العقل فيصنع منها آياته ومعجزاته •
وهل الطائرة الا نموذج صنع على غرار بساط سليمان وهل الغواصة الا
نموذج صنع على شكل حوت النبي ذى النون • وهل القنابل بجميع
انواعها الا نموذج للحجارة التي جيء بها من سجيل وهل التلفزيون الا
صورة طبق الاصل للعمل الذي قام به ذلك الذى عنده علم من الكتاب
وجاء بعرش الملكة بلقيس (١) •

ولقد اتفقت آراء النقاد المحدثين على ان الشعر لا بد ان تتوفر فيه
ثلاثة اركان :

اولها - ان معانيه تنصب فى صور خيالية تثير خيال القارىء والسامع •
ثانيها - ان تتوفر فى الفاظه صفة التجانس بين اللفظ والمعنى بأن
يكون اللفظ رقيقا فى موضع الرقة عنيقا فى موضع القوة والعنف وان لا
يكون مبتذلا او كثير الشيعوع لا يرتاح اليه الذوق الشعري •

(١) كتاب الادب ومذاهب النقد فيه للمؤلف ص ٤٠ •

ثالثها - الوزن الشعري وهو خضوع الكلام في ترتيب مقاطعته الى نظام خاص .

ونحن نقفي على ما اجمله الدكتور طبانة فنقول ان الشعر في كل الاحوال التي مررنا بها انه كلام ملحن ممتع متميز عن غيره بالوزن والقافية ومشحون بمعان انسانية خالدة تفتح بها العقول والقلوب ويرى الناس من خلالها سبل المجد والتبيل والحرية . وانه يؤثر في النفس ويربي الذوق ويعبر عن روح الامة التي نشأ فيها .

أرى الشعر يحيي الناس والمجد بالذي

تبقية أرواح له عطرات

وما المجد لولا الشعر الا معاهد

وما الناس الا أعظم نخرات

ضروب الشعر

تعددت آراء ادباء العرب في ضروب الشعر :

فمنهم من نظر اليه من الناحية التاريخية فقسمه الى شعر جاهلي وشعر اسلامي وشعر عباسي وشعر حديث . ومنهم من توسع في هذا التقسيم وقسمه الى سبعة أقسام شعر جاهلي وشعر عصر القرآن وشعر أموي والشعر العباسي الاول والشعر العباسي الثاني وشعر الفترة المظلمة والشعر المعاصر .

ومنهم من نظر اليه من الناحية الموضوعية فقال :

شعر المديح والهجاء والغزل والحماسة والوصف والشكوى والعتاب والاعتذار والحكمة وما الى ذلك من بواعث الانفعالات والعواطف .

وقد يقسمون الشعر الغزلي الى أقسام شعر غزلي عذري وهو ما صدر عن حب بريء صادق وعواطف جياشة متأججة . حب يملك قلب صاحبه فيطهره

من كل شهوة غير شرعية تلوث سمعة الحبيب وتدنس كرامة المحب •

واني لارضى من بينة بالذي

لو أبصره الواشي لقرت بلابله

بلا وبالا استطيع وبالمنى

وبالامل المرجو قد خاب آمله

وبالنظرة العجلى وبالحوول تنقضي

أواخره لا نلتقي واوائله

هذا هو الشعر العذري يتدفق رقة وعفة وخيالا وجمالا •

وهناك شعر صناعي يتوخى الفنية ولا يهيمه الصدق في الحب لذلك لا تجد فيه حرارة المحب الصادق ولا شعور المحب الولهان • كل همه أن يصف مغامراته الغزلية ويظهر بمظهر الذين سباهم الحسن واستعبدهم الجمال :

من رسولي الى الثريا فاني	ضقت ذرعا بهجرها والكتاب
سلبتني مجاجة المسك عقلي	فسلوها ماذا أحل اغتصابي
وهي مكنونة تحير منها	في اديم الخدين ماء الشباب
ابرزوها مثل المهاة تهادي	بين خمس كواعب اتراب
ثم قالوا تحبها قلت بهرا	عدد القطر والحصى والتراب
أزهقت أم نوفل اذ دعته	مهجتي ما لقانلي من متاب
حين قالت لها أجبي فقالت	من دعاني قالت أبو الخطاب
فاستجابت عند الدعاء كما نـ	بى رجال يرجون حسن الثواب

وقد قسم بعضهم الشعر الى ثلاثة أقسام متأثرا بتقسيم الغربيين له •

أولا - الشعر الغنائي :

وهو الشعر الذى ينبع من وجدان الشاعر مما تضطرب به نفسه من

دواعي الحب والبغض والفرح والحزن والغضب والاعجاب والشكوى
والاعتذار وهو أصدق تعبير من كل شعر لانبثاقه من أعماق نفس صاحبه •
واحبس عنك النفس والنفس صبة بذكرالك والمشي اليك قريب
مخافة ان يسعى الوشاة بظننة واحرسكم ان يسترىب مريب
اما والذي يبلو السرائر كلها ويعلم ما تبدى به ويغيب
لقد كنت ممن تصطفي النفس خلة لها دون خلان الصفاء حبوب
وكقول تلك العربية الثكلى التي فقدت وليها وهي أحوج ما تكون
اليه :

قد كنت لي جبلا الود بظله واليوم تسلمني لاجرد ضاحي
قد كنت ذات حمية ما عشت لي امشي البراز وكنت انت جناحي
واليوم أخضع للذليل واتقى ظلي وأدفع ظلمي بالراح

ثانيا - الشعر القصصي أو الملحمي :

وهو هذا الذي يسجل فيه الشاعر تاريخ امته وأعز امانيتها في الحياة
بشكل قصة طويلة تنتظم وقائعها الحربية ومفاخرها القومية اذ يتحدث
الشاعر عن بطولاتها ومزاياها وتفوقها على سائر الامم فيصف شجاعته
ومحامدها كالصدق والكرم والوفاء والعفة والنجدة وحفظ الجوار •
ويتحدث عن عاداتها وتقاليدها وما الى ذلك مما يتعلق باحوال الامة
واصول الاجتماع بأسلوب خارق لما جرت به الاعراف والعادات • من
كل ما يبعث في الامة الاعتزاز والزهو بالنفس • وقد تبلغ القصيدة
الواحدة آلافاً من الابيات وجاء في كتاب فن الشعر الملحمي^(٢) انه حكاية
شعب في نضاله البطولي ، وفي مقدمه عبر الحياة المتطورة وانه تاريخ

(٢) صفحة ٨ منشورات دار الشرق الجديد •

لامجاده وسجل لوقائمه الكبرى ومآثره بين الشعوب • فهو يعنى بالانسان
كجماعة لا كفرد ، ويهتم بالعمل الكلى على نقيض ما يفعل الشعر الغنائي •
ومن هذا النوع من الشعر ملحمة الالباذة • وهي منظومة واحدة
نظمها هوميروس في حروب طروادة • وقال عنها معربها الاستاذ سليمان
البستاني :

انها غنية بالعلوم حافلة بكل المعاني الحضرية وليس هذا الغني هو
سبب خلودها وانما ذلك قائم على كون هوميروس نقر على اوتار الافئدة
فاتارها ونفخ في (أبوق) الارواح فاطارها ومزج الحقيقة بالخيال
فتألفا وتحالفا وسبر اعمال النفس في سذاجتها وتجرى الفطرة ببساطتها
وهاج العواطف والمشاعر وتكلم بجلاء لا تشوبه مسحة التكلف فاجز
واسهب ومثل وفصل بحسب مقتضى الحال بكل عقيدة واخلاص •

وسبب تسميتها بالملحمة لانها تصف التحام القتال او ان هذه التسمية
مأخوذة من لحم الامر بمعنى أحكمه او من اللحم الشعر اذا حاكه ونسجه •
ومن الشعر القصصي (الالباذة) وهي ملحمة لاتينية نظمها الشاعر
فرجيل أكبر شعراء الرومان قلد بها الياذة هوميروس اليونانية • وبطل
الالباذة انياس أحد حلفاء الطرواد رحل فى جماعة من قومه يرتاد ارضا
حتى بلغ قرطاجنة ثم ايطاليا حيث أكرمه الملك لاتينوس وزوجه ابنته ثم
استخلفه على الملك • ومنه المهاباراته وهي ملحمة هندية نظمها فياسة أحد
كهان الهندوس باللسان السنسكريتي قبل الميلاد بقرون يصف بها الحروب
التي نشبت بين بندهو وبني كرو وهي تبلغ مائتي ألف بيت •

ومنه الشاهنامه وهي ملحمة فارسية نظمها الحسن بن اسحاق الفردوسي
المتوفي سنة ٤١١ هـ فى تاريخ الاكاسرة وأخبارهم وصف بها الحرب التي
اشتعلت بين أهل ايران وأهل طوران وقد نقلها الى العربية نثر الفتح بن علي

البنداري الاصبهاني وقدمها لخزانة أحد الملوك الايوبيين ولا تزال نسختها في احدى مكاتب اوربا وجاء في مقدمة الشاهنامة بقلم الاستاذ عبدالوهاب عزام ان الشاعر الدقيقي هو الذي بدأ بنظم الشاهنامة ومات قبل ان يتمها ثم أكملها الفردوسي ، وقيل غير ذلك .

ثالثا - الشعر التمثيلي :

الشعر التمثيلي ضرب من الشعر قائم على حوار بين عدة أشخاص يمثلون قصة واحدة واقعية او خيالية سواء أكانت حوادث تلك القصة قديمة أو حديثة .

وهذه القصة على العموم ترمي الى تحقيق غرض معين من أغراض الحياة . وقد يكون هذا الغرض سياسيا او اجتماعيا او حربيا أو غراميا أو غير ذلك من الاحداث العامة او الخاصة .

ان كل فرد من أفراد الهيئة التمثيلية يمثل جانبا من جوانب تلك القصة وهو ملزم بان يتقمص روح ذلك الشخص الذي يمثله بكامل حركاته وسكناته ومما يجري في نفسه من هواجس وعواطف تبعا لما يقتضيه الموقف .

فمنهم من يقوم بدور الشجاع البطل والقائد المحنك ومنهم من يقوم بدور الخائف الرعديد والحائر الذليل ومنهم من يقوم بدور الكريم المعطاء أو الجيس البخيل ومنهم من يمثل الجذ والحزم والحكمة أو يمثل الهزل والغفلة والحمافة ومنهم من يقوم بدور المحب الذي أضناه الحب ونهكه الغرام ، وهكذا حتى تكتمل عناصر القصة بالشكل الذي أراده الشاعر لها .

ان هذا النوع من الشعر بحوادثه المتسلسلة وفصوله المتعددة وكثرة الأشخاص الممثلين لمضمون القصة حديث النشأة لم يكن لشعراء العرب سابق معرفة به وانما اقتبسوه من ادباء الغرب . وكان رائد الاقتباس أمير الشعراء أحمد شوقي فقد أعجبه هذا اللون من الشعر ايام دراسته في باريس فراعاه

ان يكون الشعر العربي خاليا منه فعقد العزم على أن يملأ المسرح العربي.
ويغنيه بفن عبقرى عظيم فألف عدة روايات تمثيلية منها مجنون ليلي ومصرع
كيلوباتره وقميص وعنترة وأميرة الاندلس وعلي بك الكبير والست هدى ...
الخ .. وقد اعتبر الادباء عمله هذا اتماما لما نقص فى شعر العرب ومفخرة
من مفاخرنا الادبية التى اضطلع بها شاعر العرب والاسلام ونهض باعبائها
خير نهوض فجزاه الله خيرا *

جاء فى كتاب قواعد النقد الادبى تأليف لاسل ابر كرمبى صفحة
١٠١ : ان من أهم الفروق الواضحة بين شعر الملاحم والشعر التمثيلي ، ان
الملحمة أكثر طولاً من الشعر التمثيلي وليس فيها ما يستدعي التحديد بينما
الرواية التمثيلية لا بد ان تلقى كاملة فى تمثيلية واحدة تم حوادثها فى أربع
وعشرين ساعة على أكبر تقدير *

الشعر الطبقي

ولقد نظر بعض المتقدمين من علماء الشعر الى الناحية النقدية المتصلة
بمضامين الشعر وأشكاله من حيث جودته وردائه وقوته وركاكنه . فقسم
الشعر وأصحاب الشعر الى طبقات كما فعل ابو عبدالله محمد بن سلام
الجمحي البصري المتوفى سنة (٢٣٢) فى كتابه طبقات الشعراء الجاهليين
والاسلاميين اذ رتبهم على عشر طبقات كل طبقة تجمع أربعة من فحول
الشعراء وجعل فى الطليعة الاولى امرأ القيس بن حجر ونابغة بنى ذبيان زياد
بن معاوية وزهير بن ابي سلمى والاعشى ميمون بن قيس *

ثم قال ان الذين قدموا امرأ القيس على غيره من الشعراء لا لسبب انه
قال ما لم يقولوا ولكنه سبق العرب على أشياء ابتدعتها فاستحسنتها العرب
واتبعته فيها الشعراء منها استيقاف صحبه والبكاء فى الديار ورقة النسيب
وقرب المأخذ وتشبيهه النسا بالظباء والخيل بالعقبان وقيد الاوابد كما جاء
فى معلقته *

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
وقوفا بها صحبي علي مطيهم
وقد اغتدى والطير في وكناتها
مكر مفر مقبل مدبر معا
أفظم مهلا بعض هذا التدلل
أغرك مني ان حبك قاتلي
وما ذرفت عيناك الا لتضربي
تصد وتبدي عن أسيل وتقي
وتضحى فئت المسك فوق فراشها
وقال من احتج للنايغة بأنه كان أحسنهم ديباجة شعر وأكثرهم رونق
كلام وأجزلهم بيتا ثم ان شعره ليس فيه تكلف * وسموه بالنايغة لنبوغه
بالشعر بعد ما اكتهل واحتنك *

يروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال أي شعرائكم يقول :
ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث أي الرجال المهذب
قالوا النايغة ، قال هو أشعرهم *

حقا ان للنايغة ديباجة مشرقة وكلاما رقيقا خاليا من التكلف وحسبنا
دليلا قصيدته التي يعتذر بها الى النعمان والتي منها :

أتاني أبيت اللعن انك لمتني وتلك التي تستك منها المسامح
أتاك امرؤ مستبطن لي بغضة له من عدو مثل ذلك شافع
أتاك بقول هلهل النسج كاذب ولم يأت بالحق الذي هو ناصع
أتاك بقول لم أكن لاقوله ولو كبت في ساعدي الجوامع
* * *

أما الذين احتجوا لزهير بن أبي سلمى فقد رووا ان ابن عباس رضي
الله عنه قال :

قال لي عمر أشدني لاشعر شعرائكم قلت من هو يا أمير المؤمنين قال
زهير وكان كذلك قال كان لا يعاضل^(٣) بين الكلام ولا يتبع حوشيه ولا
يمدح الرجل الا بما فيه •

وقال أهل النظر كان زهير أحكمهم شعرا وأبعدهم من سخف
وأجمعهم لكثير من المعنى في قليل من المنطق وأشدهم مبالغة في المدح •

* * *

وأما أصحاب الاعشى الذين يحتاجون له فانهم يقولون عنه انه أكثرهم
عروضا وأذهبهم في فنون الشعر وأكثرهم طويلا جيدة وأكثرهم مدحا
وهجاء ونظرا وصفة •

قيل لخلف من أشعر الناس قال ما ينتهي هذا الى واحد يجتمع عليه
كما لا يجتمع على أشجع الناس وأخطب الناس وأجمل الناس ، قيل له
فأيهم أعجب اليك يا أبا محرز؟ قال الاعشى •

وقال عنه أبو عمرو بن العلاء ان مثل الاعشى مثل البازي يضرب كبير
الطير وصغيره انه يصيد ما بين الكركي الى العنديل • وقال عبدالملك بن
مروان لمؤدب ولده : أدبهم بشعر الاعشى فانه - قاتله الله - ما أصْلَبَ صخره
وأعذب بحره • وهكذا كان الاعشى مجيدا في جميع أغراض الشعر
باسلوب محبب الى القلوب محبب الى السمع محبب الى الذوق كأنه عاش في
قصور الخلفاء •

ترضيك من دل ومن	حسن مخالطة غراره
بيضاء ضحوتها وصفر	اء العشية كالعراره
وسبتك حين تبسمت	بين الاريكة والستاره

(٣) المعاضلة تراكم الالفاظ بعضها مع بعض • وهناك معاضلة في المعاني
أيضا وهي استغلاقتها وغموضها •
يمدح الرجل الا بما فيه •

بقوامها الحسن الذي جمع المدادة والجهارة
وبجيد مغزلة الى وجه تزينه النضارة
ومها يرف غروبه يشفي المنيح ذا الحرارة
كذرى منور افحوا ن قد تسامق في قراره
وغدائر سود على كفيل تزينه الوثارة
وارتك كفاقي الخضا ب ومعصما ملء السواره
واذا تنازعك الحديث ننت وفي النفس ازوراره

ذكروا ان مروان بن أبي حفصة أتى حلقة يونس بن حبيب النحوى
المتوفى سنة ١٨٢ هـ وعمره نحو مائة سنة فقال : أصلحك الله اني أرى
أقواما يقولون الشعر لان يكشف أحدهم عن سواته ليمشى في الطريق
أحسن به من أن يظهر مثل ذلك • وقد قلت شعرا أعرضه عليك فان كان
جيدا أظهرته وان كان رديئا سترته • وأنشده :

طرتك زائرة " فحي خيالها بيضاء تخلط بالجمال دلالها
قادت فؤادك فاستقاد ومثلها قادت القلوب الى الصبا فأمالها

وفي هذه القصيدة يقول يمدح المهدي أمير المؤمنين ويعرض بأعدائه •

هل تطمسون من السماء نجومها بأكفكم أو تسترون هلالها
أو تجحدون مقالة من ربكم جبريل بلغها النبي فقالها
شهدت من الانفال آخر آية بترائهم فاردتمو ابطالها

يريد قوله تعالى : « والو الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله ان
الله بكل شىء عليم » • قالوا : فقال له يونس : يا هذا اذهب فأظهر هذا
الشعر فأنت والله أشعر من الاعشى يريد قصيدته (رحلت سمية غدوة
اجمالها) • فقال له مروان سؤتني وسررتني • سررتني لارتضائك الشعر
وسؤتني لتقديمك اياى على الاعشى وأنت تعلم مكانه • فقال له يونس ان

الاعشى قال :

فرميت غفلة عينه عن شاته فأصبت حبة قلبها وطحالها
والطحال لا يدخل في شيء الا أفسده • وأنت لم تقل ذلك وهذا نقد
رجل عالم بمواقع الالفاظ ، فان كلمة الطحال هنا بشعة ساقطة وهي أشبه
بمن يريد ان يعظمك ويحلف بك فيقول وحق يافوخك مكان رأسك •
قال صاحب الموشح وهم يذكرون القلب والفؤاد والكبد عند ذكر
الهوى والشوق والمحبة وما يجده المغمم في هذه الاعضاء من الحرارة
والكرب •

وعلى هذا النمط من اسلوب البحث واصول النقد يسير ابن سلام في
طبقات فحول الشعراء حتى اذا أتى الى صفحة ٣٢ من كتابه المطبوع على
نسخة خطية أوربية فوجئنا بسقوط عنوان الطبقة الثانية ووجدنا الكلام ينتقل
ويدور حول اسلام كعب بن زهير ومدحته للنبي صلى الله عليه وسلم
وللمهاجرين رضي الله عنهم تلك المدحة المشهورة في قصيدته التي يقول
فيها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم اثرها لم يفد مكبول
حتى ينتهي الى قوله :

وقال كل خليل كنت آمله لا الفينك اني عنك مشغول
فقلت خلوا سبيلي لا أبا لكم فكل ما وعد الرحمن مقبول
كل ابن اتى وان طالت سلامته يوما على آله حدباء محمول
نبئت ان رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول
ان الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

فحينئذ كساه النبي صلى الله عليه وسلم بردة ثم اشتراها معاوية من
آل كعب بن زهير بمال كثير • وكان الخلفاء يلبسونها في العيدين • ثم ينتقل

الى البحث عن الحطيثة فيصفه بأنه متين الشعر شرود القافية وانه كان راوية
لزهير وآل زهير ثم يتحدث عنه انه قال لكعب قد علمت روايتي شعركم أهل
البيت وانقطاعي اليكم وقد ذهب الفحول غيري وغيرك فلو قلت شعرا تذكر
فيه نفسك وتضعني موضعا فان الناس لاشعاركم أروى واليها أسرع فقال
كعب :

فمن للقوافي شأنها من يحوكها اذا ما سوى كعب وفوز جرول
كفيتك لا تلقى من الناس واحدا تنخل منها مثل ما يتنخل
يثقفها حتى تلسين متونها فيقصر عنها كل ما يتمثل
وبعد كلام ليس ذا قيمة كبيرة يقص قصة الحطيثة مع الزبرقان ومجملها
ان الزبرقان استعدى عمر بن الخطاب على الحطيثة لهجوه له فأقدمه عمر
وقال للزبرقان ماذا قال لك فقال : قال لي :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فانك أنت الطاعم الكاسي
فقال عمر لحسان : ما تقول ؟ اهجاه ؟ وعمر يعلم من ذلك ما يعلمه
حسان ولكنه أراد القاء الحجية على الحطيثة اذ ان كلمة الطاعم الكاسي معناها
المطعموم المكسي بدلالة الحال الناشئة من امتهان الحطيثة للزبرقان . هذا من جهة .
ومن جهة اخرى ان الرجل العظيم لا يوصف بترك المكارم ولا يوصف بالقعود
في الدار لان تلك صفات العاجز الضعيف . لذلك قال حسان ان الحطيثة
ذرق عليه . وبناء على هذه الشهادة الصادرة من حكم مختص ألقاه عمر في
حفرة اتخذها محبسا ولما ضاقت الحال بالحطيثة قال أبياتا في حق عمر وهذه
هي :

ماذا تقول لافراخ بندي مرخ حمر الحواصل لاماء ولا شجر
القيت كاسبهم في قعر مظلمة فأغفر عليك سلام الله يا عمر
ما اتروك بها اذ قدموك لها لكن لانفسهم كانت بك الاثر

أنت الامين الذي من بعد صاحبه القمي اليك مقاليد النهي البشر
وهكذا مضى ابن سلام يختار لكل طبقة جماعة من الشعراء حتى
استوفى الطبقات العشر وكان يبحث عنهم بحثا يتردد بين التاريخ والنقد
لذا رأيت الاكتفاء بما ذكرته من كتاب الطبقات فهو يعني عن الاسترسال
فيما لا طائل تحته • هذا ويمكن الرجوع الى الكتاب نفسه •

موسيقى الشعر

الموسيقى هي تلك الالحان العذبة المنبعثة عن الآلات الوترية
والهوائية وغيرها من آلات الانس والطرب •

وأما موسيقى الشعر فقد يراد بها ذلك الانسجام التام بين المعاني
والالفاظ وذلك الرنين المستحدث من توافق القوافي والاوزان مما يرفق
الحس ويلطف النفس بحيث اذا قرأت الشعر أو سمعته تشعر بأنك في
نعيم من اللذة أو في جحيم من الالم •

وما سبب التزام الشعراء بالتصريع والقافية والروى في الشعر الا
لاستحداث التقطيع الصوتي في كل بيت من الشعر •

كقول حطان بن المعلى :

انزلني الدهر على حكمه	من شامخ عالٍ الى خفض
وغالني الدهر بوفر الغنى	فليس لي مال سوى عرضي
أبكاني الدهر ويا ربما	أضحكن الدهر بما يرضي
لولا بنات كزغب القطا	رددن من بعض الى بعض
لكان لي مضطرب واسع	في الارض ذات الطول والعرض
وانما أولادنا بيننا	أكبادنا تمشي على الارض
لو هبت الريح على بعضهم	لامتعت عيني عن الغمض

وكقول أبي نواس في قصيدته المشهورة :

حامل الهوى تعب	يستخفه الطرب
ان بكى فحق له	ليس ما به لعب
كلما انقضى سبب	منك عاد لي سبب
تعجيبين من سقمي	صحتي هي العجب
تضحكين لاهية	والمحسب يتحسب

ذكرت قطعتين شعريتين اختلفتا وزنا وقافية ورويا لتعلم اختلاف القيم الصوتية وذذببتها الموسيقية • ولتحس ما تفعله موسيقى الشعر في اناة العواطف وما تبعثه في الابدان من حركات وسكنات • وما الرقص بأنواعه المختلفة قديما وحديثا الا مظهر من مظاهر الانفعال المادى والمعنوى •

يقول الاستاذ لامبورن في أسباب تأثير موسيقى الشعر في كتابه اسس النقد ان هذه الموسيقى يشخصها جانبان مهمان وهما اختيار الكلمات وترتيبها من جهة ثم المشاكلة بين أصوات هذه الكلمات والمعاني التي تدل عليها من جهة اخرى حتى تحدث هذا المظهر العجيب • يقول بعض الادباء العباسيين : ان المعنى اذا اكتسى لفظا حسنا وأعاره البليغ مخرجا سهلا ومنحه المتكلم قولا متمشقا صار في قلبك أحلى ولصدرك أملى (٤) •

أوزان الشعر وقوافيه

أما أوزان الشعر العربي فهي تلك البحور الستة عشر التي تنبه لها أحد عباقرة العرب الخليل بن أحمد الفراهيدي في القرن الثاني للهجرة • استقراها من شعرهم ووضعها في الحان وترايم سماها بحور الشعر وجعل

(٤) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٥٣ للدكتور شوقي ضيف •

لغة الشعر وانشاده

للشعر ألفاظ وتراكيب تختلف عن الفاظ وتراكيب سائر الكلام
وان كانت الحروف واحدة والاشتقاق واحدا أيضا •
وسبب هذا الاختلاف ناشىء من أن الشعراء الحقيقيين يهتمهم قبل كل
شيء أن يكون كلامهم ترجمانا عما فى نفوسهم من صدق الشعور وعمق
التفكير وصدق الاحساس وحرارة العاطفة ، وهذه الاحوال مجتمعة هي
التي تلهم الشعراء انماطا من المفردات والتراكيب التي لم تكن لتتنزل على
غيرهم من الناس • لذلك قال الذين يقرأون الشعر أو يسمعون ان لغة
الشعر تختلف عن لغة غيره من الكلام •

يضاف الى ذلك ان موضوعات الشعر موضوعات عاطفية تتبع من
القلب وتفيض من الشعور والمعاني التي يكون هذا منبعها لا معدى لها أن
تخترع لنفسها ضربا من الالفاظ التي تناسبها وتمثلها وتكون خير رسول
لها • وعلى ذلك نستطيع أن نقول أن لغة الشعر هي لغة القلب والخيال ،
لغة الحب والجمال ، فمن أهم صفات الشعر أن يمتاز بالفاظه وتراكيبه ويفوق
تعبيره كل تعبير شعري • فهو اللغة التي نعبر بها عن جمال الاشياء البديعة
والمعاني الاخاذة ••• ثم ان هناك شيئا آخر يضيف على لغة الشعر لونا من
الجمال الساحر يهز كيانتنا هزا وينقلنا من واقعنا الى واقع جميل ويجعلنا
فى غمرة من الاحلام العذبة • ذلك هو العامل الموسيقي المتمثل فى القيم
الصوتية التي تلهب العواطف والمشاعر وتبعث فى أسماع القراء والسامعين
سيلا من الانغام والالحان تجعلهم يتلهفون للمزيد مما يقرأون ويسمعون •
ومما يصح التمثيل به على تبيان هذا الغرض قصيدة لشاعر كبير
اصيب فجأة بمرض فى عقله على اثر حادث سياسى جعل سلواه الوحيدة
قرض الشعر ، يقوله متى ناب اليه رشده فيأتي فيه بالبديع المطرب • وفي
قصيدته التالية ضرب من الايقاع الموسيقي الذى يجعل للشعر نمطا خاصا
يُميزه على غيره من انماط الكلام قال الشاعر :

لكل بحر وزنه وتفاعيله وهى متحركات وسكنات موزعات فى أسباب وأوتاد وفواصل • وقال : ان السبب سببان خفيف وثقيل • فالسبب الخفيف حرفان متحرك فساكن مثل (من وعن) وما أشبههما والسبب الثقيل حرفان متحركان مثل (بك ، ولك) وما أشبههما • والوتد وتدان مجموع ومفروق فالوتد المجموع ثلاثة أحرف متحركان فساكن مثل (على ، والى) وما أشبههما • والوتد المفروق أحرف متحركان يتوسطهما ساكن مثل (أين ، وكيف) وما أشبههما وانما قيل للسبب سبب لانه مضطرب - فيثبت مرة ويسقط اخرى • وقيل للوتد وتدان لانه يثبت فلا يسقط • والفاصلة قسمان صغرى وكبرى • فالصغرى ثلاثة أحرف متحركات يليها ساكن مثل (سكنوا ، مدن) والكبرى أربعة أحرف متحركات يليها ساكن مثل (قتلهم ملكنا) وجمعوا الاسباب والاوتاد والفواصل فى قولهم (لم أر على ظهر جبلن سمكتن) •

وأما التفاعيل فهى تلك الاجزاء التى تتولد من ائتلاف الاسباب والاوتاد والفواصل ••• وعددها عشرة :

فعلون مفاعيلن مفاعلتن فاع لاتن فاعلن فاعلاتن مستفعلن متفاعلن
مفعولات مستفعلن •

ومما يدعو الى الاعجاب بنباهة شعراء العرب انهم فطنوا الى ناحية فنية دقيقة تدل على براعتهم واصالة طبعهم فى هذا الفن ولطف شعورهم فيه • اذ جعلوا لكل غرض من أغراض الشعر وزنا ليكون التناسب تاما بين المعنى والنغم فكانوا يختارون لكل معنى لحنًا ولكل موضوع رنينا يناسبه لان تأثير الالحن على النفس أشد وعلوقها بالقلب أسرع •

* * *

دعاني أجرع الغمما	فجفني بالاسى نَمّا
وخلاني اصيحا بي	وسهم الغدر قد أصمى
فلم أبصر أخا يرجى	ولا خالا ولا عمّا
وراح الحظ عن شكوا	ى في اذن له صمّا
وجد الدهر في قهري	يحث الهمة الشمّا
رأيت الناس تخشاني	كأنني وابيء الحمى
فلا أدري أحيا بـ	ت أم ميتا قضى ظلما
يمينا حار عقلي فسي	حياة تشبه الحلما
ارى فيها من الاضدا	د ما يستوقف الفهما
فبى كالضرب آلاما	وما من ضارب هما
وكالنيران تشوى الرو	ح ثم اللحم والعظما
اشك اليوم بي حتى	وجودى خلته وهما
مقود غير مختار	كأنني آلة صمّا
فذا حظي من الدنيا	فدعني لا تزدد غمّا ^(٥)

جاء في كتاب النقد الادبي لكرمبى حين تكلم عن لغة الشعر فقال :

« ان لغة الشعر هي اللغة التي يستطيع بها المؤلف ان يوصل تجاربه الخاصة بمنتهى القوة النافذة وبغاية الدقة والوضوح مع تصوير دقيق للتفاصيل الخفية ، فهي اللغة فى أسمى منازلها وفي كامل قوتها • وهي اللغة التي يتم فيها الانسجام فى صحة التعبير وجمال التصوير وقوة الايحاء والتوصيل ،^(٦) •

لعمرك ان الشعر صمصام حكمة وان النهى معدودة من قيونه
وللشعر عين لو نظرت بنورها الى الغيب لاستشفت ما فى بطونه

(٥) كتاب مختارات الزهور ص ١٤٢ والقصيدة للشاعر تامر بك ملاط •

(٦) استاذ الادب الانجليزى بجامعة لندن ص ٤٥ • باختصار •

الفصل السادس

النثر الفني

النثر الفني كلام فصيح الالفاظ بليغ التراكيب حسن البيان والاساليب. صادر عن عقل وروية عليه مدار دواوين الدولة في رسائلها وعهودها. ووصاياها وتعليقاتها فيه تتجلى الحياة العقلية للامة وفيه ترتفع مكائنها بين الامم .

وهو كالشعر يثير المشاعر ويحرك العواطف ويدعو الى الاعجاب. غير انه لا يلحقه وزن ولا يتعلق بتقنية . وبالنظر لما انيط به من مهام فقد رجحه بعضهم على الشعر ومنهم القلقشندي فانه يرى ان النثر الفني ارفع درجة واعلى رتبة واشرف مقاما واحسن نظاما . ومنهم الثعالبي في كتاب نثر النظم فانه يبني حكمه على ان طبقات الكتاب كانت ولا تزال مرتفعة عن طبقات الشعراء ، فيقول ان الكتاب وهم السنة الملوك انما يتراسلون في جباية خراج او سد ثغر او عمارة بلاد او اصلاح فساد او تحريض على جهاد او احتجاج على فئة او دعاء الى فته او نهي عن فرقة او تهنئة بعطية او تعزية في رزية او ما شاكلها من جلائل الخطوب ومعازم الشؤون التي يحتاجون فيها الى ان يكونوا ذوي آداب كثيرة ومعارف مفننة .

وقد نقد هذا الرأي الدكتور زكي مبارك في كتابه النثر الفني في الجزء الاول ص ١٩ قال ان كلام الثعالبي حق من جانب وخطأ من جانب آخر ، هو حق من حيث تنويهه بفضل النثر في المصالح المعاشية والسياسية.

(١) النثر الفني للدكتور زكي مبارك ص ٢٧ ج ١ .

والادارية لان النثر هو الاداة الصالحة للتفاهم في شؤون الحرب والسلم والتجارة والصناعة والزراعة وما الى ذلك من شؤون العمران ولكنه خطأ من حيث يعطى للنثر جوانب هي أقرب للشعر منها الى النثر ، فالدعاء الى الالفه والنهي عن الفرقة والتنهاني بالعطايا والتعازي في الرزايا من الموضوعات التي كان الشعر فيها اصلح اداة من النثر واقدر على تسجيل العواطف والاحاسيس وامتلاك النفوس والقلوب •

ان اجراء التفاضل بين الشعر والنثر اجراء لا أجد له مبررا ، اذ ان لكل واحد منهما وجهة تختلف عن الاخرى فلا داعي للمقارنة بينهما ولكل مجاله وحوافزه ودواعيه • فالشعر منبعه القلب والوجدان مع البداهة • والنثر مصدره العقل والروية مع التأمل • والشعر كمال اللغة البشرية وفيض العبقرية (انه انجذاب ابدى لمعانقة الكون باسره هو ابتسامة الطفل ودمعة التكى وتورد وجنة العذراء والرعشة امام سلطان الحب والجمال ، هو صرخة البائس وعُجب القوى ونجدة الضعيف بينما النثر اداة للتفاهم في اسلوب خاص وأداة للروابط العامة بين الناس انه يسوي العلاقات الدولية ويبحث في الشؤون العلمية والمعاشية به يترافع المتخاصمون وبه يقضي الحكام العادلون •

وعلى العموم ان الشعر بفضل الحانه وموسيقاه ومعانيه وأخيلته أقرب الى النفس وأعلق بالذاكرة واسير على اللسنة انه سلوة الحزين ورسول المحبين ولامر ما قال نبينا العظيم صلى الله عليه وسلم لا تدع العرب الشعر حتى تدع الابل الحنين •

هذا أبو السائب المخزومي على شرفه وجلالة قدره وفضله في الدين والعلم يقول أما والله لو كان الشعر محرما لوردنا الرحبة^(٢) كل يوم مرارا •

(٢) الرحبة هي الموضع الذي كان تقام فيه الحدود •

يريد انه لا يستطيع الصبر عنه فيحدّ كل يوم مرارا ولا يتركه .
جاء في كتاب العمدة لابن رشيق ان كلام
العرب نوعان منظوم ومشور ولكل منهما ثلاث طبقات جيدة
ومتوسطة وردثة . واذا اتفقت الطبقتان في القدرة وتساوتا في القيمة
ولم يكن لاحدهما فضل على الاخرى كان الحكم للشعر ظاهرا في التسمية
لان كل منظوم أحسن من كل مشور من جنسه في معترف العادة . فالدرّ
وبه يُشَبَّه اللفظ اذا كان مشورا لم يؤمن عليه ولم ينتفع به في الباب الذي
له كُسِبَ ومن أجله انتخب . وكذلك اللفظ اذا كان مشورا تبدد في
الاسماع . فاذا أخذ سلك الوزن وعقد القافية تألفت أشتاته وازدوجت
فرائده .

وقد ينقسم النثر الفني الى قسمين :

الاول - النثر الفني الكتابي وعماده القلم ومن أعلى نماذجه قديما
النثر القرآني ورسائل النبي صلى الله عليه وسلم ورسائل البلغاء من الخلفاء
والولاة في ادارة الملك وتوطيد أركان السلطان ومنها الرسائل الدينية
والاخوانية وما جرى مجراها من رسائل الشوق والعتاب والشكوى والوصف
والاعتذار .

وأما النثر الفني الحديث فانه يتمثل في القصة التي أصبحت
ميدانا واسعا ومجالا خصبا لتصوير الحياة في مختلف وجوهها في الاجتماع
والسياسة والحرب وفي كثير مما يصطرع في النفوس من دواعي الحب
والبغض واليأس والرجاء ونوازع القلب والوجدان .

الثاني - النثر الفني الخطابي وعماده اللسان ومن نماذجه قديما
وحديثا خطب النبي صلى الله عليه وسلم وخطب الصحابة من الخلفاء والولاة
والقادة والائمة والزعماء سواء كانوا في ميادين الحروب أم في قاعات
المؤتمرات في شتى الموضوعات .

ومن النثر الخطابي الحديث القصص المسرحي فان له من التأثير في

العصر الحاضر ما يجعله يفوق كل أنواع القصص لما يمتزج فيه من حركات
الممثلين وسكناهم وما يرافق ذلك من أضواء وألوان ورسوم في رجة
المسرح وفي لباس الممثل الخطيب هذا بالإضافة الى ما يؤديه من أسباب المعرفة
للذين حرموا من نعمة القراءة والكتابة •

والنثر الفني بقسميه الكتابي والخطابي يقسم الى نثر مرسل ونثر
مسجوع اما المرسل فهو كما ذكرته في صدر هذا البحث كلام بليغ معتمد
على العقل والمنطق ووضوح الفكرة وتسلسل العبارة وسطوع الحججة وقوة
التأثير دون أن يتقصد تعادل أجزاء الكلام واتفاق الفواصل في حرف واحد
اللهم الا اذا جاء ذلك على رسله وبغفو الخاطر • كما في هاتين الرسالتين
المتبادلتين بين الحجاج وعبد الملك •

كتب الحجاج الى عبد الملك في شأن عروة بن الزبير وكان عروة عاملاً
على اليمن ولجأ الى عبد الملك •

بسم الله الرحمن الرحيم

اما بعد فان لوزان المعترضين بك وحلول الجانحين الى المكث بساحتك
واستلاتهم دمت أخلاقك وسعة عفوك كالعارض المبرق لاعدائه لا يعدم له
شائماً رجاء استمالة عفوك • واذا أدنى الناس بالصفح عن الجرائم كان ذلك
تمريناً لهم على اضعاف الحقوق مع كل ضال • والناس عبيد العصاهم على
الشدّة أشد استباقاً منهم على اللين • ولنا قبل عروة بن الزبير مال من مال الله
وفي استخراج منه قطع لطمع غيره فليبعث به أمير المؤمنين ان رأى ذلك
والسلام •

فكتب اليه عبد الملك :

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد فان أمير المؤمنين رآك مع ثقته بنصيحتك خابطاً في السياسة

خبط عشواء الليل فان رأيك الذي يسول لك ان الناس عبيد العصا هو
الذي أخرج رجالا العرب الى الوثوب عليك واذا اخرجت العامة بعنف
السياسة كانوا أوشك وثوبا عليك عند الفرصة ثم لا يلتفتون الى ضلال الداعي
ولا هداه اذا رجوا بذلك ادراك الثأر منك • وقد وليت العراق قبلك ساسة
وهم يومئذ أحصى أنوفا وأقرب من عمياء الجاهلية وكانوا عليهم أصلح منهم
عليك • وللشدة واللين اهلون والافراط في العفو أفضل من الافراط في
العقوبة والسلام •

اما النثر المسجوع فهو :

ما توافقت فواصله في الحرف الاخير •

كقوله تعالى « والنجم اذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق
عن الهوى ان هو الا وحي يوحى علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى وهو
بالافق الاعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى الى عبده
ما أوحى ما كذب الفؤاد ما رأى افتخارونه على ما يرى ولقد رآه نزلة اخرى
عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى اذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر
وما طغى • لقد رأى من آيات ربه الكبرى أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة
الاخرى ألكم الذكر وله الاثنى تلك اذا قسمة ضيزى » •

وكقوله صلى الله عليه وسلم يوم دخل المدينة : أيها الناس افشوا
السلام واطعموا الطعام واصلوا الارحام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا
الجنة بسلام •

وكقوله في بعض أدعيته : اللهم اني أعوذ بك من علم لا ينفع وقلب
لا يخشع ودعاء لا يُسمع ونفس لا تشبع •

وكقول أديب في وصف الاديب :

فحقيق على الاديب ان يخزن لسانه عن نطقه ولا يرسله في غير حقه

وأن ينطق بعلم وينصت بحلم ولا يعجل في الجواب ولا يهجم على الخطاب
وان رأى أحدا هو أعلم منه نصت لاستماع الفائدة عنه وتحذر من الزلل
والسقط وتحفظ من العيوب والغلط • ولم يتكلم فيما لا يعلم ولم يناظر
فيما لا يفهم فانه ربما أخرجته ذلك الى الانقطاع والاضطراب وكان فيه نقصه
عند ذوي الالباب •

والنثر المسجوع على أنواع :

منها أن تكون فواصله متساوية لا تزيد احداها على الاخرى وروياها
واحد كقوله تعالى : « والعاديات ضبحا فالموريات قدحا فالمغيرات صبحا فأثرن
به نقعا فوسطن به جمعا » • وقوله « فاما اليتيم فلا تقهر واما السائل فلا
تنهر » •

ومنها ما اتفقت فقراته وزنا واختلفت رويا كقول الامام علي رضي الله
عنه :

أغنى الغنى العقل ، وأكبر الفقر الحمق ، وأوحش الوحشة العُجب •
ومنها أن يكون كل فاصلتين أو أكثر على حرف واحد ويسمى المزدوج
كقوله صلى الله عليه وسلم للانصار ، انكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند
الطمع • وكقول الجاحظ في رسالة الى أحد أصحابه : ما ضاء لي نهار ولا
دجا ليل مذ فارقتك الا وجدت الشوق اليك قد حز في كبدي والاسف عليك
قد أسقط في يدي والنزاع نحوك قد خان جلدي فانا بين حشا خافقة ودمعة
مهراقة ونفس قد ذبلت بما تكابد وذكرك وانا على فراش الارتماض ممنوع
من لذة الاغتماض •

ومنها ان تكون ألفاظ الجزئين المزدوجين مسجوعة فيكون الكلام
سجعا في سجع كقول أحدهم : حتى عاد تعريضك تصريحا وتمريضك
تصحيحا فالتعريض والتمريض سجع والتصريح والتصحيح سجع آخر فهو

سجع في سجع • وقد يتجلى السجع بأنواعه وألوانه وفصوله وفنونه في
مقامات ابي القاسم بن عثمان الحريري البصري • وها انا أقبس شيئاً من
المقامة الديمياطية واحيل طالب المزيد الى كتاب المقامات نفسه •

ما حك جلدك مثل ظفرك فتول انت جميع امرك •

اخبر الحارث بن همام قال ظننت الى دمياط عام هياط ومياط وانا
يومئذ مرموق الرخاء موموق الاخاء اسحب مطارف الثراء واجتلي معارف
السراء فرافقت صحبا قد شقوا عصا الشقاق وارتضعوا أفويق الوفاق حتى
لاحوا كأسنان المشط في الاستواء وكالنفس الواحدة في التمام الاهواء ،
وكننا مع ذلك نسير النجاء ولا نرحل الا كل هوجاء • واذا نزلنا منزلا او
وردنا منها اختلسنا اللبث ولم نطل المكث فعن لنا اعمال الركاب في ليلة
فتية الشباب غدا فيه الاهاب فاسرنا الى ان نضا الليل شبابه وسلّ الصبح
خضابه فحين مللنا السرى وملنا الى الكرى صادفنا ارضا مخضلة الربى
معتلة الصبا فتخيرناها مناخا للعيش ومحطاً للتعريس فلما حلها الخليط وهدأ
بها الاطيظ والغطيظ سمعت صيتا من الرجال يقول لسميره في الرجال ،
كيف حكم سيرتك مع جيلك وجيرتك ؟ فقال ارعى الجار ولو جار وابذل
الوصال لمن صال واحتمل الخليط ولو ابدى التخليط واود الحميم ولو
جرعني الحميم وافضل الشفيق على الشقيق وافى للعشير وان لم يكافيء
بالعشير واستقل الجزيل للنزيل واغمر الزميل بالجميل وانزل سميرى
منزلة اميرى واحل انيسي محل رئيسي واودع معارفي عوارفي واولي
مُرافقي مرافقي والين مقالي للقالى واديم تسالي عن السالي وأرضى من الوفاء باللقاء
واقنع من الجزاء بأقل الاجزاء ولا اتظلم حين اظلم ولا انقم ولو لدغني
الارقم •

فقال له صاحبه : ويك يا بني انما يضمن بالضنين وينافس بالثمين لكن
انا لا آتي غير المواتي ولا اسم العاتي بمراعاتي ولا اصافى من يابى انصافى

ولا اواخي من يلغى الاواخي ولا امالي من يخيب آمالي ولا ابالي بمن
 صرم جبالي ولا اداري من جهل مقداري ولا اعطي زمامي من يخفر ذمامي
 ولا ابذل ودادي لاضدادي ولا ادع ابعادي للمعادي ولا اغرس الايادي
 في ارض الاعادي ولا اسم بمواساتي لمن يفرح بمسآاتي ولا اري التفاتي
 الى من يشمت بوفاتي ولا اخص بجبائي الا احبائي ولا استطب لدائي غير
 اودائي ولا املك خلتي من لا يسد خلتي ولا اصفي نيتي لمن يتمنى منيتي
 ولا اخلف دعائي لمن لا يفعم وعائي ولا افرغ ثنائي على من يفرغ انائي •
 ومن حكم بأن ابذل وتخزن والين وتخشن واذوب وتجمد واذكو وتخدم
 لا والله بل تتوازن في المقال وزن المثقال وتتحاذى في الفعال حذو النعال
 حتى تأمن التغابن ونكفي التضامن والا فلم اعلك وتعلمني واقلك وتستقلني
 واجترح لك وتجرحني واسرح اليك وتسرحني وكيف يجتلب انصاف
 بضيم وانني تشرق شمس مع غيم ومتى أصحاب ود بعسف وأي حر رضي
 بخطة خسف والله ابوك حيث يقول :

جزيت من اعلق بي وده	جزاء من يبني علي اسمه
وكلت للخل كما كال لي	على وفاء الكيل أو بخسه
ولم أخسره وشر الوري	من يومه أخسر من أمسه
وكل من يطلب عندي جنى	فماله الا جنى غرسه
لا أبتغي الغبن ولا اثني	بصفقة المغبون في حسه
ولست بالموجب حقاً لمن	لا يوجب الحق على نفسه
ورب مذاق الهوى خالني	أصدقه الود على لبسه
وما درى من جهله انني	أقضى غريمي الدين من جنسه
فاهجر من استغباك هجر القلي	وهبه كالملاحود في رسمه
والبس لمن في وصله لبسة	لباس من يرغب عن انسه
ولا ترج الود ممن يرى	انك محتاج الى فلسه

ان هذا النوع من النثر المسجوع الذى تضمنته المقامات البديعية
والحريرية لم يكن مستساغاً فى المجالات العامة وانما كان محصوراً فى حدود
ضيقة يقصد بها اظهار البراعة الفنية والمباهاة باتساع الثروة اللغوية ليس الا
• ولذلك كان أكثر قصصه يدور حول موضوعات غير حيوية وليست ذات
قيمة فى ميزان الاحداث الاجتماعية •

الفصل السابع

نماذج من النقد في العصر العباسي

سبق ان ذكرنا ان دراسة النماذج الادبية هي من صميم ابحاث النقد الادبي ، بل هي ثمرته . ذلك لان معرفة هاتيك النماذج تبصر محبي فن الادب والبيان بمحاسن الكلام ومساوئه وتنمي فيهم ملكة النقد ، وتسدد خطاهم حين يكتبون وحين يشعرون ، ويجعلهم في مأمن من الاخطاء التي وقع فيها بعض الكتاب والشعراء في مختلف العصور .

وقد عرضنا في الجزء الاول من كتابنا هذا طائفة كبيرة من النماذج النقدية التي جرت وقائعها في العصرين الجاهلي والاسلامي .

لذلك كان لزاما علينا ان نفردها فصلا خاصا بها نضمنه نماذج اخرى من النقد الادبي جرت ابحاثها في العصر العباسي والعصور التي تليه ، عسى ان تبيّن الفروق الدالة على تطور الابحاث الادبية والنقدية والمدى الذي بلغه الادباء في مضمار النقد والادب .

روي الرواة ان بشّاراً سمع قول كثيرٍ عزّة في لين أعضاء ليلاه .
وقد جعل الاعداء ينتقصوننا وتطمع فينا ألسن وعيون
الا انما ليلى عصا خيزرانة اذا غمّزوها بالاكف تليين

فنقده بشّار فقال : والله لو زعم انها عصا مخ او عصا زبدة لما كانت
الا جافية خشنة ، بعد ان جعلها عصا . الا قال كما قلت .

ودعجاء المحاجر من معدّ كأنّ حديثها ثمر الجنان
اذا قامت لمشيبتها تثنت كأنّ عظامها من خيزران

ولقد نقد أبو العباس ابا تمام في وصفه الحلم بالبرقة حيث يقول :
رقيق حواشي الحلم لو أن حلمه بكفيك ما ماريت في انه بررد
فانكره وقال : هذا الذي أضحك الناس منذ سمعوه الى هذا الوقت
ولم يزد على استنكاره هذا شيئاً .

والخطأ في هذا ظاهر . اذ لم يُسمع عن شعراء الجاهلية والاسلام
انهم وصفوا الحلم بالبرقة . وانما سمع عنهم انهم وصفوا الحلم بالعظمة
والرجحان ، والثقل ، والرزانة ، كما قال النابغة :

وأعظم احلاماً وأكبر سيداً وأفضل مشفوعاً اليه وشافعاً
وكما قال الاخطل :

شُمس العداوة حتى يُستقاد لهم وأعظم الناس احلاماً اذا قد روا
وكما قال أبو ذؤيب :

وصبر على حدث النائبات وحلم رزين وقلب ذكي
وكما قال الفرزدق :

أحلامنا تزن الجبال رزانة وتخالنا جيناً اذا ما نجهل
وقال أيضاً :

انا لتوزنُ بالجبال حلومنا ويزيد جاهلنا على الجهال

* * *

حدث أحمد بن خالد ، قال حدثني ابي قال : قلت لبشار يا ابا معاذ :
انك لتجيء بالامر المهجين . قال : وما ذاك قلت : انك تقول :

اذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو مطرت دما
اذا ما أعرنا سيداً من قبيلة ذرى منبر صلتى علينا وسلمنا
ثم تقول :

ربابة ربة البيت تصب الخل في الزيت
لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

فقال بشار : كل شيء في موضعه ، وربابة هذه جارية لي ، وانا لا آكل
البيض من السوق ، فربابة هذه لها عشر دجاجات وديك فهي تجمع عليّ
هذا البيض وتحضره لي ، فكان هذا من قولي لها أحب اليها وأحسن عندها
من :

فقال نيك من ذكرى حبيب ومنزل

* * *

قال ابن الاعرابي^(١) : قلت لابي برزة الاعرابي أحد بني قيس بن
ثعلبة : أيعجبك قول ابي العنابية :

الا يا عتبة الساعة أموت الساعة الساعة

فقال : لا والله ما يعجبني ، ولكن يعجبني قول الآخر :

جاء شقيق عارضاً رمحه ان بني عمك فيهم رماح
هل أحدث الدهر لنا نكبة أم هل رقت أم شقيق سلاح

أي نفثت عليه كلاماً من السحر ، حتى لا يعمل شيئاً يجرّ بلاءاً

* * *

ولقد نقد ابن الاعرابي اشعار المحدثين بوجه عام فقال : انما اشعار
هؤلاء المحدثين - مثل ابي نواس وغيره - مثل الريحان يشم يوماً ويذوي
فيرمى به • واشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركته ازداد طيباً •

* * *

نقد قدامة بن جعفر قول ابي نواس في مدح محمد الامين :

(١) الموشح ص ٢٦٥ •

يا أمين الله عش أبداً دم على الايام والزمن
من قصيدة نذكر بعضها في هذه المناسبة لما فيها من صدق العاطفة
وبراعة الفن وجمال الاسلوب •

يا كثير النوح في الدمن لا عليها بل على السكن
سنة العشاق واحدة فاذا أحبيت فاستكن
ظن بي من قد كلفت به فهو يجفوني على الظنن
رشاً لولا ملاحظته خلت الدنيا من الفتن
يا أمين الله عش أبداً دم على الايام والزمن
انت تبقى والفناء لنا فاذا افنتنا فكن
تضحك الدنيا الى ملك قام بالاحكام والسُنن
كيف تسخو النفس عنك وقد قمت بالغالي من الثمن
سن للناس الندى فندوا فكان البخيل لم يكن

قال قدامة : ان من عيوب المعاني ايقاع المتنع فيها في حال ما يجوز
وقوعه ، ويمكن كونه ... والفرق بين المتنع والمتناقض : ان المتناقض
لا يكون ولا يمكن تصوره في الوهم ... والمتنع لا يكون ولكن يمكن
تصوره في الوهم . ومما جاء في الشعر وقد وضع المتنع فيما يجوز
وقوعه قول ابي نواس •

يا أمين الله عش أبداً دم على الايام والزمن
فليس يخلو هذا الشاعر من ان يكون تفاءل لهذا المدوح بقوله
(عش أبداً) امرأ او دعاء ، وكلا الامرين مما لا يجوز ومستقيح ، ولعل
معتزلاً يعترض هذا القول منا في هذا الموضع ، فيقول : انه مناقضة لما
استجزناه ورأيناه صواباً من الغلو ، ويجعل قول ابي نواس هذا غلوً فيلزمنا
تجويز الغلو • ونحن نقول : ان هذا وما اشبهه ليس غلوً ولا افراطاً ، بل

خروجاً عن حد الممتع الذي لا يجوز ان يقع ، لان الغلو انما هو تجاوز
في نعت ما للشيء ان يكون عليه ، وليس خارجاً عن طباعه الى ما لا يجوز أن
يقع له ، لان الذي يكون قلنا انه جائز مثل قول النمر بن توبل •

تَظَلَّ تحضر عنه ان ضربتَ به بعد الذراعين والساقين والهادي
فليس خارجاً عن طباع السيف ان يقطع الذراعين والساقين والهادي ،
وان يؤثر بعد ذلك ، ويفوص في الارض ، ولكنه مما لا يكاد ان يكون •
وكذلك ما قلناه في ما قال مهلهل :

فلولا الريح اسمع من بحجر صليل البيض تفرع بالذكور
فانه ايضاً ليس بخارج عن طباع أهل حجر ان يسمعوا الاصوات من
الاماكن البعيدة ، ولا خارج عن الطباع ان تصل ويشد طينها بقرع لسيوف
اياها ، ولكن يبعد بعد المسافة بين موضع الرقة وحجر بعداً لا يكاد يقع •
وليس في طباع الانسان ان يعيش أبداً ، فانا كنا قد قدمنا ان مخارج الغلو
انما هي على (يكاد) وليس في قول ابي نواس (عش أبداً) موضع يحسن
فيه يكاد ، لانه لا يحسن على مذهب الدعاء ان يقال أمين الله يكاد ان يعيش
أبداً •

* * *

ثم قال قدامة • ومن التناقض قول ابي نواس ايضاً يصف الخمر
كأن بقايا ما عفا من حبابها تفاريق شيب في سواد عذار
فشبه حباب الكأس بالشيب ، وذلك قول جائز ، لان الحباب يشبه
الشيب في البياض وحده لا في شيء آخر غيره ، ثم قال :

تردت به ثم انفري عن اديمها تفرى ليل عن بياض نهار
فالحباب الذي جعله في هذا البيت الثاني كالليل هو الذي في البيت
الاول أبيض كالشيب ، والخمر التي كانت في البيت الاول كسواد العذار
هي التي صارت في البيت الثاني كبياض النهار ، وليس في هذا التناقض

منصرف الى جهة من جهات العذر ، لان الابيض والاسود طرفان متضادان ،
 وكل واحد منهما في غاية البعد عن الآخر • فليس يجوز ان يكون شيء واحد
 يوصف بانه أسود وأبيض الا كما يوصف الادكن في الالوان بالقياس الى كل
 واحد من الطرفين اللذين هو واسط بينهما ، فيقال : انه عند الابيض اسود ،
 وعند الاسود ابيض • وليس فيما قاله ابو نواس حال توجب انصراف ما قاله
 الى هذه الجهة •

* * *

* قال الاصمعي قرأت على خلف شعر جرير فلما بلغت قوله :

ويوم كابهام القطاة محجب الي هواء غالب لي باطله
 رزقنا به الصيد الغرير ولم نكن كمن نبه محرومة وجبائله
 فيالك يوما خيره قبل شره تغيب واشيه وأقصر عاذله

فقال ويله وما ينفعه خير يؤول الى شر؟ فقلت له هكذا قرأته على أبي
 عمرو فقال لي صدقت وكذا قاله جرير ، وكان قليل التنقيح مشرد الالفاظ
 وما كان ابو عمرو ليقرئك الا كما سمع فقلت فكيف كان يجب ان يقول
 قال : الاجود له لو قال (فيالك يوما خيره دون شره) فاروه هكذا فقد كانت
 الرواة قديما تصلح من اشعار القدماء فقلت والله لا أرويه بعد هذا الا هكذا •

* * *

* قال ابو محمد عبدالله بن جعفر بن درستويه قال لي البحتري وقد
 اجتمعنا على خلوة عند المبرد وسلطنا مسلكا من المذاكرة ، أشعرت اني سبقت
 الناس كلهم الى قولي :

شقاق يحملن الندى فكأنه دموع التصابي في خدود الخرائد
 كأن يد الفتح بن خاقان اقبلت تليها بتلك البارقات الرواعد

هكذا أنشد فاستحسن ذلك المبرد استحسانا اسرف فيه وقال :
 ما سمعت مثل هذه الالفاظ الرطبة والعبارة العذبة لاحد تقدمك ولا تأخر

عنك فاعتزته اريحية جرّ بها رداء العُجب فكأنه أعجبنى ما يعجب الناس من
مراجعة القول ، فقلت يا أبا عبادة ألم تسبق لى هذا ؟ وسبقك سعيد بن
حميد الكاتب الى البيت الاول بقوله :

عذب الفراق لنا قبيلا وداعنا ثم اجترعناه كسما ناقع
وكأنما أثر الدموع بخدها طل تساقط فوق ورد يانع

وشركك فيه صديقنا ابو العباس الناشي بما انشدنيه :

بكت للفراق وقد راعني بكاء الحبيب لبعث الديار
كان الدموع على خدها بقية طل على جلتار^(١)

وما اساء على بن جريج بل أحسن فى زيادته عليها بقوله :

لو كنت يوم الوداع شاهدا وهنّ يطفين غلّة الوجد
لم تر الا دموع باكية تسفح من مقلّة على خد

وسبقك ابو تمام الى معنى البيتين معا :

من كل زاهرة ترقرق بالندى فكأنها عين اليه تحدر
تبدو ويحجبها الجميم كأنها عذراء تبدو تارة وتخفر
خلق أطل من الربيع كأنه خلق الامام وهديه المنتشر
فى الارض من عدل الامام وجوده ومن الربيع الغض سرح يزهر
ينسى الربيع وما يروض جوده ابدا على مر الليالي يذكر
قال فشق عليه وحل جبوته ونهض فكان آخر عهده بمؤانسته وغلظ
ذلك على المبرد وقدح فى حالي عنده .

* * *

(١) الجلتار : زهر الرمان - وهو فارسي معرب .

مجلس من مجالس الادب والنقد فى البصرة

قال بعض الرواة كنا مع ابي نصر راوية الاصمعي فى رياض من المذاكرة نجتني ثمارها ونجتلي انوارها الى ان افضنا فى ذكر ابي سعيد عبدالمك بن قريـب الاصمعي فقال: رحم الله الاصمعي انه كان لمعدن حكـم وبحر علم غير انه لم نر قط مثل اعرابي وقف بنا فسلم فقال ايكم الاصمعي؟ فقال انا ذاك . فقال اتأذنون بالجلوس فأذنا له وعجبنا من حسن ادبه مع جفاء أدب الاعراب . فقال : يا اصمعي انت الذى يزعم هؤلاء النفر انك اتقهم معرفة بالشعر والعربية وحكايات الاعراب ؟ قال الاصمعي فيهم من هو اعلم مني ومن هو دوني . قال افلا تتشدوننى من بعض شعر أهل الحضر ؟ حتى اقيسه على شعر اصحابنا فانشده شعرا لرجل امتدح به مسلمة بن عبدالمك :

أسلم انت البحر ان جاء وارد	وليت اذا ما الحرب طار عقابها
وأنت كسيف الهند واني ان عدت	حوادث من حرب يعب عباها
وما خلقت اكرومة في امرى له	ولا غاية الا اليك ما بها
كأنك ديـان عليها موكل	بها وعلى كفيك يجرى حسابها
اليك رحلنا العيس اذ لم نجد لها	اخا ثقة يرجى لديه ثوابها

قال فتبسم الاعرابي وهز رأسه فظننا ان ذلك لاستحسانه الشعر ، ثم قال يا اصمعي هذا شعر مهلهل النسيج خطؤه اكثر من صوابه يغطي عيوبه حسن الروى ورواية المنشد . تشبهون الملك اذا امتدح بالاسد والاسد ابخر شتيم المنظر وربما طرده شزيمة من اماتنا وتلاعب به صيانتنا . وتشبهونه بالبحر والبحر صعب على من ركبه مرّ على من شربه . وبالسيف . وربما خان فى الحقيقة ونبا عند الضريبة الا انشدتني كما قال صبي من حيننا ؟ قال الاصمعي وماذا قال صاحبكم؟ فأنشده :

اذا سألت الورى عن كل مكرمة	لم يعز اكرامها الا الى الهول
فتى جواد اذاب المال نائله	فالنيل يشكر منه كثرة النيل

الموت يكره ان يلقي منيته في كرهه عند لف الخيل بالخيل
لو زاحم الشمس ابقى الشمس كاسفة أو زاحم الصم الجاها الى الميل
أمضى من النجم ان نابته نائبة وعند أعدائه اجرى من السيل
لا يسترىح الى الدنيا وزينتها ولا تراه اليها صاحب الذيل

قال أبو نصر فابتهنا والله ما سمعنا من قوله • قال فتأتى الاعرابي ثم
قال للاصمعي الا تشدني شعرا تتراح اليه النفس ويسكن اليه القلب فانشده
لابن الرقاع العاملي :

وناعمة تجلو بعود اراكة مؤشرة يسبي المعانق طيها
كان بها خمرا بماء غمامة اذا ارتشفت بعد الرقاد غروبها
أراك الى نجد تحن وانما منى كل نفس حيث كان حبيها
فبسم الاعرابي وقال يا أصمعي ما هذا بدون الاول ولا فوقه • الا
انشدتني كما قلت • قال الاصمعي • وما قلت جعلت فداك ؟ فانشده :

تعلقتها بكررا وعلقت جبهها فقلبي عن كل الوري فارغ بكر
اذا احتجبت لم يكفك البدر ضوءها وتكفيك ضوء البدر ان حجب البدر
وما الصبر عنها ان صبرت وجدته جميلا وهل في مثلها يحسن الصبر
وحسبك من خمر يفوتك ريقها ووالله ما من ريقها حسبك الخمر
ولو ان جلد الذر لامس جلدها لكان للمس الذر في جلدها أثر
ولو لم يكن للبدر ضدا جمالها وتفضاه في حسنها لصفها البدر

قال ابو نصر : قال لنا الاصمعي : اكتبوا ما سمعتم ولو باطراف المدى
في رفاق الاكباد

* * *

* قال أحمد بن عبيد بن ناصح قلت لابي تمام وكان يجيء الى المسجد
الجامع ينشد أشعاره أخبرني عن قولك :

كأن بني نبهان يوم وفاته نجوم سماء خرّ من بينها البدر
أردت ان تصف حسن حالهم بعده أو سوء حالهم ؟ قال لا والله
ما أردت الا سوء حالهم لان قمرهم قد ذهب فقلت والله ما تكون الكواكب
أحسن ما تكون الا اذا لم يكن البدر معها • الا قلت كما قال ابو يعقوب
اسحاق بن حسان الخريمي :

بقية أقمار من العز لو خبت لظلت معد في الدجى تسكع
اذا قمر منها تغور أو خبا بدا قمر من جانب الافق يلمع

* * *

* قال محمد بن موسى بن حماد قال كنت عند دعبل بن علي انا
والغمر اوي في سنة خمس وثلاثين ومائتين فذكرنا أبا تمام فجعل يثلبه ويزعم
انه كان يسرق الشعر ثم قال لفلانمه هات تلك المخلاة فجاء بمخلاة فيها دفاتر
فجعل يمرها على يده حتى اخرج منها دفترا • فقال اقرأوا هذا فنظرنا فاذا
في الدفتر : قال مكنف ابو سلمى من ولد زهير بن ابي سلمى يرثي ابا
العباس ذفافة العبيسي بقوله :

أبعد ابي العباس يستعب الدهر وما بعده للدهر عتبي ولا عذر
ولو عوتب المقدار والدهر بعده لما اعتبا ما اوراق السلم النضر
الا أيها الناعي ذفافة ذا الندى تعست وشئت من اناملك العشر
أتسعى فتى من قيس عيلان صخرة تفلق عنها من جبال العدى الصخر
اذا ما أبو العباس خلى مكانه فلا حملت اتى ولا مسها طهر
ولا امطرت أرضا سماء ولا جرت نجوم ولا لذت لشاربها الخمر
كأن بني القعقاع يوم وفاته نجوم سماء خرّ من بينها البدر
توفيت الآمال بعد ذفافة وأصبح في شغل عن السفر السفر
يعزّون عن ثاو تعزى به العلا ويبكي عليه المجد والبأس والشعر
وما كان الا مال من قلّ ماله وذخرا لمن امسى وليس له ذخـر

ثم قال سرق أبو تمام أكثر هذه القصيدة فادخلها في شعره • ثم علق
على ذلك الشيخ أبو عبدالله المرزباني رحمه الله تعالى فقال يعني قصيدة ابي
تمام التي هي على روى هذه الايات ورثي فيها محمد بن حميد وأولها :

كذا فليجل الخطب وليفدح الامر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر
ومنها :

توفيت الآمال بعد محمد وأصبح في شغل عن السفر السفر
ومنها :

وما كان الا مال من قلّ ماله وذخرا لمن أمسى وليس له ذخر

* * *

قال ابو العيناء : ان اسحاق الموصلي انشد الاصمعي قوله في غضب
المأمون عليه :

يا سرحة الماء قد سدت موارده اما اليك طريق غير مسدود
لحائم حام حتى لا حيام به محلاء عن طريق الماء مطرود
فقال الاصمعي أحسنت في الشعر غير ان هذه الحاءات لو اجتمعت في
آية الكرسي لعابتها •

* * *

قال علي بن هارون ان علي بن الجهم لما ابتداء قصيدته التي مدح فيها
المتوكل :

الله أكبر والنبي محمد والحق ابلج والخليفة جعفر
فقال مروان بن ابي الجنون :

أراد بن جهم ان يقول قصيدة بمدح أمير المؤمنين فاذا
رفقت له لا تعجلن° باقامة فلست على طهر فقال ولا أنا

* * *

* حكى الزبيدي عن منذر بن سعيد الاندلسي ، قال اتيت أبا جعفر النحاس

فى مجلسه بمصر فالفيته يملئ من أخبار الشعراء شعر قيس المجنون :
خليلى هل بالشام عين حزينه تبكى على نجد لعللى اعينها
قد اسلمها الباكون الاحمامه مطوقه باتت وبسات قرينها
فقلت له : ماذا أعزك الله باتا يصنعان ؟ فقال لى وكيف تقول يا اندلسى
فقلت بانى وبان قرينها ، فاعجبه ذلك غير انه حقد على وما زال يستقلنى بعد
ذلك حتى منعنى كتاب العين حينما ذهب الى الاستسناخ من نسخته •

* * *

قال عمارة : قال لى عبدالله بن السمط : علمت ان المأمون لا يبصر
الشعر • فقلت : ومن يبصره ويكون أعلم به منه ؟ • فوالله انك لترانا نشده
أول البيت فيسبقنا الى آخره • قال : أنشدته بيتاً أجدته فلم يتحرك له •
فقلت : وما هو ؟ قال :

(أضحى امام الهدى المأمون مشتغلاً بالدين والناس بالدنيا مشاغيل)
فقلت : ما صنعت شيئاً • وهل زدت على ان جعلته عجوزاً فى محرابها
فى يدها سبحتها ، فمن القائم بامر الدنيا اذا تشاغل عنها ؟ •

وهو المطوق بها ، هلاً قلت كما قال جرير فى عبدالعزيز بن الوليد
فلا هو فى الدنيا مضيع نصيبه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

* * *

الفصل الثامن

الكتب النقدية منذ أواخر القرن الرابع الهجري

كما قد عرفنا في الجزء الأول من هذا الكتاب طائفة من علماء البيان العربي ، من رجال المدارس العلمية والأدبية في المدينة المنورة ، والبصرة ، والكوفة ، وبغداد ، كعيسى بن عمر الثقفي ، وعمرو بن العلاء ، ويونس بن حبيب ، والخليل بن أحمد الفراهيدي ، وعبد الملك بن قريب الأصمعي ، والكسائي ، والفرّاء ، والمفضل الضبي ، وأبي عمرو الشيباني وابن لعرابي ، وابن السكيت ، وأبي حنيفة الدينوري ، وأبي العباس المبرد ، وابن دُرَيْد ، والصولي وأبي فرج الأصبهاني ، وأبي عليّ القالي •

ثم عرفنا علماء آخرين وسعوا دائرة الأبحاث النقدية ، وافوا فيها كمحمد بن سلام الجمحي وكتابه طبقات فحول الشعراء في الجاهلية والإسلام ، وعبدالله بن قتيبة الدينوري وكتابه الشعر والشعراء ، وعبدالله بن المعتز وكتابه البديع ، وقدامة بن جعفر وكتابه نقد الشعر •

ولبلوغ الهدف من هذا المؤلف رأينا ان ننتقل الى لون آخر من ألوان النقد الأدبي ، وتوسع فيه بعض التوسع ، ونطلع على ما هو حَرِيّ بالاطلاع ، وجدير بالمعرفة ، وتحرّى بعض المؤلفات النقدية التي جاءت بعد تلکم المؤلفات السابقة ، ابتغاء ان نعقد الصلة بين علوم السابقين وعلوم اللاحقين ، عسى أن تكون لدينا فكرة صحيحة عن تطور الحياة العقلية والأدبية ، منذ تبلورها حتى زماننا هذا •

١ - الأمدى وكتابه الموازنة

بين أبى تمام والبحترى

هو ابو القاسم الحسن بن بشر الأمدى ولد بالبصرة فى بداية القرن الرابع ونشأ فيها كتاباً ثم سافر الى بغداد فنلقى فيها النحو واللغة عن الاخفش والزجاج وابن دريد وابن السراج واشتغل فيها كتاباً لأبى جعفر هارون بن محمد الضبى ثم رجع الى البصرة وكتب فيها للقاضي أبى جعفر بن عبدالواحد على ديوان الاوقاف وتوفي بالبصرة سنة ٣٧١ هـ . وكان حسن الفهم جيد الدراية والرواية سريع الادراك ، سمع كتاب القوافى لأبى العباس المبرد على نبطويه .

وكان الأمدى شاعراً أيضاً فوجه عنايته الى دراسة اشعار المتقدمين ونقدها فألف :

- ١ - كتابه الموازنة بين أبى تمام والبحترى فى عشرة اجزاء .
- ٢ - كتاب المؤلف والمختلف من اسماء الشعراء والقابهم .
- ٣ - له كتب اخرى لا تحصى ضاع أكثرها .

ان المعلومات التي وصلتنا عن هذا الأديب الكبير قليلة لا تشفى غليلاً . ومع ذلك فان الذين درسوه وجدوا انه من النقاد المولعين بدرس الشعر ونقده . وهو بصورة خاصة مولع بدرس البحترى وأبى تمام وتعقب ماكتبه رجال القرن الثالث عن الشعر والشعراء ويرى الدكتور المرحوم زكى مبارك فى كتابه النشر الفنى ان كتابه (الموازنة بين أبى تمام والبحترى) يضعه فى الصف الاول من الادباء ويقدمه على كثير من الناقدین .

(١) معجم الادباء ج ٨ ص ٧٥ وتاريخ الادب العربى لجرى زيدان ج ٢ ص ١٧٦ .

كتابه الموازنة

اما كتابه الموازنة ، فقد حقق أصوله وعلق على حواشيه وقدم له العلامة محمد محيي الدين عبد الحميد الاستاذ في كلية اللغة العربية بالجامعة الازهرية •

ومما هو جدير بالملاحظة هي تلك الاشارة التي أوردها الاستاذ محيي الدين في خلال مقدمته التي يقول فيها (كان في النية ان احدثك على الاخص عن تحامل الأمدي على ابي تمام واغضائه الاغضاء البالغ عن البحتري) •

تعمدت ذكر هذه العبارة لتكون على بينة من رأي هذا المحقق الجليل فيما سأورده من نقد الأمدي لأبي تمام •

جاء في مقدمة الأمدي ان الذي حدا به الى اجراء هذه الموازنة انه شاهد كثيرا من رواة الاشعار يزعمون ان شعر ابي تمام لا يتعلق بجيده جيد امثاله^(١) ورديته مطروح مبذول • ولهذا كان شعره مختلفا لا يشابه كما وجد من يقول ان شعر الوليد بن عبيد الله البحتري صحيح السبك حسن الديباجة ليس فيه اسفاف ولا ردى ولا مطروح • ولهذا صار مستويا يشبه بعضه بعضا • ووجد جمهوره من الناس يفاضلون بينهما لغزارة شعريهما وكثرة جيدهما وبدائعهما ، ولم يتفقوا على ايهما أشعر ، كما لم يتفقوا على أحد ممن وقع التفضيل بينهم من شعراء الجاهلية والاسلام والمتأخرين • وذلك كمن فضل البحتري ونسبه الى حلاوة النفس وحسن التخلص ووضع الكلام في مواضعه وصحة العبارة وقرب المأني وانكشاف المعاني وهم الكتاب والاعراب والشعراء المطبوعون وأهل البلاغة ، ومثل من فضل ابا تمام

(١) كتاب الموازنة في الصحيفة الاولى من المقدمة •

ونسبه الى غموض المعاني ودقتها وكثرة ما يورده مما يحتاج الى استنباط
 وشرح واستخراج وهؤلاء أهل المعاني واصحاب الصنعة من الشعراء ممن
 يميلون الى التدقيق وفلسفي الكلام الى أن يقول : ولست أحب أن
 اطلق القول بايها اشعر عندى . . . لتباين الناس في العلم واختلاف
 مذاهبهم في الشعر ولا ارى لاحد ان يفعل ذلك فيستهدف لذم احد
 الفريقتين لان الناس لم يتفقوا على اي الاربعة اشعر في امرى القيس
 والنابغة وزهير والاعشى ، ولا في جرير والفرزدق والاخلط ولا في بشار
 ومروان ولا في أبي نواس وابي العتاهية ومسلم لاختلاف آرائهم وتباين
 مذاهبهم .

فان كنت ممن يفضل سهل الكلام وقريبه ويؤثر صحة السبك
 وحسن العبارة وحلو اللفظ وكثرة الماء^(١) والرونق فالبحتري اشعر عندك
 ضرورة . وان كنت تميل الى الصنعة والمعاني الغامضة التي تستخرج
 بالغوص والفكرة ولا تلوى على غير ذلك فأبو تمام عندك اشعر لا محالة .

فما أنا فلست افصح بتفضيل احدهما على الآخر ولكن اقارن بين
 قصيدتين من شعرهما اذا اتفقنا في الوزن والقافية واعرابها وبين معنى ومعنى
 فاقول ايها اشعر في تلك القصيدة وفي ذلك المعنى ثم احكم انت
 حينئذ على جملة ما لكل واحد منهما اذا احطت علما بالجميل والردى .

وبعد هذا التمهيد عقد الامدى مجلس مناظرة بين اديبين ناقدين
 جعل احدهما صاحبا لابي تمام والثاني صاحبا للبحتري واجرى على لسانهما
 كلاما يصف به كل منهما صاحبه بما يرى من فضيلة الشعر ودرايته وفنونه
 واخيلته .

(١) يريدون بذلك حرارة العاطفة واهتمامها . ويريدون بالرونق الوضوح
 والجمال والكلام الرفيع .

وهكذا يتبدى الامدي بذكر ما سمعه من احتجاج كل فرقة من اصحاب هذين الشاعرين على الفرقة الاخرى عند تخصصهم في تفضيل احدهما على الآخر وما ينعاها بعض على بعض •

لنتأمل ذلك ونزداد بصيرة وقوة في حكمنا ان شئنا ان نحكم • ولنعتقد حينئذ ما نعتقد بصحة احتجاج احد الخصمين المتناظرين اذا بان لنا وجه الصواب مما قالوا •

(١) قال صاحب أبي تمام كيف يجوز لقائل ان يقول : ان البحتري اشعر من أبي تمام وعن أبي تمام أخذ وعلى حذوه احتذى ومن معانيه استقى وباراه حتى قيل الطائي الاكبر والطائي الاصغر • واعترف البحتري أن جيد ابي تمام خير من جیده على كثرة جيد ابي تمام ، فهو بهذه الخصال ان يكون اشعر من البحتري اولى من أن يكون البحتري اشعر منه •

(٢) قال صاحب البحتري اما الصحبة فما صحبه ولا تلمذ له ولا روى ذلك أحد عنه ولا نقله ، ولا أرى قط انه محتاج اليه • ودليل هذا الخبر المستفيض من اجتماعهما وتعارفهما عند أبي سعيد محمد بن يوسف الثغري وقد دخل اليه البحتري بقصيدته التي اولها •

(أفاق صب من هوى فأفقسا ام خان عهدا ام اطاع شفيقا)

وابو تمام حاضر ، فلما انشدها علق ابو تمام ابياتا كثيرة منها ••• فلما فرغ من الانشاد اقبل ابو تمام على محمد بن يوسف فقال : أيها الامير ما ظننت أحدا يقدم على ان يسرق شعري وينشده بحضورتي حتى اليوم ، ثم اندفع ينشد ما حفظه حتى اتى على ابيات كثيرة من القصيدة فهبت البحتري ، ورأى ابو تمام الانكار في وجه ابي سعيد فحينئذ قال له ابو تمام أيها الامير والله ما الشعر الا له وانه احسن فيه الاحسان كله ، واقبل

يقرظه ويصف معانيه ويذكر محاسنه ثم جعل يفخر باليمن وانهم ينبوع الشعر ، ولم يقنع من محمد بن يوسف حتى اضعف له الجائزة . فهذا الخبر الشنيع يبطل ما ادعيتم ، اذ كان من يقول هذه القصيدة التي هي من عين شعره وفاخر كلامه وهو لا يعرف أبا تمام الا ان يكون بالخبر يستغنى عن أن يصحبه او يتلمذ له او لغيره في الشعر . وقد اخبرني رجل من اهل الجزيرة يكنى ابا الواح وكان عالما بشعر ابي تمام والبحري واخبارهما ان القصيدة التي سمعها ابو تمام من البحري عند محمد بن يوسف وكان اجتماعهما وتعارفهما القصيدة التي اولها :

(فيم ابتدار كما الملام ولوعا ابكيت إلا دمنة وربوعا)

وانه لما بلغ الى قوله فيها

في منزل ضنك تخال به القنا بين الضلوع اذا انتحين ضلوعا

نهض اليه ابو تمام فقبل ما بين عينيه سرورا به وتحفيا بالطائفة ثم

قال : أبى الله الا ان يكون الشعر يمينا .

(٣) قال صاحب البحري الا انه - مع هذا - لا ينكر ان يكون قد استعار

بعض معاني ابي تمام لقرب البلدين وكثرة ما كان يطرق سمع

البحري من شعر ابي تمام فيعلق شيئا من معانيه معتمدا للاخذ او

غير معتمد . وليس ذلك بمانع من ان يكون البحري اشعر منه .

فهذا كثير قد أخذ من جميل وتلمذ له واستقى من معانيه . فما رأينا

احدا اطلق على كثير ان جميلا اشعر منه - بل هو - عند اهل العلم

بالشعر والرواية - اشعر من جميل ، وهذا ابن سلام الجمحي

ذكره في كتاب الطبقات في الطبقة الثانية من شعراء الاسلام جعله

مع البيهقي والقطامي وذكر انه عند اهل الحجاز خاصة اشعر من

جرير والفرزدق والاخلط . وجعل جميلا في الطبقة السادسة مع

عبدالله بن قيس الرُقَيْيَات والاحوص ونُصَيْب ، الا انه قال : ان جميلاً
يتقدمه في النسب ، وهذا غير مقبول منه ، لانه انما يحكيه عن نفسه ،
وأهل الحجاز انما قدموا كثيراً من أجل نسيه وحسن تصرفه
فيه . وحكي عن جرير انه قال في بعض الروايات كثيراً أنسبنا .
ويدل على تقدمه في النسب قول ابي تمام في قصيدة يمدح بها
أبا سعيد الكاتب .

(من سجايا الطلول ان لا تجييا فصواب من مقلتي ان تصوبا)
(لو يفاجي ركنُ المديح كثيراً بمعانيه خالهن نسييا)
(طاب فيه المديح والتذ حتى فاق وصف الديار والتشييا)

اراد ان كثيرا لو فاجاه هذا المديح - على حسن نسيه - لخاله نسييا .
وخص كثيراً لشهرته بالنسب وبراعته ، واحتمل ضرورة الشعر . ورد
كثيراً الى التكبير فقال كثيراً ولم يقل جميلاً ولا جريراً ولا غيرهما مما
لا ضرورة في اسمه . وعلى ان كثيراً ذكر اسمه مكبراً . اما ضرورة واما
اعتماداً لتفخيم اسمه وان لا يأتي به مُصَغَّراً فقال :

(وقال لي الواشون ويحك انها بغيرك حقاً يا كثير تهيم)
وقد ذكر أبو تمام كثيراً في مواضع آخر فاجاه به مكبراً في قصيدة
يمدح بها الحسن بن وهب ويصفه بالبلاغة وهو قوله :

(فكأن قساً في عكاظ يخطب وكثير عزة يوم بين ينسب)
وذلك لعلم ابي تمام بتقدم كثير في النسب على غيره ، وشهرته بالتجويد
فيه ، على ان جميلاً لا شعر له مما يعتد به الا في النسب والغزل .

قد علمتم الآن ان هذه حالة لا توجب لكم تفضيل ابي تمام على
البحثري من أجل انه أخذ شيئاً من معانيه . واما قول البحثري جده خير
من جدي ورديشي خير من رديته ، فهذا الخبر - ان كان صحيحاً - فهو

للبحثري لا عليه ، لان قوله هذا يدل على ان شعر ابي تمام شديد الاختلاف ،
وشعره شديد الاستواء ، والمستوى الشعر اولى بالتقدمة من المختلف الشعر •
وقد اجتمعنا نحن وانتم - على أن أبا تمام يعلوا علوا حسنا وينحط انحطاطا
قيحا ، وان البحثري يعلو بتوسط ولا يسقط ومن لا يسقط ولا يسفسف
أفضل ممن يسقط ويسفسف •

والذى نرويه عن ابي علي محمد بن العلاء السجستاني - وكان صديق
البحثري - انه قال : سئل البحثري عن نفسه وعن ابي تمام فقال هو أغوص
على المعاني وانا اقوم بعمود الشعر وهذا الخبر هو الذى يعرفه الشاميون دون
غيره •

وسمعت ابا علي محمد بن العلاء أيضا يقول : كان البحثري عند
نفسه أشعر من ابي تمام وسائر الشعراء المحدثين • وكان اذا شرب وانيس
أشد شعره وقال : الا تسمعون ؟ الا تعجبون ؟ قال : وكان - مع هذا -
أحسن الناس أدب نفس لا يذكر شاعراً محسناً او غير محسن الا قرظه
ومدحه وذكر أحسن ما فيه • قال : أبو علي ولم لا يفعل ذلك ؟ وقد اسقط
فى أيامه أكثر من خمسمائة شاعر وذهب بخيرهم وانفرد بأخذ جوائز
الخلفاء والملوك دونهم • فلو لم يفعل ذلك الا استكفافا وحذرا من بيت واحد
يندر فيبقى على الزمان لكان من الحفظ له ان يفعله •

(٤) قال صاحب ابي تمام : فأبو تمام انفرد بمذهب اخترعه وصار فيه
اولا واماما متبوعا وشهر به حتى قيل : هذا مذهب ابي تمام ، وطريقة
ابي تمام وسلك الناس نهجه واتفوا أثره • وهذه فضيلة عري من
مثلها البحثري •

(٥) قال صاحب البحثري : ليس الامر لاختراعه لهذا المذهب على ما
وصفته ولا هو باول فيه ولا سابق اليه ، بل سلك فى ذلك سبيل مسلم

واحتذى جذوه وأفرط وأسرف وزال عن النهج المعروف والسنن
المألوف وعلى ان مسلما ايضا غير مبتدع لهذا المذهب ولا هو اول فيه ،
ولكنه رأى هذه الانواع التي وقع عليها اسم البديع وهي الاستعارة
والطباق والتجنيس منشورة متفرقة في اشعار المتقدمين فقصدها واكثر
في شعره منها وهي في كتاب الله عز وجل موجودة قال تعالى : واشتعل
الرأس شيئا • وقال : واخفض لهما جناح الذل من الرحمة • وقال
امرؤ القيس

فقلت له لما تمطى بجوزه وأردف اعجازا وناء بكلكل

فجعل الليل يتمطى وجعل له أردافا وككلا • وقال زهير :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله وعرّى أفراس الصيا ورواحله
فجعل للهوى افراسا ورواحل •

وقال جلّ وعزّ في التجنيس (واسلمت مع سليمان لله رب العالمين)
(فأقم وجهك للدين القيم) وقال النبي صلى الله عليه وسلم عَصِيَّةَ عصت
الله ورسوله ، وغفار غفر الله لها ، واسلم سالمها الله •

وقال جرير

وما زال معقولا عقلا عن الندى وما زال محبوسا عن المجد حابس

ومن الطباق قوله تعالى (ولكم في القصاص حياة) وقال النبي صلى الله
عليه وسلم انكم لتكثررون عند الفزع وتقلون عند الطمع وقال زهير

(لئب بعشر يصطاد الرجال اذا ما كذب الليث عن أقرانه صدقا)

فطابق بين الصدق والكذب • وقال طفيل الغنوي

(بساهم الوجه لم تقطع ابا جله يسان وهو ليوم الروع مبدول)

فطابق بين قوله يسان وبين قوله مبدول

فتتبع مسلم بن الوليد هذه الانواع واعتدها ووشح شعره بها ووضعها
في موضعها ثم لم يسلم مع ذلك من الطعن ، حتى قيل انه اول من أفسد
الشعر ، ثم اتبعه ابو تمام واحب ان يجعل كل بيت من شعره غير خال من
بعض هذه الاوصاف فسلك طريقا وعرا واستكره الالفاظ والمعاني حتى فسد
شعره وذهبت طلاوته ونشف ماؤه .

وقد حكى عبدالله بن المعتز في كتابه البديع ان بشارا وابا نواس ومسلم
بن الوليد ومن تقيلتهم لم يسبقوا الى هذا الفن . ولكنهم أكثروا في أشعارهم
منه فعرف في زمانهم ، ثم ان الطائي تفرغ فيه وأكثر منه وأحسن في بعض
ذلك وأساء في بعض ، وتلك عقبي الافراط وثمره الاسراف ، قال : وانما
كان الشاعر يقول من هذا الفن البيت والبيتين في القصيدة . وربما قرىء في
شعر احدهم قصائد من غير ان يوجد فيها بيت من البديع . وكان يستحسن
ذلك منهم اذا اتى قدرا . ويزداد حظوة من الكلام المرسل ، وقد كان بعضهم
يشبه الطائي في البديع بصالح بن عبدالقدوس في الامثال . ويقول لو كان
صالح نثر أمثاله في تضاعيف شعره وجعل منها فصولا في أبياته لسبق أهل
زمانه وغلب على ميدانه قال ابن المعتز : وهذا أعدل كلام سمعته .

(٦) قال صاحب البحرى : فقد سقط الآن احتجاجكم باختراع ابي تمام
لهذا المذهب وسبقه إليه وصار استكثاره منه وافراطه فيه من أعظم ذنوبه
وأكبر عيوبه . وحصل للبحرئى انه ما فارق عمود الشعر وطريقته
المعهودة مع ما نجده كثيرا في شعره من الاستعارة والتجنيس والمطابقة
وانفرد بحسن العبارة وحلاوة الالفاظ وصحة المعاني . وحيث وقع
الاجماع على استحسان شعره واستجداته ، وروى شعره واستحسنه
سائر الرواة على طبقاتهم واختلاف مذاهبهم . فمن نفق على الناس
جميعا اولى بالفضيلة وأحق بالتقدمة .

(٧) قال صاحب ابي تمام انما أعرض عن شعر أبي تمام من لم يفهمه لدقة معانيه وقصور فهمه عنه، وفهمه العلماء والنقاد في علم الشعر واذا عرفت هذه الطبقة فضيلته لم يضره طعن من طعن بعدها عليه .

(٨) قال صاحب البحتري ان ابن الاعرابي وأحمد بن يحيى الشيباني وقبلهما دعبل بن علي الخزاعي قد كانوا علماء بالشعر وكلام العرب وقد علمتم مذاهبهم في ابي تمام وازدراءهم بشعره وطعن دعبل عليه . وقولهم أن ثلث شعره محال وثلث مسروق وثلث صالح . وروى أبو عبدالله محمد بن داود بن الجراح في كتاب الشعراء عن محمد بن القاسم عن دعبل انه قال : ما جعله الله من الشعراء بل شعره بالخطب والكلام المشور أشبه منه بالشعر .

وعلى هذا المنوال اجرى الامدي موازته بين الطائين ولا اکتکم اني شعرت من هذه الموازنة بشيء من التحامل على أبي تمام وبشيء من التحيز للبحتري مما لا يخفى على الذين يستقصون هذا الكتاب . وأخيرا أدعو الله تعالى ان يلهمنا صدق القول ويهدينا الى الصواب .

٢ - أبو الحسن الجرجاني

وكتابه الوساطة

هو علي بن عبدالعزيز الجرجاني ، طاف في صباه معاهد العلم في بلده ، واقتبس العلوم والآداب من مشايخ زمانه ، حتى صار حسنة جرجان . وظل أبو الحسن يتقدم في مضممار الرقي الى ان قلّد وظيفة قاضي القضاة في نيسابور وكان الشيخ عبدالقاهر الجرجاني قد قرأ عليه واغترف من بحره ، وكان اذا ذكره في كتبه قال : يخ بخ تنويهاً بفضله واجلالاً لمقامه . ولد سنة ٢٩٠ وتوفي ٣٩٢ هـ .

وكان لأبي الحسن الجرجاني عدة تصانيف منها كتاب تفسير القرآن المجيد وكتاب تهذيب التاريخ وكتاب الوساطة بين المتبني وخصومه . وفي هذا الكتاب يقول أحد شعراء نيسابور :

ايا قاضيا قد دنت كُتُبُه وان أصبحت داره شاحطه (١)
كتاب الوساطة في حسنه لعقد معاليك كالواسطه

وقالوا في سبب تأليفه لكتابه هذا : ان الصاحب بن عباد لما عمل رسالته المعروفة في اظهار مساوي المتبني عمل القاضي أبو الحسن كتاب الوساطة بين المتبني وخصومه ، فأحسن وأبدع وأطال وأطاب ، وأصاب (٢) شاكلة الصواب ، واستولى على الامد في فصل الخطاب وأعرب عن تبحره في الادب وعلم العرب ، وتمكنه من جودة الحفظ وقوة النقد ، فسار الكتاب مسير الرياح ، وطار في البلاد بغير جناح .

جاء في تقديم الطبعة الاولى لكتاب الوساطة ان ابا الحسن الجرجاني

(١) كتاب معجم الادباء ج ١٤ ص ٢٤ .

(٢) وجه الصواب .

قد اشتهر بالفقه وترجم له الشيرازي في طبقات الفقهاء وفسر القرآن الكريم . وذكره السيوطي في طبقات المفسرين واشتغل بالتاريخ وله فيه آثار . ثم هو شاعر متقن وكاتب مترسل وناقد لودعي بصير .

كتاب الوساطة

اما كتابه الوساطة فهو كتاب نقد أدبي ، مشتمل على مقدمة طويلة ، تكلم فيها الجرجاني عن أغلاط الشعراء في الجاهلية ، وعن تأثير الطباع والامكنة في رقة الشعر وجفائه ، وانتقل الى الكلام عن أبي تمام والبحثري وجرير وابي نواس ، فذكر ما لهم من المحاسن وما عليهم من العيوب .

وقد حذاه هذا الاستطراد الى البحث عن الاستعارة والجناس والتصحيف والتقسيم ، ثم أخذ في الحديث عن المتنبي ، فذكر السخيف والمعقد من شعره ، وتكلم عن تخلصه ومطالعه ، واعتذاره وفلسفته ، وسرقته الشعرية ، وما انكر العلماء عليه وما قيل في الاعتذار عنه ، وقد ساقته هذه الابحاث الى الكلام عن التشبيه واختلاف الناس في التشبيهات وتفاوت الشعراء في صوغ اللفظ والمعنى ، واختلافهم في أخذ الالفاظ والمعاني ، الى غير ذلك مما كان يوجهه الانس بالاستطراد عند المتقدمين (١) .

ولقد ذكر الذين حققوا كتاب الوساطة : ان النقد في القرن الرابع الهجري بلغ اوجه ، واختمى من حلته اللغويون والنحاة ، وحمل رايته الادباء ، يتميز نقدهم باستقصاء البحث ، وشمول الفكرة ، وتوضيح العلل ، والموازنة العامة بين الشعراء ، وعنوا بدراسة الشعر وتقدير رجاله ، وتخاصموا فيهم ، فهذا ينتصر لابي تمام ، وذاك يتشيع للبحثري ، وهؤلاء يرفعون من مقدار المتنبي ، وينسبون اليه كل فضيلة في الشعر ، واولئك

(١) كتاب النثر الفني ج ٢ ص ١٨ لمؤلفه الدكتور زكي مبارك .

ينتقصون منه ٣ ويرمونه بالتعقيد والمعاظلة^(٢) والالتواء ، وعمرت باحاديثهم
مجالس الادب ، وسارت مقالاتهم وكتبهم في كل صقع وواد . من هؤلاء
أبو الفرج الاصفهاني وابن العميد والصاحب بن عباد وأبو علي الحاتمي
وأبو الحسن بن لنكك البصري والآمدي والجرجاني . الا ان ابا الحسن
الجرجاني كان أصرحهم نقدا واوسعهم افقا وأشملهم بحثا .

ذكرت ان مقدمة كتاب الوساطة كانت طويلة احتوت على قيم نقدية
ثمينة دلت على طول باعه في فنون الادب ، وعلى كثرة حفظه لشعر العرب ،
وعلى قوة ذكائه في جلاء الشكوك والريب ، تناولت موضوعات جديدة
بالاعتبار ، يبدأها بأغاليط الشعراء ثم يأخذ بشرح حد الشعر ومقوماته ،
كالطبع والرواية والذكاء ، وأثر البداوة والتحضر فيه ، ثم يذكر السهل
المنتع من شعر البحري ، والعذب من شعر جرير ، ومعنى الحشو في
الشعر ، والفرق بين التشبيه والاستعارة والتجنيس المطلق والمستوفى ،
والمطابقة والاستهلاك والتخلص والخاتمة . وبعد ذلك يبدأ بما استهدفه
كتاب الوساطة فيقول :

ثم نعدل الى ما تكلفناه من هذه الوساطة فنقول : ان خصم هذا الرجل
(يعني المنتبي) فريقان : احدهما يعم^٢ بالنقص كل مُحَدَّث ، ولا يرى الشعر الا
القديم الجاهلي ، وما سُلِكَ به ذلك المنهج ، وأُجْرِيَ على تلك الطريقة ، ويزعم
ان ساقه الشعراء رؤبة ، وابن هرمة وابن ميادة ، والحكم الخضري فاذا انتهى
الى من بعدهم كبشار وابي نواس وطبقتهم سمي شعرهم مُلْحَا وطُرْفَا
واستحسن منه البيت استحسان النادرة ، واجراه مجرى الفكاهة ، فاذا نزلت
به الى ابي تمام وأضرابه نفض يده ، وأقسم واجتهد ان القوم لم يقرضوا
بيتا قط ، ولم يقعوا من الشعر الا بالبعد .

(٢) المعاظلة تعقيد الكلام . يقال عاظل الكلام عقده ووالى بعضه فوق
بعض وكرره .

ومن كان هذا رأيه ومذهبه وهذه دعواه ونحلته فقد اعطاك ما اردت
من وجه وان مانعك سواء وسمح لك بما التمسست ، وان التوى عليك في غيره
لان الذي انتصبت له وشغلت عنايتك به الحاق ابي الطيب بهذه الطبقة و اضافته
الى هذه الجملة ، وقد بذل ذلك وقرب مطلبه عليك • فان تكن الجماعة
منسلخة من الشعر موسومة بالنقص مستحقة للنفي فصاحبك اولهم وان تكن
قد علفت منه بسبب وحظيت منه بطائل وكان له فيه قدم ومنه حظ وموقع فهو
كاحدهم •

وليس الحكم بين القدماء والمولدين من التوسط بين المحدث والمحدث
بسييل كما لا نسب بينه وبين تفضيل قديم على قديم وانما يستعيب لك هذه
المخاطبة من وافقتك على فضل ابي تمام وحزبه وسلم محل مسلم ومن بعده
فتجعل هؤلاء شهودك وحجيجك وتقيم شعرهم حكما بينه وبينك ، فانك
لا تدعى لابي الطيب طريقة بشار و ابي نواس • ولا منهاج أشجع والخريمي
ولو ادعيته ، فانما كنت تخادع نفسك او تباغت (١) عقلك ، وانما انت أحد
رجلين : اما ان تدعى له الصنعة المحضنة فتلحقه بابي تمام وتجعله من حزبه ،
او تدعى له فيه شركاً ، وفي الطبع حظاً ، فان مِلتَ به نحو الصنعة فضل
ميل صيرته في جنبه مسلم وان وفرت قسطه من الطبع عدلت به قليلا نحو
البحثري •

وانا أرى لك اذا كنت متوخيا للعدل ، مؤثرا للانصاف ، ان تقسم شعره
فتجعله في الصدر الاول تابعا لابي تمام وفيما بعد واسطة بينه وبين مسلم •

وما أكثر من ترى وتسمع من حفاظ اللغة ومن جلة الرواة من يلهج
بعب المتأخرين فان احدهم ينشد البيت فيستحسنه ، ويستجيده ، ويعجب

(١) باهته استقبله بأمر لا يعلمه وهو منه برىء فيبهت منه •

منه ، ويختاره ، فإذا نسب الى بعض أهل عصره وشعراء زمانه كذب نفسه ،
ونقض قوله ، ورأى تلك الغضاضة أهون محملا ، وأقل مرزأة ، من تسليم
فضيلة لمحدث ، والاقرار بالاحسان لمولد .

حكى عن اسحاق الموصلي انه قال : انشدت الاصمعي :

هل الى نظرة اليك سيبيل فييل الصدى ويشفي الغليل
ان ما قلّ منك يكسر عندي وكبير ممن تحب القليل

فقال والله هذا الديباج الخسرواني . لمن تنشدي ؟ فقلت انهما ليلتهما
فقال لا جرم والله ان أثر التكلف فيهما ظاهر .

ثم ينحو أبو الحسن الجرجاني باللائمة على الذين يتعاملون من
النقاد فيقول : ولو انصف أصحابنا هؤلاء لوجد يسيرهم أحق بالاستنكار ،
وصغيرهم أولى بالاكبار ، لان أحدهم يقف محصورا بين لفظ قد ضيق مجاله
وحذف أكثره ، وقل عدده وحظر معظمه ، ومعان قد أخذ عفوها ، وسبق
الى جيدها ، فأفكاره تثبت في كل وجه ، وخواطره تستفتح كل باب ، فان
وافق بعض ما قيل ، او اجتاز منه بابتعد طرف ، قيل سرق بيت فلان ، وأغار
على قول فلان . ولعل ذلك البيت لم يقرع قط سمعه ، ولا مرّ بخلدّه
كأن التوارد عندهم ممتنع ، واتفاق الهواجس غير ممكن . وان افترع معنى
بكرا ، أو افتح طريقا مبهما ، لم يرض منه الا باعذب لفظ ، وأقربه ، من
القلب والذّة في السمع . فان دعاه حب الاغراب وشهوة التفوق الى تزيين
شعره ، وتحسين كلامه ، فوشحه بشيء من البديع وحلاه ببعض الاستعارة
قيل : هذا ظاهر التكلف بين التعسف ناشف الماء قليل الرونق ، وان قال ما
سمحت به النفس ورضى به الهاجس قيل لفظ فارغ وكلام غسيل^(١)

(١) الماء الذي غسل به .

فاحسانه يتأول ، وعبوبه تمحل ، وزلته تضاعف ، وعذره يكذب ، فلا
تشتغلن بهذه الطائفة ما دمت تنظر بين المثني وأهل عصره . واخر المنازعة
في هذا الرأي ، وان كان الخلاف الاكبر فان لكل مقام مقالا . وانما خصمك
الالد ، ومخالفك المعاند ، الذي حمدت لمحاكمته ، وابتدأت بمنازعة ،
ومحاجته ، من استحسنت رأيك في انصاف شاعر ثم الزمك الحيف على غيره
، وساعدك على تقديم رجل ، ثم كلفك تخير مثله فهو يسابقك الى مدح ابي
تمام والبحثري ، ويسول لك تقريظ ابن المعتز وابن الرومي ، حتى اذا
ذكرت أبا الطيب المتنبى ببعض فضائله واسميته في عداد من يقصر عن رتبته ،
امتعض امتعاض الموتور ، ونفر نفار المضميم ففض طرفه ، وثني عطفه ،
وصعّر خده وأخذته العزة بالاثم وكانما زوى عينيه عليك المحاجم .

وأقبل عليك أيها الراوي المتعجب فأقول لك : خبرني عن تعظمه من
أوائل الشعراء ، ومن تفتح به طبقات المحدثين . هل خلص لك شعر أحدهم
من شائبة ، وصفا من كدر ومعاية ، فان ادعت ذلك وجدت العيان حجيجك ،
والمشاهدة خصمك ، وعدنا بك الى أضعاف ما صدرنا به مخاطبتك واستعرضنا
الدواوين فاريناك فيها ما يحول بينك وبين دعواك ويحجزك ان كان بك
أدنى مسكة من قولك . فان قلت : قد اعثر بالبيت بعد البيت انكره واجد
اللفظ بعد اللفظ لا استحسنته . وليس كل معانيهم عندي مرضية ولا جميع
مقاصدهم صحيحة مستقيمة . قلنا لك قابو الطيب واحد من الجملة فكيف
خص بالظلم من بينها ، ورجل من الجماعة فلم أفرد بالحيف دونها ؟ فان
قلت كثر زاله ، وقل احسانه ، واتسعت معانيه ، وضافت محاسنه ، قلنا هذا
ديوانه حاضرا وشعره موجودا ممكنا . هلم نستقرئه ونصفحه ونقلبه
ونمتحنه . ثم لك بكل سيئة عشر حسنات وبكل نقيصة عشر فضائل . فاذا
اكملنا لك ذلك واستوفيته وقادك الاضطرار الى القبول او البهت ووقفت بين

التسليم والعناد عدنا بك الى بقية شعره فحاججناك به والى ما فضل بعد المقاصة
فحاكمناك اليه •

وقد نجد كثيرا من أصحابك ينتحل تفضيل ابن الرومي ويغلو في
تقديمه ونحن نستقرى القصيدة من شعره وهي تناهز المئة أو تربوا أو تضعف
فلا نعر فيها الا بالبيت الذى يروق او البيتين ثم قد تنسلخ قصائد منه ، وهي
واقفة تحت ظلها ، جارية على رسلها ، لا يحصل منها السامع الا على عدد من
القوافي ، وانتظار الفراغ • وانت لا تجد لابي الطيب قصيدة تخلو من أبيات
تختار ، ومعان تستفاد ، وألفاظ تروق وتعذب ، وابداع يدل على الفطنة
والذكاء ، وتصرف لا يصدر الا عن غزارة واقدار ، وهكذا يستمر كتاب
الوساطة فى استعراض قضايا أدبية كثيرة فيتحدث عن تفاوت شعر ابي نواس
فى الانحطاط والارتفاع والمنقى منه والمختار وعن تفاوت شعر ابي تمام
فيذكر الجيدَ والرديء من شعره •

ثم يقول الجرجاني وانما خصصت ابا نواس و ابا تمام لاجمع لك بين
سيدي المطبوعين وامامي أهل الصنعة واريك ان فضلها لم يحمها من زلل ،
واحسانها لم يصف من كدر ، فان انصفت فلك فيهما عبرة ومقنع ، وان
لججت فما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون •

وبعد هذا الاستعراض الخارج عن صدد موضوع الوساطة فى ظاهر
الحال يتناول شعر المتنبي فيقتبس منه ما أخذه عليه الحاسدون له الحاقدون
عليه ثم يتبعه بفرر من قصائد المتنبي التي سارت فى الناس مسيرَ الشمس
على الارض •

ثم يتحدث صاحب الوساطة عن السرقات الشعرية وعن بيان ادعاء
السرقة فى شعر البحري و ابي نواس و ابي تمام و المتنبي حتى اذا أشبع
الموضوع بحثا وتمثيلا تكلم عن مواقع الكلام وأثره فى النفوس فيقول :

ان امر مواقع الكلام امر تُسْتَخْبِر به النفوس المهذبة وتُسْتَشْهَد
عليه الازهان المُتَقَفَّة • وانما الكلام أصوات ، محلها من الاسماع محل
النواظر من الابصار •

وانت قد ترى الصورة تستكمل شرائط الحسن ، وتستوفي اوصاف
الكمال ، وتذهب في الانفس كل مذهب ، وتقف من التمام بكل طريق ، ثم
تجد اخرى دونها في انتظام المحاسن ، والتمام الخلقية ، وتناصف الاجزاء ،
وتقابل الاجسام ، وهي أحظى بالحلاوة ، وأدنى الى القبول ، وعلق
بالنفس ، واسرع ممازجة للقلب ، ثم لا تعلم (وان قاسيتَ واعتبرتَ ،
ونظرتَ وفكرتَ) ، لهذه المزية سببا ولما خصت به مقتضيا •

ثم يأخذ في الدفاع عن ابي الطيب باسلوب بارع لطيف ، فلا يستخف
بالناقد ، ولا ينزله منزلة الجاهل ، فيقول :

وقد تفقدت ما انكره اصحابك من هذا الديوان فوجدته اصنافا منها
الفاظ نسبت الى اللحن في الاعراب وادئعى فيها الخروج عن اللغة ، ومعان
وُصِفَتْ بالفساد والاحالة ، وبالاختلال والتناقض ، واستهلاك المعنى •
واخرى اُنكِرَ منها التقصير عن الغرض ، والوقوع دون القصد • وأَعْيَبُ
ما فيها ما عَيَّيَهُ من باب التعقيد والعويص^(١) ، واستهلاك المعنى ، وغموض
المراد • ومن جهة بُعد الاستعارة ، والافراط في الصنعة • ثم يقول :
وقد حكيت من كل باب منها ما علقته من كلام أصحابك وما قابلهم به
خصومك ، ورأيت السلامة في ان اقتصر من هذه الوساطة على حسن
التبليغ ، وتقريب العبارة ، وجمع المتفرق ، ثم أوقف منكما حَجْزَةً واخرج
عنكما صفرا قد أدّيت عن كل فريق ما تحملته وسلّمت من الميل فيما
تكلفته •

(١) والعويص من الشعر : ما يصعب استخراج معناه •

وكما لا أحكم على خصمك بالخطأ في كل ما يذكره ، فكذلك لا
أبعدك من الصواب في أكثر ما تصفه • وجملة القول في الابيات المنقودة
وإشباهاها ، انه لو وقفي فيها التهذيب حقه ، ولم يبخص التتقيف شرطه ،
لا نقطعت عنها السن العيب ، وانسدت دونها طرق الطعن ، ولدخلت في
جملة أخواتها ، ولجرت مجرى اغيارها ، ولاستغنت عن تكلف البحث
والتنقير ، واستغنى خصمك عن تمحل الحجج والمعاذير ، لكننا لم نجد
شاعراً اشمل للاحسان ، والاصابة ، والتنقيح ، والاجادة ، كشعره أجمع •
بل قلما تجد ذلك في القصيدة الواحدة ، والخطبة الفردة • ولا بد لكل
صانع من فترة ، والخاطر لا تستمر به الاوقات على حال ، ولا يدوم في
الاحوال على نهج • وقد قدمنا لك من شعر ابي نواس وابي تمام وغيرهما
ما مهدنا به الطريق الى هذا القول • وأقمنا علماً يرجع اليه في هذا
الحكم ، واعلمناك انه ليس بغيتنا الشهادة لابي الطيب بالعصمة ، ولا مرادنا
ان نبرئه من مفارقة زلة ، وان غايتنا ان نلحقه باهل طبقة ، ولا نقصر به
عن رتبته ، وان نجعله رجلاً من فحول الشعراء ، ونمنعك عن احباط حسناته
بسيئاته ، ولا نسوغ لك التحامل على تقدمه في الاكثر بتقصيره في الاقل ،
والغض من عام تبريزه بخاص تعذيره •

ثم يتحدث الجرجاني عن الغلو فيقول : فاما الافراط فمذهب في
المحدثين وموجود عند كثير من الاوائل • والناس فيه مختلفون فمستحسن
قابل ومستقبح رادّ وله رسوم متى وقف الشاعر عندها ولم يتجاوز الوصف
حدها جمع بين القصد والاستيفاء وسلم من النقص والاعتداء فاذا تجاوزها
اتسعت له العناية وادته الحال الى الاحالة ، وانما الاحالة نتيجة الافراط وشعبة
من الاغراق والباب واحد ولكن له درج ومراتب •

وعلى هذا النهج تكلم عن الافراط في الاستعارة وبين قبحه حين يخرج

الشاعر بالاستعارة عن حد الاستعمال والعادة •

واخيراً ينتهي المطاف بابي حسن الجرجاني في دفاعه عن ابي الطيب
وتصديه لما أخذ العلماء عليه فيذكر الاشعار التي انكرها بعضهم وبين الوجوه
التي عابوها فيردها رداً جميلاً مبيناً صحتها وسلامتها وجريها على سمة ما جرى
عليه فحول شعراء العربية الذين سبقوا ابا الطيب •

وبهذا الباب يختم الجرجاني رسالته الوساطة بين المتنبى وخصومه
واني لا اعترف ان تقريرى هذا عن كتاب الوساطة تقرير موجز الى حد كبير
لذلك انصح القارىء الكريم ان لا يكتفي به بل ارجو ان يطلب المزيد من
كتاب الوساطة نفسه • اما سبب هذا الايجاز فالعذر فيه واضح جلي ذلك ان
بحثى هذا ليس خاصاً بموضوع الوساطة وانما هو بحث مقيد بمنهج يتناول
حوالى ثلاثين ناقداً من الاقدمين والمحدثين والله ولي التوفيق •

أبو هلال العسكري

وكتابه الصناعتين

هو ابو الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري نسبة الى عسكر مكرم .
وهي مدينة من كور الاهواز ، اختطها مكرم الباهلي (١) . وقد تلقى
العسكري العلم في بغداد والبصرة واصبهان (٢) ، وتوفي سنة ٣٩٥ هـ .

كان أبو هلال شخصية قوية جذابة لها أثرها العظيم في اللغة العربية .
وكان أبي النفس قوي القلب ، يترفع عن الدنيا ، وينأى بنفسه عما يرتطم
فيه ادعياء الادب من كسب العيش عن طريق التزلف الى الامراء والرؤساء .
وكان يتسجر في الثياب احترازا من الفاقة والدناءة والتبذل (٣) . ولكنه كان
قوي الشعور بأن تلك مهنة لا تليق به ولا بأدبه اليس هو القائل :

جلوسي في سوق أبيع واشتري دليل على أن الانام قرود
ولا خير في قوم يذل كرامهم ويعظم فيهم نذلهم ويسود
ويهجوهمو عني رثاءة كسوتي هجاء قبيحاً ما عليه مزيد

الظاهر ان قوة شعوره بالحال التي هو فيها واعتزازه بأدبه وطموحه
الى المعالي ثم رؤيته لتمتع غيره بالجاه والثراء والسلطان ممن لا يدانيه في
ادبه وعلمه . كل ذلك جعله برما بالحياة والناس وجعله يكثر في شعره
من وصف هذا السخط المحتدم في نفسه :

اذا كان مالي مال من يلقط العجم وحالي فيكم حال من حاك أو حجم

(١) وفيات الاعيان لابن خلكان ، ص ٢٣٥ ج ١ .

(٢) تاريخ الادب العربي لجرجي زيدان ، ج ٢ ، ص ٢٨٣ .

(٣) النشر الفني للمرحوم زكي مبارك ، ج ٢ ص ٩٦ . قرأت في هامش
الجزء الثاني من

فاين انتفاعي بالاصالة والحجى
وما ربحت كفي من العلم والحكم
ومن ذا الذي فى الناس بصر حالتي
فلا يلعن القرطاس والحبر والقلم

* * *

ومن جميل ما يُروى لابي هلال وصفه لكهولته ومشيبه ولما ينتظره من
ضعف وسقام :

قد تخطاك شباب
فانى ما ليس يمضى
فتأهب لسقام -
لا توهمه بعيدا
وتغشاك مشيب
ومضى ما لا يثوب
ليس يشفيه طيب
انما الآتي قريب

* * *

كتاب الصناعتين

في الكتابة والشعر

هذا الكتاب من تصنيف ابي هلال والذي دعاه الى تأليفه امور :

اولا - جلالة علم البلاغة والفصاحة ، الهادى الى معرفة اعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف ، وبراعة التركيب ، وما شحنه به من الايجاز البديع ، والاختصار اللطيف ، وضمنه من الحلاوة ، وجمله من رونق الطلاوة ، مع سهولة كلمه وجزالتها ، وعذوبتها وسلاستها ، وما الى ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها وتحيرت عقولهم فيها .

ثانيا - جنوح بعض الاعلام الى الكلام الردى المرذول، وتركهم الجيد المقبول ، ظننا منهم الى ان التقعر في الكلام ، واستعمال الوحش العكر ، يرفع صاحبه الى مقام الخواص من الرجال .

ثالثا - معرفة بعض الكتب المشتملة على الفصول الشريفة ، والفقر اللطيفة، والخطب الرائعة ، والاخبار البارعة ، وما نبهت اليه من مقادير اصحابها في البلاغة والخطابة ، وما كشفته عنهم من علم غزير ، وباع طويل ، في معرفة حسن البيان ، وجمال الكلام ، غير انهم جعلوا كل ذلك مبهوثا في تضاعيف تلك الكتب ، ومنتشرا فيها انتشار الازهار بين الادغال ، مما حمله على تنسيقها ونظمها في كتاب الصناعتين بشكل يجمع شتات تلك الازهار ويوحّد بين هاتيك الثمار ، من غير تقصير واخلال ، واسهاب واهذار .

وقد جعله في عشرة ابواب ، مشتملة على ثلاثة وخمسين فصلا ، وجعل :

الباب الاول : في الابانة عن موضوع البلاغة في أصل اللغة وما يجرى معه من تصرف .

- الباب الثاني : في تمييز الكلام جيده من رديئه ومحموده من مذمومه .
- الباب الثالث : في معرفة صنعة الكلام .
- الباب الرابع : في البيان عن حسن السبك وجودة الوصف .
- الباب الخامس : في ذكر الايجاز والاطناب .
- الباب السادس : في حسن الاخذ وقبحه ، وجودته وردائه .
- الباب السابع : القول في التشبيه .
- الباب الثامن : في ذكر السجع والازدواج .
- الباب التاسع : في شرح البديع والابانة عن وجوهه وفنونه .
- الباب العاشر : في ذكر مقاطع الكلام ومبادئه ، والقول في الاساءة في ذلك والاحسان فيه .

ثم يعود يشرح معنى البلاغة فيقول :

البلاغة مأخوذة من قولهم بلغت الغاية اذا انتهيت اليها . وسميت البلاغة بلاغة لانها تنهي المعنى الى قلب السامع فيفهمه والبلاغ ايضا التبليغ في قوله تعالى : « هذا بلاغ للناس » .

اما الفصاحة فمأخوذة من قولهم أفصح فلان عما في نفسه اذا أظهره . بدليل قول العرب أفصح الصبح اذا اضاء وأفصح اللبن اذا انجلت عنه رغوته وقال بعض العلماء الفصاحة تمام آلة البيان . فعلى هذا تكون الفصاحة والبلاغة مختلفتين . وذلك ان الفصاحة مقصورة على اللفظ لأن الآلة تتعلق باللفظ دون المعنى . والبلاغة انما هي انتهاء المعنى الى القلب فكأنها مقصورة على المعنى .

ويجوز مع هذا أن يسمى الكلام الواحد فصيحاً بليغاً ، اذا كان واضح المعنى ، سهل اللفظ ، جيد السبك ، غير مستكره فيج ، ولا متكلف وخم ، ولا يمنعه من أحد الاسمين شيء ، لما فيه من ايضاح المعنى ، وتقويم الحروف .

ويقول العسكري شهدت قوما يذهبون الى ان الكلام لا يسمى فصيحاً حتى يجمع مع هذه النعوت فخامةً وشدة جزالة ، فيكون مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم « الا ان هذا الدين متين ، فأوغل فيه برفق فان المنبت لا ارضا قطع ، ولا ظهرا ابقى » ، ومثل كلام الحسين بن علي رضي الله عنهما : (ان الناس عبيد الاموال ، والدين لغو على سنتهم ، يحوطونه مآدرت به معاشهم ، فاذا مُحِّصُوا بالابتلاء قل الديانون) .

وقالوا اذا كان الكلام يجمع نعوت الجودة ولم يكن فيه فخامة ، وفضل جزالة ، سُميَ بليغاً ، ولم يسم فصيحاً ، كقول بعضهم وقد سئل عن حاله عند الوفاة فقال : ما حال من يريد سفراً بعيداً بلا زاد ، ويقدم على ملك عادل بغير حجة ، ويسكن قبراً موحشاً بلا انيس . وكقول الآخر لأخ له : (مددت اليّ المودة فشكرناك وشفت ذلك بشيء من الجفاء فعذرناك ، والرجوع الى محمود الود ، اولى بك من المقام على مكروه الصد) .

ثم يأتي بيتين لابراهيم ابن العباس :

تمر الصبا صفحا بساكنة الغضا ويصدع قلبي ان يهب هبوبها
قريبة عهد بالحبيب وانما هوى كل نفس حيث حلّ حبيبها

فيقول ان البيت الاول فصيح وبليغ ، واما البيت الثاني فانه بليغ وليس بفصيح ، واستدل على صحة هذا المذهب بقول العاص بن عدي (الشجاعة قلب ركين ، والفصاحة لسان رزين) واللسان ها هنا معناه الكلام والرزين معناه الذي فيه فخامة وجزالة .

ولما انتهى العسكري الى تعريف البلاغة تعريفاً علمياً قال البلاغة ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه لتمكنه في نفسك ، مع صورة مقبولة ، ومعرض حسن ، ثم قال : وانما جعلنا حسن المعرض وقبول الصورة شرطاً في البلاغة ، لأن الكلام اذا كانت عبارته رثة ومعرضه خليفاً

لم يسم بليغا وان كان مفهوم المعنى ، مكشوف المغزى • ولو كان الامر غير ذلك للزم أن يكون كل الناس بلغاء ، حتى الاطفال ، لأن كل واحد لا يعدم ان يدل على غرضه بعجمته ، أو لكتته ، أو ايمائه أو اشارته ، بل لزم أن يكون السنور بليغا لانا نستدل بضغائه^(١) وصياحه ، على كثير من ارادته ، وهذا ظاهر الاحالة • ثم اننا نفهم رطانة^(٢) السوقي ومجمجة^(٣) الاعجمي ، للعادة التي جرت لنا في سماعها ، لا لأن تلك بلاغة ، الا ترى ان الاعرابي ان سمع ذلك لم يفهمه ، اذ لا عادة له بسماعه وأراد رجل ان يسأل بعض الاعراب عن اهله : فقال كيف اهليك فقال له الاعرابي صلبا اذ لم يشك انه انما يسأله عن السبب الذي يهلك به ويموت • وقال الوليد بن عبد الملك لاعرابي شكك اليه خنتا له فقال من خنتك ففتح النون ؟ فقال معذّر في الحي اذ لم يشك في انه انما يسأله عن خنته •

ثم قل : ان اول البلاغة اجتماع آلة البلاغة ، واول آلات البلاغة جودة القريحة ، وطلاقة اللسان ، وذلك من فعل الله تعالى ، لا يقدر العبد على اكتسابه لنفسه ، واجتلابه لها • ومن الناس من اذا خلا بنفسه واعمل فكره آتى بالبيان العجيب والكلام البديع المصيب واستخرج المعنى الرائق وجاء باللفظ الرائع واذا حاور أو ناظر قصر وتأخر فحق هذا الا يتعرض لارتجال الخطب وان لا يجارى اصحاب البدهاة في ميدان القريض ويكتفي بتاج فكره •

والناس في صناعة الكلام على طبقات :

-
- (١) الضغاء من السنور أي الهر صياحه ، ذكره في القاموس وقال الثعالبي في فقه اللغة (الضغاء للكلب اذا جاع) •
(٢) الرطانة بفتح الراء وكسرهما الكلام بالاعجمية •
(٣) المجمجة عدم التبين فيما يخبر به •

منهم من اذا حاورَ وناظرَ ابلغَ وأجادَ واذا كتبَ وأملَى أخلَّ
وتخلفَ •

ومنهم من اذا أملَى برزَ واذا حاورَ أو كتبَ قصرَ •

ومنهم من اذا كتبَ احسنَ واذا حاورَ واملَى اساءَ •

ومنهم من يحسن في جميع هذه الحالات •

ومنهم من يسيء فيها كلها •

فأحسن حالات المسيء الامسك ، واحسن حالات المحسن التوسط •

فان الاكثر يورث الملال وقلما ينجو صاحبه من الزلل والعيب والخطل •

وهكذا يجرى العسكرى في تبيان وجوه البلاغة ، وضرب الامثلة

البليغة شعرا ونثرا حتى يأتي الى الفصل الاول من الباب الثاني ، المتضمن

تميز الكلام الجيد من رديئه ، ونادره من بارده • وعنده ان الكلام يحسن

بسلاسته ، وسهولته ، ونصاعته ، وتخير لفظه ، واصابة معناه ، وجودة

مطالعه ، ولين مقاطعه ، واستواء تقاسيمه ، وتعادل أطرافه ، وتشبه اعجازه

بهواديه ، وموافقة مآخيره لمبادئه ، مع قلة ضروراته ، بل عدمها اصلا ،

حتى لا يكون لها في الالفاظ أثر ، فتجد المنظوم مثل المنثور ، في سهولة

مطلعه ، وجودة منطقته ، وحسن رصفه ، وتأليفه ، وكمال صوغه وتركيبه ،

فاذا كان الكلام كذلك كان بالقبول حقيقا ، وبالتحفظ خليقا كقول الاول :

هم الاولى وهبوا للمجد انفسهم فما يبالون ما نالوا اذا حمِدوا

وكقول معن بن اوس :

لعمرك ما أهويت كفى لريبة ولا حملتني نحو فاحشة رجلي

ولا قادنني سمعي ولا بصري لها ولا دلّني رأيي عليها ولا عقلي

واعلم اني لم تصبني مصيبة من الدهر الا قد اصاب فتى قبلي

ولست بمأش ما حيت لشكر من الامر لا يمشي الى مثله مثلي

ولا مؤثرٍ نفسي على ذي قرابة
وأوثيرٍ ضيِّفي ما أقام على أهلي
وكقول الشنفرى :

اطيل مطال الجوع حتى أميته
ولولا اجتناب الذام لم يلف مشرب
ولكن نفسا حرة لا تقيم بي
على الضيم الا ريثما أتحوّل

ثم يقول اذا كان الكلام لفظه حلواً عذبا ، وسلسا سهلا ، ومعناه
وسطا ، دخل فى جملة الجيد ، وجرى مع الشعر الرائع ، كقول الشاعر :

ولما قضينا من منى كل حاجة
وشدّت على حذب المهارى رحالنا
اخذنا باطراف الاحاديث بيننا
وسالت باعناق المطى الاباطح
ومسح بالاركان من هو مسح
ولم ينظر الغادي الذى هو رايح

وليس تحت هذه الالفاظ كبير معنى وهي رائقة معجبة (وهي ولما
قضينا الحج ومسحنا الاركان ، وشدت رحالنا على مهازيل الابل ، ولم ينظر
بعضنا بعضا ، جعلنا نتحدث وتسير بنا الابل فى بطون الاودية) •

واذا كان المعنى صوابا ، واللفظ باردا ، وفاترا ، والقاتر شر من
البارد ، كان مستهجنًا ملفوظا ومذموما مردودا والبارد من الشعر قول
الفند الزمانى :

ايا تملك يا تمل
ذريني وذري عذلي
وذات الطوق والحجل
فان العذل كالقتل

وقول الآخر :

اما والحلق الود على سالفه الخشف
وحسن الغصن المهة ز بين النحر والردف
لقد اشفت ان يجبر ح فى وجنتها طرفي

ثم يقول العسكري : اذا كان الشعر لفظه سهلاً ومعناه مكشوفاً بيّناً
فانه يدخل في جملة الرديء المردود ، ويستشهد بقول احدهم :

يا رب قد قلّ صبري وضاق بالحُبّ صدري
واشدّ شوقي ووجدي وسيدي ليس يدري
مغفل عن عذابي وليس يرحم ضري
وكقول ابي العتاهية :

مات والله سعيد بن وهب رحم الله سعيد بن وهب

ثم يقول ومن الكلام المطبوع السهل ، ما وقع به علي بن عيسى :
قد بلغتك اقصى طلبتك وانلتك غاية بغيتك وانت مع ذلك تستقل كثيري
لك وتستقبح حسني فيك فانك كما قال رؤية :

كالحوت لا يكفيه شيء يلهمه يصبح ظمان وفي البحر فمه

ومن المنظوم الممتع قول البحري :

ايها العاتب الذي ليس يرضى نم هنيئاً فليست اطعم غمضاً
ان لي في هواك وجداً قد استه ملك نومي ومضجعي قد اقضاً
فجفوني في عبرة ليس ترقى وفؤادي في لوعة ما تقضى
يا قليل الانصاف كم اقضى عند صدك وعدا انجازه ليس يقضى
احيني بالوصال ان كان جوداً واثني بالحب ان كان قرضاً
بأبي شادن تعلق قلبي بجفون فواتر اللحظ مرضى
لست انساه اذ بدا من قريب يشئني تشئ الغصن غصاً
واعذارى اليه حين تجافى لي عن بعض ما اتيت واغضى

ومما هو اجزل من هذا قليلاً وهو من المطبوع قول ابن وهب :

ما زال يائسني مراشفه ويعلني الابريق والقح

حتى استرد الليل خلعتَه ونشا خلال سواده وضع
وبدا الصباح كأن غرتَه وجه الخليفة حين يمتدح
انت الذي بك ينقضى فرجا ضيق البلاد لنا وينفسح
نشرت بك الدنيا محاسنها وتزينت بصفاتك المِـدح

ومن السهل المختار الجيد المطبوع قول الشاعر :

صرفت القلب فانصرفا ولم ترع الذي سلفا
وبنت ولم اذُب كمدنا عليك ولم امت اسفا
كلانا واجد في النا س ممن ملته خلفا
وكقول الآخر :

ان كان أُعطي اصطبارا فلست املك صبري
انا الفدا لغزال دنا فقبّلَ نحري
وقال لي من قريب ياليت يتّك قبـري

اظن ان ما قدمته من آراء وامثال العسكري حول جودة الكلام
وردائه من النواحي التعبيرية فيه الكفاية . فلنبحث الآن في الفصل الثاني
من الباب الثاني في تنبيهاته على خطأ المعاني وصوابها . فيقول :

ان الكلام الفاظ ، تشتمل على معان ، تدل عليها ، ويعبر عنها ، فيحتاج
صاحب البلاغة الى اصابة المعنى لحاجته الى تحسين اللفظ ، لأن المدار بعدد
على اصابة المعنى ، ولأن المعاني تحلُّ من الكلام محلّ الابدان ، والالفاظ
تجري معها مجرى الكسوة ، ومرتبة احدهما على الاخرى معروفة . . .
ومن عرف ترتيب المعاني واستعمال الالفاظ على وجوهها بلغة من اللغات
ثم انتقل الى اخرى تهيأ له فيها من صنعة الكلام مثل ما تهيأ له في الاولى . .
ألا ترى ان عبدالله الكاتب ، استخرج امثلة الكتابة التي رسمها لمن بعده من
اللسان الفارسي ؟ فحوّلها الى اللسان العربي . . . فلا يكمل لصناعة الكلام

الا من يكمل لاصابة المعنى وتصحيح اللفظ والمعرفة بوجوه الاستعمال .

ثم قال : والمعاني على ضربين : ضرب يتدعه صاحب الصناعة من غير ان يكون له امام يقتدى به فيه ، أو رسوم قائمة في أمثلة مماثلة يعمل عليها وهذا الضرب ربما يقع عليه عند الخطوب الحادثة ، وينتبه له عند الامور النازلة والطارئة ، والآخر ما يحتذيه على مثال تقدم ، ورسم فرط .
وينبغي ان يطلب الاصابة في جميع ذلك ، ويتوخى فيه الصورة المقبولة ، والعبارة المستحسنة ، ولا يتكل فيما ابتكره على فضيلة ابتكاره اياه ، ولا يفره ابتداعه له فيساهل نفسه في تهجين صورته ؛ فيذهب حسنه ويطمس نوره ويكون فيه اقرب الى الذم منه الى الحمد

والمعاني بعد ذلك على وجوه :

منها ما هو مستقيم قبيح نحو قولك قد زيدا رأيت ؛ وانما قَبِحَ لأنك
أفسدتَ النظامَ بالتقديم والتأخير .

ومنها ما هو مستقيم النظم وهو كذب مثل قولك حملت الجبل وشربت
ماء البحر .

ومنها ما هو محال كقولك أتيتك امس واتيتك غدا . وكل محال
فاسد وليس كل فاسد محال الا ترى ان قولك قام زيد بكسر الدال
من زيد فاسد وليس بمحال والمحال ما لا يجوز كونه البتة كقولك الدنيا
في بيضة . واما قولك حملت الجبل واشباهه فكذب وليس بمحال ان جاز
ان يزيد الله في قدرتك فتحمله ويجوز ان يكون الكلام الواحد كذبا
محالا وهو قولك رأيت قائما قاعدا ومررت بيقظان نائم فتصل كذبا بمحال ؛
فصار الذي هو الكذب هو المحال بالجمع بينهما ، وان كان لكل واحد منهما
معنى على حiale وذلك لما قد عقد بعضها ببعض حتى صارا كلاما واحدا .

ومنها الغلط وهو أن تقول : ضربني زيد وانت تريد ضربت زيدا
فغلطت فان تعمدت كان كذبا •

ثم يقول : وللخطأ صور مختلفة نبهت على اشياء منها لتقف عليها
فتجنبها كما عرفتك مواقع الصواب فتعتمدها • ومن لا يعرف الخطأ كان
جديرا بالوقوع فيه • فمن ذلك قول المرقش :

صحا قلبه عنها على ان ذكرة اذا خطرت دارت به الارض قائما
وكيف صحا عنها من اذا ذكرت له دارت به الارض ؟

وقول امرئ القيس :

اغرك مني ان حبك قاتلي وانك مهما تأمري القلب يفعل
وماذا يغر المرأة اكثر من شدة حب الرجل لها ؟

وقوله :

فللسوط الهوب والساق درة وللزجر منه وقع اخرج مهذب
فلو وصف احسن حمار واضعفه ما زاد على ذلك •

وكقول الاعشى :

ويأمر للبحوم كل عشية بقت وتعليق فقد كاد ينسق
يعني بالبحوم فرس الملك يقول انه يأمر لفرسه كل عشية بقت
وتعليق وهذا مما لا يمدح به الملوك بل ولا رجل من خساس الجند ••
وقريب من هذا قول الاخطل :

وقد جعل الله الخلافة منهم لا بلج لا عارى الخوان ولا جذب
يقول هذا القول في عبد الملك بن مروان • ومثل هذا لا يمدح به
الملوك • واطرف منه في الخطأ قول كثير :

وان امير المؤمنين برفقه غزا كامنات الود مني فنالها

فجعل امير المؤمنين يتودّد اليه ••
وقوله لعبدالعزیز بن مروان :

وما زالت رقاك تسل ضغني وتخرج من مكانها ضبابي
ويرقيني لك الراقون حتى اجابت حية تحت الترابي
ان الملوك لا تمدح بمثل هذا وانما تمدح بمثل قول الشاعر :

له هم لا منتهى لكبارها وهمته الصغرى اجل من الدهر
له راحة لو ان معشار جودها على البر كان البر اُندى من البحر

ومثل هذا قول النابغة في النعمان :

فانك كالليل الذي هو مدرّكي وان خلت ان المتأى عنك واسع
وقوله :

الم تر ان الله اعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب
بانك شمس والملوك كواكب اذا طلعت لم يد منهمن كوكب
ومن غفلة كثير ايضا قوله :

الا ليتنا يا عزّ من غير ريبة بعيران نرعى في خلاء ونعزب
كلانا به عرّ فمن يرنا يقلّ على حسنها جرباء تعدى واجرب
نكون لذي مال كثير مغفل فلا هو يرعانا ولا نحن نطلب
اذا ما وردنا منها هاج اهله لينا فلا تنفك نرمى ونضرب

فقدته عزة فقالت له : لقد اردت بي الشقاء الطويل :

ومن التمني المذموم ما هو اوطأ من هذه الحال • من ذلك قول الآخر
سلام ليت لسانا تنطقين به قبل الذي نالني من خبله قطعاً^(١)

(١) الخبل بالتسكين الفساد وهنا معناه فساد قلبه بحبها • والبيت اورده
قدامة ابن جعفر في كتابه نقد الشعر هكذا :
سلام ليت لسانا تنطقين به قبل الذي ناله من صوته قطعاً

ومن ذلك قول جنادة :

من جها اتمنى ان يلاقيني من نحو بلدتها ناع فيناها
لكي يكون فراق لا لقاء له وتضمّر النفس ياسا ثم تسلاها
فاذا تمنى المحب لحبيته الموت فماذا عسى ان يتمنى المبغض لبغيضته ••

وستان بين هذا وبين من يقول :

الا ليتنا عشنا جميعا وكان بي من الداء ما لا يعرف الناس ما بيا
فهذا أقرب الى الصواب ولو ان جنادة كان يتمنى وصلها ولقاءها لكان
قد قضى وطرا من المنى ولم تلزمه الهجئة • كما قال عباس بن الاحنف :

فان تبخلوا عني ببذل نوالكم وبالوصل منكم كي اصب وأحزنا
فاني بلذات المنى ونعيمها أعيش الى ان يجمع الله بيننا
ثم قال ومن المختار في ذكر المنى قول الآخر :

منى ان تكن حقا تكن أحسن المنى والا فقد عشنا بها زمنا رغدا
اماني من ليلى حسان كأنما سقتك بها ليلى على ظمأ بردا
وكقوله :

ولما نزلنا منزلا طلّه الندى انيقا وبستانا من النور حاليا
أجد لنا طيب المكان وحسنه منى فتمنينا فكنت الامانيا
وكقوله :

فسوفيني المنى ' كيما أعيش به ثم امسكي المنع ما اطلقت آمالي
وهكذا يظل ابو هلال العسكري يسرد ابياتا من الشعر وأقوالا من
النثر حتى يستوفي الغاية التي أراد تحقيقها في هذا الباب •

الفصل السابع

أبو العلاء المعري

٤٤٩ - ٣٦٣

هو أحمد بن عبدالله بن سليمان من عرب تنوخ الذين جاؤا من اليمن الى بلاد الشام ، ولد في اسرة معروفة بالعلم والادب والجاه والقضاء .
ولما بلغ ثلاث سنين أُصِيبَ بالجُدَرِي ، وبسببه فقد بصره فنشأ ضريراً لا يعرف غير اللون الاحمر ، لانه البسوه في أثناء مرضه نوباً أحمر .

ولما أدرك سنّ التعلم لقّنه أبوه علوم العربية حتى أتقنها وشغف بها . مات أبوه وهو في الرابعة عشرة من عمره فرثاه بقصيدته المشهورة التي يقول فيها :

نقمت الرضا حتى على صاحب المزن
فلا جادني الاعبوس من الدجن
أبى حكمت فيه الليالى ولم تنزل
رماح المنايا قادات على الطعن
مضى طاهر الجثمان والنفس والكرى
وسُهد المُنَى والجيب والذيل والردن
فيا ليت شعري هل يخيفَ وقارُه
إذا صار أحد في القيامة كالعهن
وهل يرد الحوض الروى مبادراً
مع الناس أم يأبى الزحام فيستأني

ثم طمحت نفسه الى الاستكثار من العلوم والمعارف ، وفي سنة (٣٩٢) غادر المعرة فرحل الى طرابلس الشام ، وكانت بها خزائن كتب قد وقفها ذو اليسار من أهلها ، فاجتاز باللاذقية ، ونزل دير الفاروس ، وكان به راهب يشدو شيئاً من علوم الاوائل ، فسمع منه أبو العلاء كلاماً من أقوال الفلاسفة ، حصل له به شكوك لم يكن يوم ذاك عنده ما يدفعها به ، فعلق بخاطره ما حصل به بعض الانحلال ، وضاق عطنه عن كتمان ما تحمله من ذلك . حتى فاه به في أول عُمُرِه ، وأودعه اشعارا له ، ثم ارعوى ورجع واستغفرَ واعتذر . ووجه لاقواله وجوها احتملها التأويل .

وكذلك طمحت نفسه للرحيل الى بغداد مجتمع أهل العلم ، وموطن بقية السلف ، وعاصمة العواصم العربية ومنتدى العلوم الفلسفية ، فرحل اليها لا يخشى غناء السفر ، ولا يقعد به بعد الطريق ، وكانت سنه يوم ذاك خمساً وثلاثين سنة ؛ ابتغاء أن يدرس الحكمة اليونانية والفلسفة الهندية .

ولما وصل بغداد ، واستقر به المقام أخذ يراجع دور العلم ويتعرف الى علمائها وادبائها . فدخل علي المرتضى أبي القاسم نقيب أشراف بغداد ؛ فقربه المرتضى وأدناه واختبره فوجده عالماً مشبعاً بالفطنة والذكاء ؛ فأقبل عليه اقبالا شديداً .

وكان المعري يتعصب لابي الطيب كثيراً ، ويفضله على بشار وابي نواس وابي تمام ، والمرتضى يُبغضه ويتعصب عليه ، فجرى يوماً ذكره ، فنقَّصَه المرتضى ، وجعل يتبع عيوبه . فقال المعري : لو لم يكن للمتنبي من الشعر الا قوله :

(١) عطنه - جلده - .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص (٣٠) .

(لك يا منازل في القلوب منازل اقفرت أنت وهنَّ منك أو اهل)
لكفاه فضلا وشرفا ؛ فغضب المرتضى عليه ، وأمر باخراجه من مجلسه ،
وقال لمن بحضرته : أتدرون أيَّ شيء أراد هذا الاعمى بذكر هذه القصيدة ؟
فان لابي الطيب ما هو أجود منها ، فقال الحاضرون : النقيب أعرف ، فقال :
أراد قول المتنبي :

وإذا أتتكَ مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل (٣)

وهكذا ظل أبو العلاء في بغداد قرابة سنة وسبعة أشهر ، استفاد منها
علما وأدبا وفلسفة وصداقة قوم أجلاء منهم أبو حامد الاسفراييني الفقيه
الشافعي ، وخازن دار العلم الذي فتح له خزائنه ، كما فتح صدره لصداقته .
وفي أثناء مكوثه في بغداد ، أخذ الطلاب البغداديون يدرسون عليه
ويرتشفون من علمه وأدبه ، حتى ارتفع ذكره وظهرت آراؤه وتوثقت
علاقته بكبار الفلاسفة الذين كانوا يجتمعون في دار أبي أحمد عبدالسلام
ابن الحسن البصري كل جمعة .

وكانت له مع هؤلاء الطلاب والاصدقاء ذكريات حسنة وعلاقات طيبة
وقال في ذلك قصائد رقيقة مدونة في كتابه (سقط الزند) منها قصيدة أجاب
بها أبا علي النهاوندي ، أولها :

الاقامت تجاذبني عناني وتسالني بعمرصتها مقبلا
كفي بشحوب أوجهنا دليلا على أزماننا عنك الرحبلا

(٣) كتاب تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٨٧ نقلًا عن كتاب نكت
الهميان .

كلفنا بالعراق ونحن شرح
 وشارفنا فراق أبي علي
 وقد كافات شعر بشعر
 بهرت ويوم عمرك في شروق
 وردنا ماء دجلة خير ماء
 وزلنا بالغليل وما اشتفينا
 ولو لم ألق غيرك في اغترابي
 ستحمل ناجيات العيس مني
 يؤمل فيك اسعاف الليالي
 فلم نلمم به الا كهولا
 فكان أعزاً داهية نزولا
 ولكن حاز من بدأ الجميلا
 فدام ضحى ولا بلغ الاصيلا
 وزرنا أشرف الشجر النخيلا
 وغاية كل شيء ان يزولا
 لكان لقاءك الحظ الجزيلا
 صديقاً عن وداك لن يحولا
 وينتظر العواقب أن تديلا (٤)

وبينما هو في طريق عودته الى معرة النعمان وافاه نبأ موت امه •
 وكانت لها منزلة كبيرة في نفسه فرثاها بقصيدة عصماء اولها :

سمعت نعيها حمى حمام (٥)
 وأمتسى الى الاحداث ام
 ومن لي أن أصوغ الشهب شعراً
 مضت وقد اكنهلت فخلت أنى
 فيا ركب المنون أما رسول
 وان قال العواذل لا همام
 يعز علي ان سارت أمامي
 فألبس قبرها سيمطى نظام
 رضيع ما بلغت مدى الفظام
 يبلغ روحها ارج السلام

وحين وصل أبو العلاء معرة النعمان لزم بيته ، وسمى نفسه

(٤) كتاب سقط الزند ص ١١٣ •

(٥) حمى حمام - أى اشتدى أيتها المصيبة الداهية فى الفضاة يا حمام •
 وحمام مبنية على الكسر كقطام وحدام • وقوله لا همام أى أقلل من
 همك وحزنك •

رهين المحبسين • بل رهين ثلاثة حبوس • يعنِي حبس نفسه في المنزل •
وحبس عينيه بالعمى ، وحبس روحه في جسده ، وقد قال في ذلك شعراً •
أراني في الثلاثة من سجوني فلا تسأل عن النبأ النيث
لفقدي ناظري ولزومِ بيتي وكونِ النفس في الجسد الخيث

وكان أبو العلاء وجيها في بلده ، محترماً لدى خاصة الناس وعامتهم •
لقد جاء في كتاب تعريف القدماء بأبي العلاء (٦) ، نقلاً عن كتاب انباء الرواة
على انباء النحاة : ان صالح بن مرداس صاحب حلب ، خرج الى المعرة وقد
عصى عليه أهلها • فنزل عليها ، وشرع في قتالها ، ورمها بالمناجيق ، فلما
أحس أهلها التغلبَ سعوا الى أبي العلاء ، وسألوه الخروج اليه ،
والشفاعة فيهم عنده ، فخرج متوكئاً على يد قائد له • وقيل لصالح قائد
الحملة ان باب مدينة المعرة قد فُتِحَ ، وخرج منها رجل يقاد كأنه أعمى ،
فقال صالح : هو أبو العلاء ، بطلوا القتال ، الى أن نرى في أى أمر جاء ،
فلما وصل الى الخيمة أذِنَ له ، وأكرمه عند دخوله عليه ، وعرفه شوقه
الى نظره • ولما استقر بمجلسه قال له : ألك حاجة ؟ فقال له أبو العلاء :
الامير - أطال الله بقاءه - كالسيف القاطع لانّ متنه ، وخشُن حداه ،
وكالنهار الماتع فاظ وسطه ، وطاب ابراده (خذ العفو ، وأمر بالعرف ،
وأعرض عن الجاهلين) : فقال له صالح : قد وهبتها لك يا أبا العلاء •
ثم قال له صالح : أنشدنا شيئاً من شعرك يا أبا العلاء لنرويه عنك • فأنشد
ارتجالاً في المجلس :

تغيّبتُ في منزلي برهة ستير العيوب فقيد الحسد
فلما مضى العمر الأقل وحُمّ لروحي فراق الجسد

بُعِثَتْ شَفِيعاً إِلَى صَالِحٍ وَذَلِكَ مِنَ الْقَوْمِ رَأْيٍ فَسَدَ
فِيَسْمَعُ مِنِّي سَجْعَ الْحَمَامِ وَأَسْمَعُ مِنْهُ زَيْرَ الْأَسَدِ
فَقَالَ صَالِحٌ : بَلْ نَحْنُ الَّذِينَ تَسْمَعُ مِنَّا سَجْعَ الْحَمَامِ ، وَأَنْتَ الَّذِي
نَسْمَعُ مِنْكَ زَيْرَ الْأَسَدِ ، ثُمَّ أَمَرَ بِخِيَامِهِ فَوَضَعَتْ ، وَبِأَتَقَالِهِ فَرَفَعَتْ ، وَوَرَحَلَ
عَنْهَا .

فَرَجَعَ أَبُو الْعَلَاءِ إِلَى الْمَعْرَةِ وَهُوَ يَنْشُدُ :

نَجَّيْتُ الْمَعْرَةَ مِنْ بَرَائِنِ صَالِحٍ رَبُّ يَدَاوِي كُلِّ دَاءٍ مَعْضَلٍ
مَا كَانَ لِي فِيهَا جَنَاحٌ بِعَوْضَةِ اللَّهُ الْحَفْهَمِ جَنَاحٌ تَفَضَّلَ
وَبَقِيَ فِي الْمَعْرَةِ يَدْرُسُ وَيَمْلِي وَيُؤَلِّفُ إِلَى أَنْ وَاثَقَّ الْأَجَلَ يَوْمَ
الْجُمُعَةِ الثَّانِي مِنْ شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ تِسْعٍ وَأَرْبَعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ هِجْرِيَّةٍ .

ذِكَاةُ أَبِي الْعَلَاءِ .

أَجْمَعَتِ الرَّوَاةُ عَلَى أَنَّ أَبَا الْعَلَاءِ كَانَ عَلَى غَايَةِ مِنَ الذِّكَاةِ وَالْفِطْنَةِ
وَالْأَلْمِيَّةِ ، فَكَانَ لَا يَسْمَعُ شَيْئًا إِلَّا حَفِظَهُ وَلَا يَمَارِسُ عِلْمًا إِلَّا أَتَقَنَهُ حَتَّى صَارَ
نَادِرَةً زَمَانَهُ لُغَةً وَعِلْمًا وَأَدْبًا .

وَاللَّيْسَ فِي الْمَعِيَةِ قِصَصٌ يَتَجَاوَزُ حَدَّ الْخِيَالِ . فَقَدْ رَوَى أَبُو زَكْرِيَا
التَّبْرِيْزِيُّ (٧) أَنَّهُ كَانَ قَاعِدًا فِي مَسْجِدِهِ بِمَعْرَةِ النُّعْمَانِ بَيْنَ يَدَيْهِ يَقْرَأُ عَلَيْهِ
شَيْئًا مِنْ تَصَانِيفِهِ . قَالَ : وَكُنْتُ قَدْ أَتَمَمْتُ عِنْدَهُ سَتَيْنِ وَلَمْ أَرِ أَحَدًا مِنْ
بَلَدِي ، فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ بَعْضُ جِيرَانِنَا لِلصَّلَاةِ فَرَأَيْتُهُ وَعَرَفْتُهُ وَتَغَيَّرْتُ مِنَ الْفَرَحِ ،
فَقَالَ لِي أَبُو الْعَلَاءِ : مَا أَصَابَكَ ؟ فَحَكَيْتُ لَهُ أَنِّي رَأَيْتُ جَارًا لِي بَعْدَ أَنْ لَمْ أَلْقِ أَحَدًا
مِنْ بَلَدِي مِنْذُ سَتَيْنِ . فَقَالَ لِي : قُمْ وَكَلِمَةٌ فَقُلْتُ : حَتَّى أَتِمَّ الدَّرْسَ . فَقَالَ
قُمْ أَنَا أَنْتَظِرُكَ فَقُمْتُ وَكَلِمَتُهُ بِالْأَذْرَبِيْجِيَّةِ شَيْئًا كَثِيرًا إِلَى أَنْ سَأَلْتُ عَنْ كُلِّ

(٧) كِتَابُ الْإِنْصَافِ وَالتَّحْرِيْرِ لِابْنِ الْعَدِيمِ .

ما أردت فلما عدت وقعدت بين يديه قال لي أى لسان هذا ؟ قلت هذا لسان أهل أذربيجان فقال ما عرفت اللسان ولا فهمته غير اني حفظت ما قلتما ثم أعاد لفظنا بلفظ ما قلناه . فجعل جارى يتعجب غاية العجب وكيف حفظ شيئاً لم يفهمه ؟

وقد تحدث هبة الله بن موسى المؤيد في الدين وكان بينه وبين أبي العلاء صداقة ومراسلة قال : كنت أسمع من أخبار أبي العلاء من البسطة في علم اللسان ما يكثر تعجبي منه فلما وصلت المعرة حضرت اليه واتفق حضور أخي معي ، وكنت بصدد أشغال يحتاج اليه المسافر فلم أسمح بمفارقتي ، والاستغفال بها ، فتحدث معي أخي باللسان الفارسي فأرشدته الى ما يعمله فيها ثم عدت الى مذاكرة أبي العلاء ، فتجارتنا الحديث الى أن ذكرت ما وصف به من سرعة الحفظ ، وسألته أن يريني من ذلك ما أحكيه عنه . فقال خذ كتاباً من هذه الخزانة قريبة منك ، واذكر أوله فاني أوردته عليك حفظاً . فقلت كتابك ليس بغريب ان حفظته . قال قد دار بينك وبين أخيك كلام بالفارسية ان شئت اعدته قلت أعدده ، فأعاده وما أخل والله يحرف منه ولم يكن يعرف الفارسية .

قال أبو منصور الثعالبي^(٨) حدثني أبو الحسن الشاعر قال : لقيت بمعرة النعمان عجبا من العجب . رأيت أعمى شاعرا ظريفا يلعب بالشطرنج والنرد ، ويدخل في كل فن من الجرد والهزل يكنى أبا العلاء وسمعته يقول : أحمد الله على العمى كما يحمده غيرى على البصر ، فقد صنع لي وأحسن بي اذ كفاني رؤية الثقلاء البغضاء .

ولقد حضرت مجلسه يوما وهو يملي في جواب كتاب ورد عليه من

(٨) تنمة اليتيمة : جعله الثعالبي تنمة لكتابه يتيمة الدهر استدرك فيه بذكر من فاتته في اليتيمة من أعيان عصره .

بعض الرؤساء :

وافى الكتاب فأوجب الشكرا فضمته وثمته عشرا
وفضضته وقرأته فاذا أحلى كتاب في الورى يقرا
فمحاء دمعى من تحدره شوقا اليك فلم يدع سطرا
فحفظتها واستعملتها كثيرا في مكاتبات الاخوان •

فلسفة المعري

الفلسفة علم وظيفته البحث فى النتائج الكلية التى وصل اليها النظر
فى العلوم المختلفة ثم تمحيصها ونقدها وتصفيها من شوائب الخطأ ثم التوفيق
بينها ثم محاولة الوصول الى قانون عام ينتظم هذا العالم ويفسر جميع
ما يصدر عنه من أحداث ومظاهر (٩) •

وبالنظر لهذه المفاهيم والاهداف لا نستطيع أن ندعي أن أبا العلاء
المعري كان فيلسوفا بالمعنى العلمى • ذلك لان للفيلسوف منهاجا مفصلا
يتناول البحث فى الوجود ما خفى منه وما ظهر مبينا علل هذا الكون ونتائجه
على أساس علمى وبحسب ما تقتضيه طبائع الاشياء لا بحسب ما يتصوره
الانسان عن طريق الحدس والخيال • ان التصورات وحدها أصبحت فى
نظر الفلسفة المبنية على صدق النظر وصدق التجربة غير كافية لحشرها فى
قضايا الفلسفة ذات المنهاج المؤدى الى اثبات حقيقة كونية أو اجتماعية أو
اقتصادية ثبتت صحتها بالادلة القطعية • وغاية ما يقال فى فلسفة المعري انها
مجموعة نظرات تناولت البحث فى الديانات والعادات وفى ما وراء الطبيعة
واصول الاجتماع وفى الحياة والموت • وقد ظهرت هذه الافكار فى

(٩) تاريخ الفلسفة ، تأليف الاستاذين محمد علي مصطفى وخيرالدين
عبده ، ص ١٦ •

اشعاره ورسائله بشكل يدل على ان المعري كان متأثراً بفلسفات هندية-يونانية ومسيحية أورثته التقشف والزهد وبث في نفسه الشاؤم والتشكك ومقت الحياة حتى قيل انه أوصى قبيل موته أن يكتب على قبره :

« هذا جناه أبي عليّ وما جنيت على أحد »

وعلى ذلك فان المعري ليس فيلسوفاً بالمعنى العلمي ولكنه أطلق آراء لها علاقة وثيقة بالابحاث الفلسفية . تلك الآراء التي استقاها من مختلف الديانات والقت به في ظلام من الحيرة في بعض الاحيان .

ان الشرائع القت بيننا إحنًا وأورثتنا أفانينَ العدوات

نعم للمعري آراء فلسفية تناولت العدم والوجود والحياة والموت والنظام والحكم والعادات والتقاليد والشك واليقين والايمان والالحاد ، تناولت كل ذلك بشكل لمحات عقلية ، وخواطر وجدانية دلت على فرط ذكائه وصدق فراسته ، كما دلت على تبرمه وشدة حيرته ، لذلك نراه في بعض الاحيان لا يقطع برأيه ولا يطمئن الى ما توسوس به نفسه .

يرى الدكتور طه حسين أن تردده هذا ان دل على شيء فانما يدل على الشك والحيرة اللذين كانا يصيبان أبا العلاء حين كان يحكم عقله في أشياء لا يحسن العقل وحده ان يحكم فيها . فمن ذلك قوله :

قال المنجم والطبيب كلاهما لا تحشر الاجسام قلت اليكما

ان صح رأيكما فليس بضائري أو صح رأيي فالخسار عليكما

ومعنى هذا انه كان يخالف الفلاسفة في انكار بعث الاجسام ولكنه على ذلك لم يكن يقطع برأيه بريثاً من الشك^(١٠) ، ثم قال :

والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد

(١٠) مقدمة الدكتور طه حسين لاثار أبي العلاء المعري .

واللييب الليب من ليس يعتر بكون مصيره للفساد
ولقد نظر أبو العلاء في اصول الحكم والاجتماع فرأى ما يخالف
العدل ويجافي الحق رأى حكاما يظلمون شعوبهم ويحكمون بما لا يرضاه
الواجب ولا يتفق مع المصلحة العامة فقال :

ايمان المعري (١١)

قال الحافظ السلفي : مما يدل على صحة عقيدة أبي العلاء ما سمعت
الخطيب حامد بن بختار النميري بالسمرسانية - مدينة الخابور - قال :
سمعت القاضي أبا المهذب عبد المنعم بن أحمد السروجي يقول : سمعت أخي
القاضي أبا الفتح يقول :

دخلت على أبي العلاء التنوخي بالمعرة ذات يوم في وقت خلوة (بغير
علم منه) وكنت أتردد اليه وأقرأ عليه ، فسمعتة وهو ينشد من قبله :

كم بُودرتُ غادةً كعابٍ وعُمّرتُ أمها العجوز
أحرزها الوالدان خوفاً والقبر حرزٌ لها حرز
يجوز أن تبطىء المنايا والخلد في الدهر لا يجوز

ثم تأوه مرات وتلا « ان في ذلك لآية لمن خاف مقام عذاب الآخرة ،
ذلك يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود ، وما تؤخره الا لاجل
معدود ، يوم يأت لا تكلم نفس الا باذنه فمنهم شقي وسعيد » . ثم
صاح وبكى بكاء شديداً وطرح وجهه على الارض زماناً ثم رفع رأسه
ومسح وجهه فقال :

« سبحان من تكلم بهذا في القدم ، سبحان من هذا كلامه » .

« (١١) الجزء الرابع من كتابه الحديقة ص ٢٥٤ سنة (١٣٤٦) هـ .

فصبرت ساعة ، ثم سلمت عليه ، فردّ عليّ وقال : متى أتيت ؟
فقلت : الساعة .

ثم قلت يا سيدي أرى في وجهك أثر غيظ .
فقال لا يا أبا الفتح ، بل انشدت شيئاً من كلام المخلوق ، وتلوت
شيئاً من كلام الخالق ، فلحقني ما ترى .
فتحققت صحة دينه ، وقوة يقينه .

* * *

وقال محمد بن علي المقرئ الكازروني بالاهواز :
دخلنا على أبي العلاء المعري بعد منصرفنا من مكة ونحن جماعة
فسألنا عن أسمائنا ، وبلداننا ، وصنائعنا ، فانتسب كل واحد منا . فلما
سألني عن صناعتي قلت : أنا قارئ . قال : فقرأ لي آية من كتاب الله
تعالى . فقرأت (يوم نقول لجهنم هل امتلأتِ ؟ وتقول هل من مزيد؟) .
فبكى بكاء شديداً ثم أمر لنا بدريهمات ، وقال : اصرفوها في البلس
(يعني التين) فانه أوانه . فسألناه أن ينشدنا شيئاً من الشعر . فأنشدنا :
يغدو الفقير وكل شيء ضده
والارض تغلق دونه أبوابها

* * *

ومن بدائع شعره في اللزوميات مما يدل على ايمان المعري وتمسكه
بربه قوله :

مولاك مولاك الذي ماله نِدُّ وخاب الكافر الجاحد
آمن به والنفس ترقى وان لم يبق الا نفس واحد
ترجو بذاك العفو منه اذا ألحِدَتَ ثم انصرف اللاحد

* * *

شاعرية المعري

المعري شاعر فذ بليغ شغل شعره الناس وشغفوا به منذ زمانه حتى يومنا هذا ، وكان أكثر شعره في الفخر والمدح والوصف والرثاء والفلسفة . ولم يكثر بشعر المجون والخمر والهجاء ، بل عني عناية كبيرة بمعان انسانية عالية ، ميزته عن غيره من الشعراء ممن تقدمه أو جاء بعده . فنظم في طبائع الناس ، وقواعد الاجتماع ، وظلم الحكام ، وما جاءت به الشرائع والاديان من مبادئ وأفكار وقد قسم مؤرخو الادب شعره الى قسمين ، شعر الشباب ، وشعر الكهولة .

أما شعره في شبابه فكان كثير الاندفاع ، صريح العبارة ، كثير المبالغة قوى الخيال ، قليل العناية بقواعد اللغة ، يشوبه شيء من التكلف والتقليد ، تجد ذلك ماثلا في كتابه (سقط الزند) .

* * *

وأما شعره في كهولته المجموع في اللزوميات فإنه زاخر بالحكمة والفلسفة والزهد والاناة ونقد الحياة ، تحدث فيه عن عادات الناس ، وأخلاقهم عن مجاملتهم ومكرهم ونفاقهم ، وهو في كل ذلك تجد عليه مسحة من الحيرة والاضطراب ، كما تجد عليه طابع الجزالة والبداهة . وصفه أحمد بن علي في كتابه تاريخ بغداد قال : كان أبو العلاء التنوخي^(١٢) الشاعر من أهل معرة النعمان حسن الشعر ، جزل الكلام ، فصيح اللسان عزيز الآداب حافظا لها^(١٣) .

(١٢) التنوخي - منسوب الى تنوخ ، وهو اسم لعدة قبائل اجتمعوا قديما بالبحرين ، وتحالفوا على التوازر والتناصر ، وأقاموا هناك . فسموا تنوخا . والتنوخ الإقامة . ومن هذه القبائل جماعة نزلت معرة النعمان .

(١٣) كتاب - انباه الرواة على انباه النحاة . ص ٤٧ .

من الاجحاف بحق هذا الشاعر الكبير أن ندعي بأننا سنحيط بجميع
مزاياء الشعرية ، وسنوفيه ما يستحق من الاكبار والاجلال ، لان ذلك
فوق ما يتحملة غرض هذا الكتاب ، وخارج عن نطاق هذا البحث .
عاش المعري ستاً وثمانين سنة ، وقال الشعر وعمره أربع عشرة سنة .
فمعنى ذلك انه كان يقول الشعر حوالي سبعين عاما . فهل تتمكن من
الاحاطة بكل ما قال . وهل يستطيع الباحث أن يلم بجميع مزاياء في
مقال ؟ هذا محال .

* * *

الوصف

ان أعجب العجب في المعري انه وصف أشياء عجز عن وصفها
المبصرون من الشعراء ، ان الذي نعلمه ان آلة التصوير تصور ما ينعكس
على عدستها من المرئيات . أما انها تصور ما لا تبصره عدستها فهذا مما
لا يستسيغه منطق العلم ، ولا يدخل في نطاق العقل .

اذن فما تعليل ما جاء به المعري من الصور الحسية العجيبة التي لم
ترها عينه ؟ اللهم الا ان نقول : انه من صنع العبقرية العربية .

علّاني فان بيض الاماني فنيت والظلام ليس بفاني
فكأني ما قلت والبدر طفل وشباب الظلماء في عنفوان
ليلتي هذه عروس من الز نج عليها قلائد من جمان
وكان الهلال يهوى الثريا فهما للوداع معتقان
قال صبحي في لجّين من الحن دُس والبيد اذ بدا الفرقدان
نحن غرقى فكيف يُنقذنا نجمان في حومة الدجى غرقان
وسهيل كوجنة الحب في اللو ن وقلب المحب في الخفقان
يسرع الملح في احمرار كما تس سرع في الملح مقلة الغضبان
قدماء وراءه وهو في العجز كساع ليست له قدمان

ثم شاب الدجى وخاف من الهـ ••• جرف فطى المشيبَ بالزَّعران
 ونضا فجره على نسرهِ الوا قع سيفاً فهمَ بالطَّيران
 في كل بيت من هذه الابيات التى سقناها صور بديعة لو شرحناها
 لفسد معناها دون أن نوفيها حقها • فالاولى أن تتركها مطلقه ليتقراها
 الخيال ، ويتمتع بها السمع والوجدان •
 حقاً ان المعرى أتى بصور ذات الوان مختلفة ، وذات حركات
 متخالفة لم يأت بها من تقدمه ، ولم يلحق بشأوها من تأخر زمانه عنه •

* * *

الرثاء

ان طبيعة الرثاء فى نفس أبى العلاء لازمته منذ طفولته ولم تفارقه
 طوال حياته • العمى ، واليتيم ، والفقر من جهة ، والفطنة ، والعبقرية
 واحتدام الطموح فى نفسه من جهة اخرى • كل ذلك بث فى روعه
 الحزن والجزع وجعله متبرماً بالحياة ساخطاً على نفسه ، وعلى الناس ،
 وعلى الذين انجبوه وكانوا سبباً فى وجوده • أليس هو الذى أوصى أن
 يكتب على قبره بعد موته •

هذا جناه عليّ أبى وما جنيتُ على أحد

ثم هل الرثاء الا تنفيس عن الكرب العظيم • والالم الدفين ؟ لذلك
 اذا قرأنا شعر الرثاء عند أبى العلاء وانعمنا النظر فيه وتأملنا ملياً فسوف
 نحس بصرخة النوح تجلجل فى رثائه ونسمع صوت البكاء يتفجر من
 قوافيه ولامر ما قال الاستاذ أحمد ابراهيم الشريف : الرثاء فن أبى
 العلاء ، قبل كل فن سواه • فهو فى العربية شاعر الرثاء وفيلسوف الحياة
 بلا مرأء (١٤) •

(١٤) كتاب تراث الانسانية ، المجلد الثانى ص (٦٥) •

خُلُوَ فؤادي بالموودة اخلال
ولي حاجة عند المنية فنكها
اذا مت لم أحفل ابا الشام حفرة
على أن قلبي أنس ان يُقال لي
دعا الله أمّا ليت أني أمامها
مضت وكأني مرضع وقد ارتقت
أراني الكرى أني أصبت بناجذ
أجارحتي العظمى تُشبهه ساهياً
وبين الردى والنوم قُربى ونسبة
اذا نمت لاقيت الاحبة بعدما
وابلاء جسمي في طلائك ابلال
بروحي والاهواء مذكن أهوال
حوّتي أم ريم بريمان منهال
الى آل هذا القبر يدفنك الآل
دُعيت ولو أن الهواجر آصال
بي السن حتى شكل فودى أشكال
الا إن أحلام الرقاد لَضلال
بسُن لها في ساحة الفم أمثال
وستان برء للنفوس واعلال
طوتهم شهور في التراب وأعوام (١٤)

هكذا كان رثاء المعري قطعة من كبده ، ونفثة من نفثات صدره ، انه
دموع محب مرزوء يرى خلوة فؤاده من مودة من يوده اخلال بحقوق
المودة الصادقة ، ويرى فناء جسمه على أمل اللقاء بالحبيب الراحل حياة
ما بعدها حياة . لذلك كان يتمنى أن تفتك به المنية ليصل الى امه ، لان
فراقها أشق عليه من مكابدة سكرات الموت ، وكل ما يتمناه أن يدفن
بجنبها ، بل كان يتمنى أن يتقدم أجله على أجلها فداء لها . ان مثله في
فجيعة بها كمثل رضيع فارق امه وتعرض للضياع على رغم اكتهاله وكبر
سنه .

وكم كان ساخطاً على الاحلام ! لان الاحلام كذبت عليه فأرته سقوط
ناجذه بينما الحقيقة التي حلت به في اليقظة هي موت امه لا سقوط ناجذه ،
لذلك كانت الاحلام في نظره ضلالاً في ضلال ، حيث شبهت مصابه بامه ،
(وهى جارحتي العظمى) بمصابه بسنه ، وللسين عدة أمثال في فمه ،

(١٥) الجزء الثاني من كتاب سقط الزند ص ١٧٨ .

بينما الام لا مثل لها ، وهكذا يرى في الموت برءاً لنفسه ولحاقاً بحبيبة
قلبه • كما انه يرى ان لا مناسبة ولا قربى بين النوم والموت كما يظن
الناس لان في الموت برءاً للنفس من أوضاع الحياة ، وفي الحياة اعلال لها •
فلا سواء بينهما •

الفخر :

كانت نفسية المعري في احتدام شديد وصراع دائم ، تنازعها عوامل
جمّة • عاطفة حساسة ، وعقل وقاد ، وذكاء مفرط وأدب فياض ، وعلم
غزير ، واباء كبير ، وطموح عالٍ ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ، علة
ملازمة له ومورد شحيح عليه ومزاج عصبي في طبعه ، وزمن زاخر بأنواع
الفلسفات ، ومكتض بمختلف التقاليد والعادات ، ووطن صغير موزع بين
عدة حكومات ، كل ذلك أورثه تشاؤماً شديداً ؛ فيس من الناس ونفض
يده منهم ، وانعزل عنهم ، وتعالى عليهم ، فداخله فخر عظيم ، وعناد
جسيم ، بحيث طغى على كثير من شعره •

أرى العناء تكبر أن تصادا	فعاقد من تطيق له عنادا
وما نهنت عن طلب ولكن	هي الايام لا تعطي قيادا
فظنن بسائر الاخوان شراً	ولا تأمن على سرّ فؤادا
فلو خببرتهم الجوزاء خبري	لما طلعت مخافة أن تكادا
تجنبت الانام فلا أواخي	وزدت عن العدو فلا أعادي
فأى الناس أجعله صديقاً	وأى الارض اسلكه ارتيادا
ولو أن النجوم لدى مال	نفت كفاى أكثرها انتقادا
كأنى في لسان الدهر لفظ	تضمن منه اغراضاً بعبادا
وكم من طالب امدى سيلقى	دوين مكاني السبع الشدادا
يؤجج في شعاع الشمس ناراً	ويقدح في تلهبها زنادا

ويطعن في علای وان شسعی
 فلا وأبیک ما أخشی انتقاصاً
 لی الشرفُ الذی یطأ الثریا
 أفلّ نوابئ الايام وحدي
 لیأنف أن یكون له نجادا
 ولا وأبیک ما أرجو ازديادا
 مع الفضل الذی بهر العبادا
 اذا جمعت کتابها احتشادا

المدح :

المدح عند أبي العلاء صنع جميل يؤديه لمن يستحقون المدح والثناء ،
 دون أن يرجو من ورائه مغماً ويجمع مالا ، كما يفعل بعض المداحين من
 الشعراء ، وإنما يقوله لصديق راسله أو كبير عمت فضائله . فهو في هذا
 المجال في غاية العفة ومنتهى الالباء . وما ذلك الا ليعنى نفسه وجميل زهده
 واكتفائه بما قسم الله له .

لا أطلب الأرزاق والـ مولى يفيض علي رزقي
 ان أعط بعض القوت أء سلم ان ذلك ضعيف حقي

لذلك لم يكن شعر المديح عنده بالشئ الكثير . ثم انه اذا مدح كان
 مدحه موجها لاهداف كريمة وغايات نبيلة . استمع اليه كيف يطلب من
 ممدوحه أن يجعل غاراته وغزواته في سبيل تحقيق المحامد والمكارم ،
 لا في سبيل جمع المكاسب والمغانم .

أدنى الفوارس من يغير لمغرم فاجعل مغارك للمكارم تكرم
 وقال من تصيدة أجب بها تلميذاً له كان قد مدحه بعد أن أتم دراسته
 عليه فقال له :

يا للمفضل تكسوني مدائحہ وقد خلعت لباس المنظر الأنیق
 انا بعثاك تبغي القول من كتب فجت بالنجم مصفوداً من الافق
 وقد تفرست فيك الفهم ملتهبا من كل وجه كنار الفرس في السدق

فاطلب مفاتيح باب الرزق من مَلِكٍ أعطاك مفتاح باب السؤدد الغلق
لفظ كأنَّ معاني السكر تسكبه فمن تحفظ بيتاً منه لم يُفْقِرِ
جزل يشجع مَنْ وافى له اذناً فهو الدواء لداء الجبن والقلق
إذا ترنم شاد للميراع به لاقى المنايا بلا خوف ولا فرق
لا تنس لي نفحاتي وانس لي زللي

ولا يضرَكَ خَلْقِي واتبِع خَلْقِي (١٥)

ان غاية ما قاله شيخ المعرة في مدح تلميذه : انه شاب مُعْجِب ،
وانه أناه بشعرٍ بعيد المنال • وليس ذلك بعجيب ، اذ كان يرى في تلميذه
فهماً وقادراً منذ زمن دراسته عليه ، وقد تحققت تلك الفراسة بما جاء من
شعر كالنجوم ، ثم يعود المعري فيسدى الى تلميذه نصيحة هي خلاصة
المذهب الذي ارتضاه لنفسه ، فيقول له : اطلب الرزق ممن وهبك الفهمَ
والسؤددَ واجعل معاني شعرك كشوة الخمر يسكر بها كل من حفظه ،
ثم هو لا يفيق من نشوته • انه شعر لو سمعه الجبان لصار شجاعاً لا يخاف
من الموت • ودليلي على أن المعري كان عزوفاً عن المدح انه اذا مدح شخصاً
فسرعان ما يجنح الى مدح الفضائل الخاصة بقوم المدوح تنفيساً لروحه
مما لا تميل اليه ، وخلاصاً من الضيق الذي يستولي عليه حين يمارس
شعر المديح ،

يا فارسَ الخيل ، يدعوك العدى أسداً
ما استنقذت من يديه عُتقُ مُفترَس
أرى جبينك هذى الشمس خالقها
وقد أنارت بنور عنه منعكس

(١٦) كتاب سقط الزند طبع دار الفكر بيروت ص ١١٧ •

من معشر لا يخاف الجار' بأسهم
 غشّوا صروف الليالي بُردَ مبشس
 وصاحبوها بأعراض ، جواهرها
 كجواهر البدر لا يدنو من الدّس
 كأنّ كلّ سِنان صاب عندهم
 للنفع مبضع' آس مشفّقِ نَطس
 الطارحين لخوض الموت لامهم
 سَحَبِ الاجلة خلف الضمّر الشُّمس
 أيا فلان دعاك الله مقتدرأ
 أخا المكارم وابن الصارم الخليس
 لا يوهِمَنَّك ان الشعر لي خُلُق'
 وأنسي بالقوافي دائم' الانس
 فانما كان المامي بساحتها
 في الدهر المامَ طيرِ الماء بالعلّس
 عسك تعذر ان قصّرت' في مدّحي
 فان مثلي بهجران القريض عَسِ (١٧)

الفزل :

ذهب أكثر النقاد الى ان غزل المعري كان تقليداً للشعراء الغزليين
 وكان صنعةً اصطنعها ليُقَالَ انه مارس جميع أغراض الشعر ، ولم
 يعجز عن غرض منها .

ونحن نجاري أصحاب هذا الرأي الى حد محدود ، اذ لا نعتقد ان

(١٧) كتاب سقط الزند ص ١٢٢ طبع دار الفكر بيروت .

المعري كشاعر مرهف الحس قوي العاطفة كان خاليا من عاطفة الحب لم
يشعر بالجمال الروحي للمرأة على الاقل .

فالصواب عندي ان عاطفة الحب عنده قوية ولكن كان يحجبها
حجاب الوقار ويحوطها شيء من أدب النفس ورزانة الحلم . وكثرة الحياء؟
هاك قطعة واحدة من غزله ، ثم أصدر حكما عليه . أما الكثرة والقلة
فشأن ذلك يعود الى أسباب غير العجز والقدرة كما ذكرنا . استمع اليه يقول:

يا ساهرُ البرق أيقظ راقد السمر

لعلّ بالجزع أعواناً على السهر

وان بخلت عن الاحياء كلهم

فاسق المواطر حيا من بني مطر

ويا أسيرة حجليها أرى سفها

حمل الحلي لمن أعيان عن النظر

ما سرت الا وطيف منك يصحبي

سرى أمامي وتأويا على أنثري

لو حطّ رحلي فوق النجم رافعه

وجدت ثم خيالا منك منتظري

يود ان ظلام الليل دام له

وزيد فيه سواد القلب والبصر

لو اختصرتم من الاحسان زرتكم

والعذب يهجر للافراط في الخصر

أبعد حول تناجي الشوق ناجية

هلا ونحن على عشر من العشر

كم بات حولك من ريم وجازية

يستجد بانك حسن الدل والحوار

وما تركت بذات الضال عاطلة
من الطباء ولا عار من البقر
قلدت كل مهاة عقد غاية
وفزت بالشكر في الآرام والعُقر
حسنت نظم كلام توصفين به
ومنزلاً بك معموراً من الخُقر
فالحسن يظهر في شيئين رونقه

بيت من الشعر أو بيت من الشعر (١٨)

أبعد هذا الغزل الرقيق ، والديباج الخسرواني من الالفاظ والمعاني
يصح أن نقول : ان الغزل عند المعري مران واختبار ، وليس وصفاً لخوالج
الحب والحنين ، أو نقول : ان المعري شاعر يرى وجوب القول في
النسيب ، وما هو من النسيب في مضماره الاصيل .

إذاً فما هو الغزل اذا كان هذا الشعر الذي عرّضناه ليس غزلاً
أصلاً ؟ (أليس الغزل هو ما نجد من لواعج الحب ولفحاته ، وشكايات
الصب واناته ، وزفرات العاشق وعبراته) .

أليس في قوله :

ما سرت' الا وطيف منك يصحبني
سرى أمامي وتأويباً على أثرِي
حبٌ لم يفارق قلبه لحظات ؟

أليس في قوله :

لو حطّ رَحلي فوق النجم رافعه
وجدت' ثمّ خيالاً منكٍ منتظري

(١٨) ديوان سقط الزند ص ٦٩ .

انها صورة للحسن لا يراها الا الذين انصهرت قلوبهم بنار العشق حتى
خلصت وصفت من أوضاع المادة ورواسب الجنس أليس كذلك ؟

مؤلفاته :

أغلب مؤلفاته ضاعت في أثناء الحروب الصليبية ، فلم يبق منها الا
سقط الزند ، وهو ديوان شعر بجزئين ، يضاف اليهما جزء خاص
بالدروع اطلق عليه المعري اسم - الدرعيات - وتبلغ عدد قصائده بين
قصيدة طويلة ومقطوعات صغيرة احدى وثلاثين قصيدة ، كما تبلغ قصائد
جزئي الديوان أربعا وسبعين قصيدة ومقطوعة ، يضاف اليها سبع قصائد
قصيرة أوردها جامع الديوان بعد الدرعيات . معظمها في الغزل . ووصفه
الاستاذ أحمد ابراهيم الشريف فقال (١٩) .

ولسقط الزند أهمية كبرى في تصوير نفس المعري وحياته وأحداثه
وتطور فلسفته في الحياة التي مارسها والموت الذي واجهه في أقرب المقربين
اليه ، وفي الاصدقاء والمعارف البعداء ، وفيه الشوق والحنين والفخر والمدح
والتهنئة والغزل والرثاء والوصف والرحلات ، وفيه خلاصة آمال الشاعر
وآلامه وسعوده ونحوسه وأفراحه وأحزانه ، وما استقى من كل هؤلاء
العبر والآراء .

وله كتاب اللزوميات ، أو - لزوم ما لا يلزم . وهو كتاب ضخم
ضمنه أبو العلاء قصائد ومقطوعات الزم نفسه فيها بحروف الروى وهي
ليست بلازمة عليه ولا على الشعراء .

وله رسالة ، سماها (رسالة الغفران) ، وهي شديدة الشبه (بالملهاة

(١٩) كتاب تراث الانسانية المجلد الثاني ص ٦١ .

الالهية) لدانتى (٢٠) ، (والفردوس المفقود) لميلتن •

تخيّلَ فيها أبو العلاء رجلا صعد الى السماء ، ووصف ما شاهده
هناك ، وانتقد فيها الشعراء والنحاة بأسلوب روائي بديع • ذكرتُ منها
طرفا فى هذا الكتاب تأتيك عن قريب •

وله كتاب (عبث الوليد) شرحَ فيه شعر البحرى ونقدَه ،
وفى هذا الكتاب ثروة لغوية ، ودراسة تحليلية نقدية سيأتىك عن قريب
أيضا بعد ملخص رسالة الغفران ، وله معجز أحمد - شرح ديوان المتنبى -
وذكرى حبيب - شرح ديوان أبى تمام •

وله كتاب الايك والغصون فى مائة مجلد ، ولكنه مفقود مع الاسف
الشديد • وله كتب اخرى غير ما ذكرنا •

(٢٠) دانتي - زعيم الشعر الايطالى ، ولد سنة ١٢٦٥ ، وتوفى سنة ١٣٤١ •
ملتن شاعر انجليزى • كف بصره فأمل على زوجته قصيدته الخالدة
(الفردوس المفقود) وهى من عيون الشعر الانجليزى وبدائع الخيال
البشرى ، ولد سنة ١٦٠٨ وتوفى (١٦٧٤) •

الفصل العاشر

رسالة ابن القارح مفتاح رسالة الغفران

أما رسالة ابن القارح فهي تلك الرسالة التي أرسلها الشيخ أبو حسن علي بن منصور المحدث بحلب المعروف بابن القارح الى شيخ المعرة أبي العلاء . من هذا المنطق قال بعضهم من فهم رسالة ابن القارح سهل عليه فهم رسالة الغفران .

وها نحن نقتطف منها شذرات عسى أن نهتدي بها على ما انبهم من رسالة الغفران ونطلع على بعض مبادئها وغايتها .

بدأ ابن القارح رسالته باسم الله وتحميده ، والصلاة على رسوله ، ثم أخذ بالتناء على الشيخ الجليل الذي أرسل رسالته اليه ، فأسبغ عليه نعوتاً محمودة ، ودعاءً حاراً كقوله (أطال الله بقاء مولاي ، ومدّ مدته ، وأدام كفايته ، وجعلني فداءه) ، ثم يقول له (ويعلم الله الكريم اني لو حذت اليه حنين الواله الى بكرها ، أو ذات الفرخ الى وكرها ، أو الحمامة الى الفها ، أو الغزالة الى خشفها ، لكان ذلك مما تغيره الليالي والايام . لكنه حنين الظمان الى الماء ، والخائف الى الامن ، والسليم^(٢) الى السلامة ، والغريق الى النجاة ، والقليق الى السكون ، فان وهب الله ملاء^(٣) من العمر يؤنسني برؤيته ، ويعلقني بحبل مودته ، صرت كسارى الليل القى

(١) هكذا قالت الدكتورة عائشة بنت الشاطي في شرح رسالة الغفران

من كتاب ذخائر العرب .

(٢) السليم المددوع بالحية .

(٣) الملاء السعة والامتداد .

عصاه ، وأحمد مسراه ، وقرّ عينا ، ونعم بالا ، وكان كمن لم يمسه سوء ،
ولم يتخونه عدوّ ، ولا نهكه رواح ، ولا غدو •

وأني أسأله الله على التداني والنوى والبعاد امتاعه بالفضل الذي
استعلى على عاتقه وغاربه ، واستولى على مشاركته ومغاربه ، فمن مرّ على
بحره الهياج ، ونظر في لاء بدره الوهاج ، خلى بأن يكبو قلمه بأنامله ،
وينبو طبعه عن رسائله ، الا أن يلقي بالمقاليد ••••• فيكون منسوباً إليه ،
ومحسوباً عليه ، ونازلاً في شعبه ، وأحد أصحابه وحزبه ، وشرارة ناره
وقراضة ديناره ، وسمك بحره وتمد^(٥) غمره ، وهيهات ضاق فتر عن
مسير ، ليس التكحل في العينين كالكحل ، خلقوا أسخياء لا متساخين ، وليس
السخي من يتساخي ، لاسيما وأخلاق النفس تلزمها لزوم الألوان للابدان ،
لا يقدر الابيض على السواد ، ولا الاسود على البياض ، ولا الشجاع على
الجبن ، ولا الجبان على الشجاعة ، قال أبو بكر العرمزي •

يفر جبان القوم عن امّ رأسه ويحرم شجاع القوم من لا يناسبه
ويرزق معروف الجواد عدوّه ويحرم معروف البخيل أقاربه
ومن لا يكف الجهل عن يودّه فسوف يكف الجهل عن يوابه
ومن أين للضباب صوب السحاب ، وللغراب هويّ العقاب ،
وكيف وقد أصبح ذكره في مواسم الذكر آذانا ، وعلى معالم الشكر لسانا ،
فمن دافع العيان ، وكابر الانس والجان ، واستبد بالافك والبهتان ، كان
كمن صالب بوقاحته الحجر ، وحاسن بوقاحته القمر وهذي وهذر وتعاطى
فعفر • وكان كمحموم بلسم^(٦) فعفر^(٧) ونادى على نفسه بالنقص في البدو

(٤) تخونه تنقصه •

(٥) التمد القليل •

(٦) باسم اصيب بالبلسام وهو أشد الجدرى •

(٧) عفر تمرغ في التراب • •

والحضر ، وكان كما قال : من يعنيه ولا يشك فيه

كناطح صخرة يوما ليفلقها فلم يضرها وأوهى قرنَه الوعل

وروي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لعن الله ذا اللسانين،

لعن الله كل شقار^(٨) لعن الله كل قتات^(٩)

ثم يذكر ابن القارح أشخاصا نكبوا بمن يحبون وأقواما يدعون العلم والادب وهم أصفار منها جميعا ، ورجالا قتلوا لزندقتهم كبشار ، وصالح ابن عبد القدوس ، والوليد بن يزيد ، وعيسى بن الرشيد ، وغيرهم ممن ادعوا الالهية ، وقالوا بالحلول ، وهكذا يذكر أفرادا كثيرين من المشائمين والخارجين على الدين منذ زمنه حتى يبلغ زمن الرسول ، فيقول : وجاء صلى الله عليه وسلم يوما ليدخل مكة فدفعه عثمان بن طلحة العبدري ، فقال : لا تفعل يا عثمان فكأنك ومفتاحها بيدي أضعه حيث شئت ، فقال : لقد ذلت يومئذ قريش وقلدت . قال : بل كثرت وعزّت ، ثم يرجع ابن القارح يستعين بعصمة الله وتوفيقه ، ويسأله على تمكينه من دفع شهواته ، ومن فهمه لمواعظ عبر الدنيا ، ثم يقول للدنيا على مذهب كبير عزه :

كأنني انادى صخرة حين أعرضت

من الصم لو تمشى بها العصم زلت

يا دنيا في كل لحظة لظرفي منك عبّرة ، وفي كل فكرة لي منك حسرة ،

يا مرنقة الصفا ، ويا ناقضة عهد الوفا ، ما وفقّ لحظة من عرج نحوك ،

ولا سَعِدَ من آثر المقام على حسن الظن بك .

واحسرتي في يوم يجمع شرّتي كفن ولحد

ضيعت ما لا بد منه بالذي لي منه بد

(٨) الشقار الكذاب . القتات النمام .

فَأَقْلَقَ وَأَبْكِي بَكَاءَ غَيْرِ نَافِعٍ وَلَا نَاجِعٍ وَيَجِبُ أَنْ أَبْكِي عَلَى بَكَائِي وَأَنْشُدَ

لِسَانِي يَقُولُ وَلَا أَفْعَلُ وَقَلْبِي يَرِيدُ وَلَا أَعْمَلُ

وَأَعْرِفُ رَشْدِي وَلَا أَهْتَدِي وَأَعْلَمُ لَكَنْتِي أَجْهَلُ

إِلَى أَنْ يَقُولَ : بَلَّغْنِي عَنْ مَوْلَايَ الشَّيْخِ أَنَّهُ قَالَ وَقَدْ ذَكَرْتُ لَهُ :

(أَعْرِفْهُ خَبْرًا ، هُوَ الَّذِي هَجَا أَبَا الْقَاسِمِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ

الْمَعْرُوفِ بِالْوَزِيرِ الْمَغْرِبِيِّ) فَذَلِكَ مِنْهُ رَائِعٌ لِي خَوْفًا أَنْ يَسْتَشِرَّ طَبْعِي وَإِنْ

يَتَصَوَّرُنِي بِصُورَةٍ مِنْ يَضَعُ الْكُفْرَ مَوْضِعَ الشُّكْرِ وَهُوَ بِتَعْرِيفِ التَّنْكِيرِ أَنْفَعُ

لِي عِنْدَهُ لِجَلَالَةِ قَدْرِهِ وَدِينِهِ وَنَسْكَهٗ . وَإِنْ أَطْلَعَهُ طَلَعَهُ لِيَعْرِفَ خَفْضَهُ

وَرَفْعَهُ وَفُرَادَاهُ وَجَمْعَهُ . ثُمَّ يَقْصُ قِصَّتَهُ مَعَ أَبِي الْقَاسِمِ فَيَقُولُ : وَرَدَّ عَلَيَّ

كِتَابَ أَبِي الْقَاسِمِ فَسَرْتُ إِلَيْهِ فَكَانَ يُسَرِّحُ حَسْوًا فِي ارْتِفَاءٍ . قَالَ لِي يَوْمًا مِنْ

الْأَيَّامِ مَا رَأَيْتُكَ ؟ قُلْتُ : أَعْرَضْتَ حَاجَةً ؟ قَالَ لَا : أَرَدْتُ أَنْ الْعَنُكَ . قُلْتُ

فَالْعَنِي غَائِبًا قَالَ : لَا ، فِي وَجْهِكَ أَشْفَى . قُلْتُ وَلَمْ ؟ قَالَ لِمَخَالَفَتِكَ إِيَّايَ فِيمَا

تَعْلَمُ . وَقُلْتُ لَهُ وَنَحْنُ عَلَى أَنْسِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ : لِي حُرْمَاتٌ ثَلَاثٌ ، الْبَلْدِيَّةُ

وَتَرْبِيَةُ أَبِيهِ لِي وَتَرْبِيَةُ لِأَخَوْتِهِ . قَالَ هَذِهِ حُرْمٌ مَهْتَكَةٌ : الْبَلْدِيَّةُ نَسَبٌ

بَيْنَ الْجَدْرَانِ وَتَرْبِيَةُ أَبِي لَكَ مِنْهُ لَنَا عَلَيْكَ ، وَتَرْبِيَةُ لِأَخَوْتِي بِالْخَلْعِ

وَالدَّنَانِيرِ ، أَرَدْتُ أَنْ أَقُولَ لَهُ اسْتَرَحْتَ مِنْ حَيْثُ تَعَبَ الْكِرَامِ لِأَنَّهُ كَانَ

جَنُونُهُ مَجْنُونًا .

وَقَالَ لِي لَيْلَةً (أَرِيدُ أَنْ أَجْمَعَ أَوْصَافَ الشَّمْعَةِ السَّبْعَةِ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ

وَلَيْسَ يَسْنَعُ لِي مَا أَرْضَاهُ . فَقُلْتُ : أَنَا أَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْ هَذِهِ السَّاعَةِ . قَالَ :

أَنْتِ 'جَذَّيْلُهَا' (٩) الْمُحَكِّكَ وَعُذَّيْقُهَا (١٠) الْمُرْجَبُ وَأَخَذْتُ الْقَلَمَ

(٩) الْجَذَّيْلُ أَصْلُ الشَّجَرَةِ الْبَاقِي بَعْدَ ذَهَابِ فُرُوعِهَا يَنْصَبُ لِتَحْتِكَ بِكَ

الْإِبِلِ الْجَرَبِيِّ .

(١٠) الْعَذِيقُ هُوَ مِنَ النَّخْلَةِ كَالْعَنْقُودِ مِنَ الْعَنْبِ وَرَجَبُ النَّخْلَةِ وَضَعُ حَوْلِهَا

الشُّوْكَ .

من دواته وكتبت بحضرته •

لقد اشبهتني شمعة في صبابتي وفي هول ما القى وما أتوقع
نحول وحرق في فناء ووحدة وتسهد عين واصفرار وادمع

فقال كنت عملت هذا قبل هذا الوقت • فقلت تمنعني سرعة الخاطر

وتعطيني علم الغيب؟

وكان أبو القاسم ملولا ويحقد حقد من لا تلين كبيده ولا تنحل عقده •
وقال لي بعض الرؤساء معاتباً أنت حقوق ولم يكن أبو القاسم حقوقاً
فقلت له أنت لا تعرفه • والله ما كان يُحسنى عوده ولا يُرجى عوده وله
رأى يزين له العقوق ويمقت اليه رعاية الحقوق بعيد من الطبع الذي هو
للصد صدود وللتألف أوف ودود ، كأنه من كبره قد ركب الفلك
واستوى على ذات الحُبك • ولست ممن يرغب في راغب عن وصلته أو
ينزع إلى نازع عن خلته • فلما رأته سادراً جارياً في قلة انصافي على
غلوائه محوت ذكره عن صفحة فؤادي واعتددت 'وده فيما سال به
الوادي

ففي لناس ان رمت جبالك واصل

وفي الارض عن دار القلى متحول

ثم يعود فيقول : وأنا معتذر الى الشيخ الجليل من تقرضه مع
(تقريظي) فيه لانه قد شاع فضله في جميع البشر ، وصار غرة على
جين الشمس والقمر ، خلد ذلك في الاخبار وكتب بسواد الليل على
بياض النهار وأنا في مكاتبه حضرته بمنظوم ومنثور كمن أمد النار بالشرر
وأهدى الضوء الى القمر ، وصب في البحر جرعة وأغار سير الفلك
سرعة • اذ كان لا يحل النقص بواديه ولا يطور^(١١) السهو بناديه •

(١١) يطور يحوم ويقرب •

ثم يهتم ابن القارح في آخر رسالته بذكر العظاى والعبر • فيقول
كان أبو بكر الشبلي يقول ليس غير الله غير ولا عند غير الله خير • وقال
يوما يا جواد ! ثم أمسك مفكرا ورفع رأسه ثم قال : ما أوتحني ! أقول
لك يا جواد وقد قيل في بعض عبيدك •

ولو لم يكن في كفه غير نفسه لجاد بها فليثق الله سائله
وقد قيل في آخر :

تراه اذا ما جئته متهللا كأنك تعطيه الذى أنت سائله
ثم قال بلى أقول يا جوادا فاق كل جواد وبجوده جاد من جاد
ودخل ابن السماك على الرشيد فقال له عطني وفي يد الرشيد كوز ماء
فقال : مهلا يا أمير المؤمنين أرأيت إن أقدر الله عليك مقدرًا فقال :
لن أمكنك من شربة الا بنصف ملكك أكنت فاعلا ذلك ؟

قال نعم • قال اشرب هناك الله فلما شرب قال : أرأيت يا أمير المؤمنين
أن لو أسفيت نفس هذا المقدر عليك فقال : لن أمكنك من اخراج هذا
الكوز الا بأن استبد بملكك دونك أكنت فاعلا ذلك • قال : نعم • قال :
فاتق الله في ملك لا يساوي الا بولة •

وأخيرا يختمها بحديث من يثق به ولا يتهمه فيذكر له ان أباه
كان زاهدا فحدثه بأمر عن أبي بكر الشبلي فقال : كنت مع أبي بكر الشبلي
ببغداد في الجانب الشرقي بباب الطاق فرأينا شايوا قد أخرج حملا من
التنور كأنه بسرة^(١٢) نضجا والى جانبه قد عمل حلاوى فالوذجا
فوقف ينظر اليهما وهو ساهٍ مفكر • فقلت يا مولاي دعني آخذ من هذا
وهذا ورقاقًا وخبزًا ومنزلي قريب تشرفني بأن تجعل راحتك اليوم عندي

(١٢) البرة : واحدة البسر وهو التمر الغض •

فقال يا هذا أظننت اني قد اشتهيتهما ؟ وانما فكري في ان الحيوان كله
لا يدخل النار الا بعد الموت ونحن ندخلها احياء .

يا رب عفوك عن ذي شَيْبَةٍ وَجِلٍ كأنه من حذار النار مجنون
قد كان ذمّم أفعالا مذممة أيام ليس له عقل ولا دين)

هذه هي مقتبسات من رسالة ابن القارح دوتنها لتعلم المراد منها بوجه

عام لتكون لك مدخلا الى ما نحن بصدده من رسالة الغفران .

الفصل الحادي عشر

رسالة الغفران

المطلوب هو أن ندرس رسالة الغفران ليس غير • أما رسالة ابن القارح فقد تعرضنا لها باعتبارها سبباً لانشاء رسالة الغفران أو انها مفتاح لها •

وقبل البدء في استعراض رسالة شيخ المعرة أراني بحاجة الى بيان ما انطبع في نفسي عن أهم أغراض الرسالتين •

فأقول ان الغرض المهم من الرسالتين هو ان الكاتبين الفاضلين أرادا أولاً وبالذات نقد أحدهما الآخر عن طريق بيان ملكتهما الانشائية وثروتيهما اللغوية واحاطتهما بتاريخ العرب والاسلام وما يتصل به من أخبار الامم الاخرى في الشؤون الميثولوجيا وغيرها •

نعلم ذلك من سردهما للاخبار وكثرة استعمالهما غرائب المفردات التي تقلل من اللذة التي يمكن أن يتمتع بها الباحث في هاتين الرسالتين بصورة أكبر لولا توغلها في الغريب !•

واني لا أدري ان كنت مصيباً أو مخطئاً فيما ظننته وذهبت اليه وفيما تضمنته الرسالتان •

فقد حسبت ان جانب التعريض في كليتهما باد بشكل أقرب الى اليقين منه الى الشك على رغم عبارات المجاملة المتبادلة بينهما ومحاولة التظاهر في التماس الرحمة والمغفرة من الله في دعاء بعضهما لبعض • وأن رغبة ابن القارح في لقاء شيخ المعرة وذكره الحنين اليه لا يغير مما يكنه في نفسه من التبرم به •

ولعل في شرح ابن القارح لقصته مع أبي القاسم وذكرها في رسالته
تعبيرا عن الاذى الذي وقر في نفسه من قول أبي العلاء حين سئل عن ابن
القارح فقال أعرفه خبرا من هجوه لصديقه أبي القاسم .

اذ اعتقد ابن القارح ان المعري كان يريد أن يوصمه بالجحود وقلة
الوفاء بتلك الاجابة . لان الناس يعلمون فضل والد أبي القاسم عليه
ويعلمون علاقة أبي القاسم به . لذلك اعتبر ابن القارح جواب المعري
(بأنه يعرفه بهجائه لأخص أصدقائه ومعارفه) قدحا فيه وذما له وتشنيعا
به . . . مما أثار حفيظته وحمله على انشاء رسالته التي ذكر في
ثناياها ما يبرر هجوه لابي القاسم من جهة ويخفف المة بما يناله من أبي
العلاء من جهة ثانية .

وما رغبة ابن القارح في لقاء شيخ المعرة بحضور حضرته الا كرغبة
أبي القاسم في استدعائه ابن القارح وحضوره بحضرته .

فقد ذكر ابن القارح في رسالته ان أبا القاسم استدعاه يوما فلما جاءه
قال له أعرضت حاجة ؟ قال أبو القاسم لا ولكنني أردت أن
العنك . فقال ابن القارح لماذا لا تلعني غائبا قال : في وجهك أشقى لنفسي
لمخالفتك اياي فيما تعلم . ولذلك كانت تمنيات ابن القارح ورغبته في لقاء
أبي العلاء ليبرىء ساحته من نكران النعمة وقلة الوفاء وليريه حقوق الرجال
على الرجال وفضل أهل الفضل عند ذوى الفضل .

وأعود فأقول مرة ثانية اني لا أدري ان كنت مخطئا أو مصيبا ان
قلت ان الغموض الشديد الوارد في رسالة الغفران كان مقصودا ومتعمدا
من شيخ المعرة . . . انه أراد أن يلقن ابن القارح درسا لا ينساه طوال
حياته وليعلمه انه ما زال بحاجة شديدة الى فهم غرائب اللغة والى ادراك
مواطن التقعر في الكلام فيما يستحسن منه وما لا يستحسن .

ولعلي أكون مصيباً أيضاً ان قلت ان رسالة الغفران اتعبت ابن القارح حين مارس قراءتها وعلمته منزلته بين علماء اللغة يضاف الى تلك الاسباب سبب آخر له أهميته أيضاً . ذلك ان المعري ذكر في رسالته آراء خطيرة لها مساس بمعتقدات الناس وأخلاقهم وأساليب تفكيرهم وخطل اتجاهاتهم . . . لذلك عرض أخباره وآراءه عرضاً بديعياً وبيانياً خالطاً بين الحقيقة والمجاز والبسها أردية سميكة من التورية تخفي تحتها نقداً لاذعاً لمجموع أوجه الحياة عن طريق رسالته لابن القارح حيث ساق تلك الآراء مساق الفكاهة وعبر عنها كأنها أساطير لكي لا يورط نفسه في مشاكل هو في غنى عنها .

وبعد : فان القسم الاول من رسالة الغفران يشير الى ورود رسالة ابن القارح الى ابي العلاء متضمناً ما أعد الله لابن القارح من الثواب في ادخاله جنة الغفران وما أعدق عليه من ثمار الجنة وخرمها وعسلها وحوورها كل ذلك كان بسبب تمجيده لله وتنزيهه عن شبه المخلوقين .

وفي جنة الفردوس يلتقي ابن القارح بالبرد وابن دريد ويونس بن حبيب والضبي وابن مسعدة وثعلب وسيويوه والكسائي وأبي عبيدة والاصمعي وفي أثناء نزوته في الجنة يرى بعض الشعراء كالأعشى وزهير وعبيد ابن الابرص وعدى بن زيد فيسألهم عن الاسباب التي غفر الله بها لهم . ثم يرى بعض وحوش الجنة كما يرى أبا ذؤيب الهذلي وناقته والنابتين الجعدى والذبياتي وقصريهما . وهناك يعقد مجلس منادمة وأدب يطوف فيه على الندامي قيان ومغنيات من أوز الجنة . فتغنيهم احدى القيان بميمية المخبل السعدى . (١)

ذكر الرباب وذكرها سقم وصبا وليس لمن صبا عزم
وإذا لم خيالها طرقت عيني فمأ شؤونها سجم

(١) رسالة الغفران ص ٢٢٤ طبعة بنت الشاطيء .

كلؤلؤ المسجور تُوبع في سلك النظام فخانه النظم
 وتقول عاذلتي وليس لها بغدٍ ولا ما بعده علم
 ان الثراء هو الخلود وان المرء يكرُب يومه العدم
 ولئن بنيت الى المشقرّ في عنقاء تقصُر دونها العُصم
 لتُنقِبَن عني المنيّة ان الله ليس كحكمه حكم

وهنا تنشأ منافرة بين الاعشى والجعدى ، فيمر حسان بن ثابت
 بالمجلس فيدعونه اليهما ليحكم بينهم ، ثم يفترقون جميعا ، وبعد هذا الموقف
 يلتقي ابن القارح بمعقل بن ضرار وعمرو الباهلي وتميم ابن أبي مقبل ،
 فيعجب تميم من قوة حافظه ابن القارح ، وبقاء حفظه للادب ، بعد أن
 شاهد أهوال القيامة ثم يشرع ابن القارح برواية قصة الحشر ،
 وما كان من شفاعه أهل البيت له ، وفي هذه الاثناء ينشأ خصام أدبي بين
 أبي علي الفارسي ، وعدد من الشعراء ، فيقيم ابن القارح مآذبة كبرى
 يدعو اليها كل من في الجنة ، من شعراء وادباء وعلماء ، يقدم فيها الولدان
 المخلدون أصناف اللحوم ويغني فيها الغريض ومعد وابن مسجح وابن
 سريح والموصليان وتقوم الحور العين ترقص على الحان أبيات منسوبة
 للخليل وبين هذا الغناء والرقص يدور حوار أدبي بين اللغويين وبعد
 ارفضاض المجلس يخلو ابن القارح بحوريتين من حور الجنة هما حمدونة
 الحلبية وتوفيق السوداء . ولكن ابن القارح يزهد فيهما ويطلب الى أحد
 الملائكة أن يدلّه على حور عين لم يكن في الدار القانية . فيأخذه الملك
 ويذهب به الى أطراف الجنة ، جنة العفاريت المؤمنين فيتعرف هناك الى
 شعراء الجن مثل أبي هدرش والخيتعور الذي يقص عليه مغامراته قبل
 أن يتوب . ثم يرى الحطيثة العبسي في كوخ حقير بأعلى الجنة ويرى الخنساء
 تشهد أخاها صحرا والنار تضطرم في رأسه وبعد هذه الجولة يدخل
 ابن القارح في جحيم الغفران فيسأل ابليس عما يفعل أهل الجنة بالولدان

المخلدين ... ثم يلتقي بشعراء النار ويناقشهم في بعض المسائل اللغوية والقضايا الادبية مثل بشار بن برد وامرئ القيس وعنترة العبسي وعلقمة بن عبدة وعمرو بن كلثوم والحارث الشكري وطرفة بن العبد وأوس بن حجر وأبي كبير الهذلي وصخر الغي والاخلط التغلبي وعدى بن ربيعة والمرقسين الاكبر والاصغر والشنفرى الازدى وتأبط شرا .

ثم يعود ابن القارح الى الجنة فيلتقي في الطريق بآدم عليه السلام ويسأله عن الشعر المنسوب اليه ... ثم يرى روضة الحيات فيدخلها وتتصدى له حية فقيهة عالمة تتحدث في القراءات وتغريه بالبقاء معها فيذعر منها ويمضي مهرولاً الى الجنة ، جنة الرجز فيشاهد فيها أغلب بني عجل والعجاج ورؤية وأبا النجم وحميد الارقط وعذافر بن أوس وأبا نخيله وكل من غفر له من الرجاز فيقول لهم تبارك العزيز الوهاب لقد صدق الحديث المروي ان الله يحب معالي الامور ويكره سفافها وان الرجز لمن سفاف القريض قصرتم أيها النفر فقصر بكم .. وما ان التقى ابن القارح برؤية حتى ثار بينهما شجار .

بهذا ينتهي القسم الثاني فانه يتضمن الرد على رسالة ابن القارح

نفسها .

ففي هذا القسم يتعجب أبو العلاء من انفراد ابن القارح بالوفاء ، وقد جبل العالم على الخديعة والنفاق . وكذلك يتبرأ أبو العلاء مما ينسب اليه من عامة فضله ويقسم أنه مكذوب عليه .

ثم يذكر اغتباط حلب بدخول ابن القارح فيها ويعطيها كل الحق بهذا الاغتباط لانه ابنها البار وأديبها المغوار . ثم يأخذ بتعزية ابن القارح لحزنه على من فقد من الاصدقاء حين عاد الى حلب . ويعود أبو العلاء يستغفر للذين بالغوا في مدحه ويبدى أسفه لفقد رسالته التي بعث بها

الزهرجي مع ابن القارح اليه فسرقها عدل له • ثم يصف المة من تشاكي
الادباء ومن حرفة الادب وهمومها تلك الحرفة التي البت الحساد على
ابن القارح •

ثم تأخذ الرسالة بالرد على ابن القارح وما أخذ على قول المتبني :

اذم الى هذا الزمان أهيله فاعلمهم قدم واحزمهم وغد

وبيانه ولوع المتبني بالتصغير وطمعه في شيء قد طمع فيه من هو دونه
ثم أخذت تؤكد على أن نطق اللسان ينبيء عن اعتقاد الانسان واستشهد
بدعل بن علي الذي كان يتظاهر بالتشيع مع انه لم يكن له دين وبأبي
نواس الذي ادعى له التأله وانه كان يقضي صلوات نهاره في ليله والصحيح
انه كان على غير ذلك • وكذلك تناولت الرسالة قدم الالحاد في ابن آدم
وانتشار الزندقة وقول بعض الدهريين وما يهلكنا الا الدهر وقولهم الزمان
حركة الفلك لفظ لا حقيقة له •

ثم أخذ أبو العلاء بالدعاء لابن القارح بالاجر لغيظه على الزنادقة
والملاحدين واحتماله مشقة الحج • ثم بين له أنه لا ملة الا ولها قوم
ملحدون • وان الزندقة تقية ومداراة وقد تكون تطرفا وشرع أبو العلاء
يعدد الذين قتلوا لزندقته ويذكر هرب ربيعة^(٢) بن أمية الى الروم
واجلاء أهل الذمة عن الجزيرة أيام عمر بن الخطاب وكون اليمن معدنا
للمتكسبين بالتدين وزندقة القرامطة^(٣) والوليد بن يزيد وأبا عيسى بن
الرشيد وديك الجن والجنابي والعلوي البصري وادعائه علم الغيب.

(٢) ربيعة بن أمية بن خلف الجمحي أدمن الشراب فضره عمرايمر المؤمنين
ولحق بعد حين بالروم •

(٣) القرامطة قوم خرجوا على الاسلام فأباحوا المال والنساء • ويزعمون
ان امامهم يخرج من بيت في الاحساء •

والحسين بن منصور الحلاج والحلولية^(٤) والتناسخ والتظاهر بالمذهب
توصلا للعالم و ابن هاني الاندلسي و بيان ان التأله موجود في الفرائز و الدين
تلقين و تقليد ثم تكلم عن الامامية و المعتزلة و الاشاعرة و الشيعة و عبدالله بن
ميمون القداح و ابن الراوندي و كتبه (التاج و الدافع و القضيبي و الفريدي
و المرجان) و ابن الرومي و التطير و ابا تمام و ورقة دينه و ماتم القصائد
عليه و المازيار و الافشين و بابك الخرمي و ابا مسلم الخراساني و غلاة الشيعة
و عبدالله بن سبا و الكسانية) .

و بعد هذا الاستعراض الطويل عاد الى حديث بن القارح و الرد على
شكواه من بلوغ السن العالية و التعليق على ما قيل عن رغبته في الزواج ،
و الرد على أشفاقه من العكوف على الاماني و الشهوات ثم تذكره بمن أسرفوا
في اللهو ثم تابوا كالفضيل بن عياض و عمر بن عبدالعزيز و مالك بن أنس
و أبي حنيفة ، و الصحابة قبل الاسلام كانوا على ضلال و أحمد بن حنبل
و المنافقين في شرب الخمر . ثم يعود فيقول لقد آن لابن القارح أن يتوب
و يذكر مشهدا لتوبته حيث يملكه جالسا للموعظ في أحد مساجد حلب و معه
خنجر يجأبه زقاق الخمر ثم يذكر أن حواريه المعدات له في الجنة لما
سمع بتوبته فرحن و جلسن يقبلن التهاني من جاراتهن . ثم تذكر
الرسالة أشخاصا منهم عبدالله بن المعتز و المبرد و أبو عثمان المازني و ابراهيم
ابن المهدي و محمد بن عاصم و بعضا من أهل العصر و استنكارهم شرب
الخمر بعد الستين . كما تذكر أول سماع أبي العلاء بابن القارح و شيوخه
الذين درس عليهم و منهم أبو الحسن المغربي ثم تذكر حججه الخمس
و كيفية تلبية العرب في الجاهلية و استلامها الحجر و طوافها و نفرتها و ووقوفها

(٤) جماعة يزعمون ان الله جل شأنه قد يحل في بعضهم . و يقال ان
فرعون كان على مذهب الحلولية .

بالمفسس • ثم تتحدث عن آل جوهر وما لقوا من محن بعد ان كانت الدنيا لهم • وعن أبي القاسم المغربي وابن القارح وأفانين البديهة وابن خالوية وفضله وأبي الطيب المغوي ثم يأخذ أبو العلاء بالرد على ما ذكره ابن القارح من ميله الى مصر والى اللذات ولعنة الخمر • ثم يعود الى دنائير ابن القارح • تلك الدناير التي قل عنها ان ابنة اخته سرقتها • والى الكلام عن الخولة لصلتها بالسارقة وعن الهجرس بن كليب وخاله جساس وعن ابن مضر وخاله وزهير وخاله بشامة بن الغدير وعن النساء والادب • وعن أبي بكر الشبلي •

وأخيرا يختم أبو العلاء رسالته بالاعتذار لابن القارح عن تأخير
الاجابة على رسالته •

نماذج من رسالة الغفران

يبدأ أبو العلاء المعري رسالته بعد البسملة بقوله - اللهم يسر وأعن
قد علم الجبر الذي نسب اليه جبرئيل وهو في كل الخيرات سبيل أن في
مسكني حماطة^(٥) ما كانت قط أفانية^(٦) ولا الناكزة^(٧) بها غانية تتمر من
مودة مولاي الشيخ الجليل كبت الله عدوه وأدام رواجه الى الفضل وغدوه
مالو حملته العادية^(٨) من الشجر لدنت الى الارض غصونها واذيل^(٩) من
تلك الثمرة مصونها ... الى أن يقول :

-
- (٥) الحماطة هنا حبة القلب •
(٦) شجر الحماط ما دام رطباً •
(٧) النكر الطعن والفرز بشى محدد •
(٨) العادية العالية من الشجر •
(٩) اذيل اهين •

« وان في طمري (١٠) لحضبا (١١) وكل باذاتي لو نطق لذكر
شداتي ما هو بساكن في الشقاب (١٢) ولا بمشرف على النقاب (١٣) ما ظهر
في شتاء ولا صيف ولا مرّ بجبل ولا خيف يضمّر من محبة مولاي الشيخ
الجليل ثبت الله أركان العلم بحياته ما لا تضمّره للمولد أم أكان سمها يذكر
أم فقد عندها السم » .

وقد علم أدام الله جمال البراعة بسلامته أن الحضب ضرب من
الحيات وانه يقال لحبة القلب حضب ... الى أن يقول .

« وقد وصلت الرسالة التي بحرّها بالحكم مسجور ومن قرأها مأجور
اذ كانت تأمر بتقبل الشرع وتعيب من ترك أصلا الى فرع . وغرقت في
أمواج بدعها الزاخرة وعجبت من اتساق عقودها الفاخرة ومثلها شفع ونفع
وقرب عند الله ورفع . والقيتها مفتحة بتمجيد صدر عن بليغ مجيد . وفي
قدرة ربنا جلت عظمته أن يجعل كل حرف منها شبح نور لا يمتزج بمقال
الزور يستغفر لمن أنشأها الى يوم الدين . ويذكره ذكر محب خدين
- ولعله سبحانه - قد نصب لسطورها المنجية من المهب معاريح من الفضة
أو الذهب تعرج بها الملائكة من الارض الراكدة الى السماء وتكشف
سجوف الظلماء بدليل الآية (اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) .
وهذه الكلمة الطيبة كأنها المعنية بقوله (الم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة
طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء . تؤتي أكلها كل حين
بإذن ربها) . وفي تلك السطور كلم كثير كله عند الباري أنير فقد غرس
لمولاي الشيخ الجليل ان شاء الله بذلك الثناء شجر " في الجنة لذيذ اجتناء)

-
- (١٠) الطمر الثوب الخلق .
(١١) الحضب ذكر الحيات .
(١٢) الشقاب الكهف في الجبل .
(١٣) النقاب الطريق الضيق في الجبل .

وهنا يشرع في وصف أشجار الجنة وفي ظلالها الولدان المخلدون • ثم
أنهارها من اللبن والعسل وكؤوسها وأباريقها من العسجد والزبرجد وقبانها
اللائي هن من الحور العين • ثم يذكر تمتع الشعراء والعلماء والكتاب على
اختلاف درجاتهم ورتبهم بهذه النعم الالهية فيقول : واذا من الله تبارك اسمه
بورود تلك الانهار صار فيها الوارد سمك حلاوة لم ير مثله في ملاوة لو
بصر به أحمد ابن الحسين لاحتقر الهدية التي اهديت اليه فقال فيها •

أقل ما في أقلها سمك يلعب في بركة من العسل

فاما الانهار الخمرية فتلعب فيها أسماك هي على صور السمك بحرية
ونهرية وما يسكن منه في العيون النبعية • ويظفر بضروب النبت المرعية •
الا أنه من الذهب وصنوف الجواهر المقابلة بالنور الباهر • فاذا مد المؤمن
يده الى واحدة من ذلك السمك شرب من فيها عذبا ولو وقعت الجرعة منه
في البحر الذي لا يستطيع ماءه الشارب لحتت منه أسافل وغوارب • الى
أن يقول :

وكأنني به أدام الله الجمال ببقائه اذا استحق تلك الرتبة بقين التوبة
وقد اصطفى له ندامى من ادباء الفردوس كاخى (١٤) ثماله واخى (١٥)
دوس ويونس بن حبيب الضبي وابن مسعدة المجاشعي فهم كما جاء في
الكتاب العزيز (ونزعنا ما في صدورهم من غلّ اخوانا على سرر متقابلين
لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين) الى أن يقول :

(ثم انما ادام الله تمكينه يخطر له حديث شيء كان يسمى النزهة في
الدار الفاتية فيركب نجيبا من نجب الجنة خلق من ياقوت ودرّ في سجاج
بعد الحرّ والقرّ ومعه اناء فيهبج (١٦) فيسير في الجنة على غير منهج

(١٤) محمد بن يزيد المبرد •

(١٥) محمد بن دريد •

(١٦) فيهبج صاف •

ومعه شيء من طعام الخلود ذُخِرَ لوالد سعد أو مولود (الى أن يقول :
 (وينظر الشيخ في رياض الجنة فيرى قصرين منيفين فيقول في نفسه -
 لا بلغن هذين القصرين فاسأل لمن هما ؟ فاذا قرب اليهما رأى على أحدهما
 مكتوبا هذا القصر لزهير بن أبي سلمى المزني وعلى الآخر هذا القصر
 لعبيد بن الأبرص الاسدي فيعجب من ذلك ويقول : هذان ماتا في الجاهلية
 ولكن رحمة ربنا وسعت كل شيء ، التمس لقاء هذين الرجلين فأسألهما بم
 غفر لهما • فيتدي بزهير فيجده شابا كالزهرة الجنية قد وهب له قصر
 من ونية^(١٧) كأنه ما لبس جلباب هرم ولا تأفف من البرم وكأنه لم يقل
 في الميمية :

سُمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا لا أبالك يسأم
 ولم يقل في الاخرى :

ألم ترني عمرت تسعين حجة وعشرأ تباعا عشتها وثمانيا
 فيقول جبر جبر أنت أبو كعب وبجير فيقول نعم فيقول أدام الله عزه
 بم غفر لك وقد كنت في زمان الفترة والناس همل لا يحسن منهم العمل ؟
 فيقول كانت نفسي من الباطل نفورا فصادفت ملكا غفورا وكنت مؤمنا بالله
 العظيم ورأيت فيما يرى النائم جبلا نزل من السماء فمن تعلق به من
 سكان الارض سلم فعلمت أنه أمر من أمر الله فأوصيت بني وقلت لهم
 عند الموت ان قام قائم يدعوكم الى عبادة الله فأطيعوه ولو أدركت محمدا
 لكنت أول المؤمنين وقلت في الميمية والجاهلية على السكنة والسفه
 ضارب بالجيران •

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفي ومهما يكتم الله يعلم
 يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم

(١٧) الونية اللؤلؤة •

الى أن أن يقول :

ويبدو له أيّد الله مجده بالتأييد أن يصنع مآدبة في الجنان يجمع فيها
من أمكن من شعراء الخضرمة والاسلام والذين أصلوا كلام العرب
وجعلوه محفوظا في الكتب وغيرهم ممن يتأس بقليل الادب فيخطر له أن
تكون كمآدب الدار العاجلة فيقترح (أمضى القادر له اقتراحه)
أن تحضر بين يديه جوار من الحور العين يعتملن بارحاء اليد فرحى من
در ورحى من عسجد فاذا اجتمع من الطحن ما يظن انه كاف للمآدبة تفرق
خدمه من الولدان المخلدن فجاءوا بالعماريس^(١٨) وضروب الطير
وجوازل الطواويس والسمين من دجاج الرحمة وفراريج الخلد . فاذا
حصلت النحوض^(١٩) فوق الاوفاض قال زاد الله أمره من النفاذ احضروا
من في الجنة من الطهارة الساكنين بحلب على ممر الازمان فتحضر جماعة
كثيرة فيأمرهم باتخاذ الاطعمة وفيها ما تشتهيہ الانفس وتلذ الاعين وأنتم
فيها خالدون . وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون لكم فيها
فاكهة كثيرة منها تأكلون فاذا أتت الاطعمة افترق غلمانه الذين كأنهم
اللؤلؤ المكنون لاحضار المدعويين فلا يتركون في الجنة شاعرا اسلاميا ولا
مخضرميا ولا عالما بشيء من أصناف العلوم ولا متأديبا الا احضروه فيجتمع
بجّد^(٢٠) عظيم فتوضع الخون^(٢١) من الذهب والفواير من اللجين
ويجلس عليها الآكلون وتنقل اليهم الصحف فتقيم الصحيفة لديهم وهم
يصيرون مما ضمته . فاذا قضاوا الارب من الطعام جاءت السقاة بأصناف
الاشربة والمسمعات بالاصوات المطربة .

« (١٨) العماريس الجداء .

« (١٩) النحوص اللحم .

« (٢٠) البجد الخلق الكثير .

« (٢١) الخون جمع خوان .

ثم يقول : عليّ آ بمن في الجنة من المغنيات فتحضر جماعة كبيرة من رجال ونساء فيهم الغريض ومعبد وابن مسجح وابن سريج الى أن يحضر ابراهيم الموصلبي وابنه اسحاق فيقول قائل من الجماعة وقد رأى أسراب قبان قد حضرن مثل بصيص ودنانير وعنان فقال لا بد من حضور الجرداتين فيركب بعض الخدم ناقة من نوق الجنة ويذهب اليهما فتقبلان على نجيين أسرع من البرق اللامع • فإذا حصلتا في المجلس حياهما وبشربهما وقال كيف خلصتما الى دار الجنة بعدما خبطتما في الضلال فتقولان قدرت لنا التوبة ومتنا على دين الانبياء المرسلين فيقول أحسن الله اليكما اسمعانا شيئاً من القصيدة الحائية التي تروى لعبيد مرة ولاوس اخرى • وما سمعتا قط بعبيد ولا أوس فتلهمان أن تغنيا بالمطلوب فتلحنان •

ودع لميس وداع الوامق اللاحي قد فنكت (٢٢) في فساد بعد اصلاح
اذ تستيك بمصقول عوارضه حمش (٢٣) اللثات عذاب غير ملاح
كأن ريقها بعد الكرى اغتبت من ماء أدكن في الحانوت نضاح
فتطربان من سمع وتستغزان الافئدة بالسرور ويكثر حمد الله سبحانه
كما أنعم على المؤمنين والتائبين وخلصهم من دار الشقوة الى محل النعيم ••
الى أن يقول :

فهمت قوله جعلني الله فداءه لا يذهب به الى النفاق وبعد ابن آدم
من الوفاق وهذه غريزة خص بهما الشيخ دون غيره وتعايش العالم بخداع
وأضحوا من الكذب في ابداع • لو قالت شيرين الملكة لكسرى جعلني الله
فداءك في اقامة أو سُرى لخالبتة في ذلك وناقته وان راقته بالعطل ووافقته •
على أنه أخذها من حال دنيّة فجعلها في النعمى السنية وعقبه في ذلك الاحباء وجرت
لهم في ذلك قصص وأنباء • وقيل له كيف تطيب نفس الملك لهذه المومس

• فنكت لجت (٢٢)

• شفاف رقيقة (٢٣)

وهي الوالجة في المنس فضرب لهم المثل بالقدح واذا حظيت الغاية فليست
 بالمفتقرة الى الصدح^(٢٤) جعل في الاناء الشعر والدم وقال للحاضر ولا ندم •
 أتجيب نفسك لشرب ما فيه وانما يجنح الى تلافيه فقال : انها لا تطيب وهي
 بالانجاس قطيب^(٢٥) فأراق ذلك الشيء وغسله وهذب وعاءه ثم غسله
 وجعل فيه من بعد مداها وعرضها على الندامي فكلهم بهش^(٢٦) أن يشرب
 ومن يعاف العاتقة^(٢٧) والغرب^(٢٨) فقال هذا مثل شيرين فلا تكونوا في
 السفه مسيرين كم من شبل نافق أسدا وأضمر له غلا وحسدا ولبوءة
 تداجي هرماسا^(٢٩) تنبذ اليه المقة وتبغض له لباسا وضيغم تقم على فرهود
 وود لو دفنه بالوهود • وكم خالبت الذئب السلق وفي الضمائر تكن
 الفلق^(٣٠) الى أن يقول :

وأول ما سمعت بأخبار الشيخ أدام الله تأثيل الفضل ببقائه من رجل
 واسطي يتعرض لعلم العروض ذكر انه شاهده بنصيين وفيها رجل يعرف
 بأبي الحسين البصري معلما لبعض العلوية • وكان غلام يختلف اليه يعرف
 بابن الدان وقد اجتاز الشيخ بلدنا والواسطي يومئذ فيه • وقد شاهدت
 عند أبي أحمد عبدالسلام بن الحسين المعروف بالواجكا رحمه الله فلقد
 كان من أحرار الناس كتبها عليها سماع^٢ لرجل من أهل حلب وما أشك أنه
 الشيخ أيد الله شخصه بالتوفيق وهو أشهر من الابلق^(٣١) العقوق لا يفتقر

-
- (٢٤) الصدح خرزة يستعطف بها الرجال
 - (٢٥) القطيب الشراب الممزج
 - (٢٦) بهش أقبل اليه بسرور
 - (٢٧) العاتقة الخمر
 - (٢٨) الغرب العسل الابيض الغليظ
 - (٢٩) الهرماس الشديد من الاسود
 - (٣٠) الفلق جمع فلقه بكسر فسكون وهي الداھية
 - (٣١) الابلق نوع من الطير

الى تعريف بالقريض بل يصدق شرفه بغير التعريض •

الى أن يقول :

وأما العلماء الذين لقيهم الشيخ فاولئك مصابيح الناجية وكواكب الداجية وان في النظر اليهم لشرفا فكيف بمن اغترف من كل بحر وجد غرفا ، وانما أقول ذلك على الاقتصار ولعله قد نَزَفَ بحارهم بالقلم والفهم وفتحوا له أغلاق البُهَم (٣٢) فأخذ عن الكتّاني سور التنزيل وفاز بثواب جزيل فكأنما لقنه اياها الرسول وبدون تلك الدرجة يبلغ السؤل أو أخذها عن جبرئيل فلا غير ولا تبديل وسهلوا له ما صعب من جبال العربية فصارت حزونة كتاب سيويه عنده كالدمام (٣٣) وغني في اللجج عن ركوب الارماث (٣٤) وأما انجيازه الى أبي الحسن رحمه الله فقد كان ذلك الرجل سيدا ولمن ضعف من أهل الادب مؤيدا ولمن قوى منهم وادّا ودونه للنوب مُحادا وكان كما قال القائل •

واذا رأيت صديقه وشقيقه لم تدر أيهما ذوو الارحام

وكما قال الطائي :

كل شعب كنتم به آل وهب فهو شعبي وشعب كل أديب

والمثل السائر (على أهلها جنت براقش) •

وقد علم الله أنني لا في العير ولا في النفير ومن للجارمة بالتكفير •
كلما رغبت في الخمول قدّر لي غير المأمول • كان حق الشيخ اذا أقام في معرة النعمان سنة ان لا يسمع لي بذكر ولا أخطر له على فكر ، والآن فقد غمرني أفضاله وأظلني دوح أدبه لا ضاله ، وجائتي منه فرائد لو

(٣٢) البهم المشكلات •

(٣٣) الدمام الشيء السهل •

(٣٤) الارماث جمع رمث وهو بقية اللبن في الضرع •

تمثلت الواحدة منها تومة^(٣٥) لم تكن بالصحف مكتومة • وهو أدام الله
عز الادب بحياته كريم الطبع والكريم يخدع ، ومن سمع جاز أن يخال
والجندل لا ينتج الرخال •

وأما ما ذكر من ميله في مصر الى بعض اللذات فهو يعرف الحديث ،
أريحوا القلوب تع الذكر • وكان ينبغي أن يكون في هذا الوقت يضبط
ما معه من الادب بدرس من يدرس عليه اذ كانت السن لا بد لها من تأثير
وان ترمى بقله كل كثير ولكن فطرتة الفاردة تفرق ونفسه اذا برد
يحرق • وقال رجل من قریش :

لله دري حين أدركني البلى على ايما تأتي الحوادث أندم
ألم أجتل البيضاء يبرق حجلها لها بشر صاف ووجه مقسم

ولعله قد قضى الارب من ذلك كله والاشياء لها أواخر وانما العاجلة
سراب ساخر •

ويختم رسالته بقوله :

وأنا أعتذر الى مولاي الشيخ الجليل من تأخير الاجابة فان عوائق
الزمن منعت من املاء السوداء كأنها سوداء التي عناها القائل :

نبئت سوداء تنائي وأتبعها

لقد تباعد شكلانا وما اقتربا
وجدتها في شبابي غير مطلبة

فكيف والرأس جَوْنٌ تُسَعِفُ الطلبا
وأنا مستطيع بغيري فاذا غاب الكاتب فلا أملاء ولا ينكر الاطالة علي
فان الخالص من التضار العين طالما اشترى بأضعافه من اللجين •

وعلى حضرته الجليلة سلام يتبع قرومه إفالته وتلحق بعوذه أطفاله
وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله الطاهرين
وسلم •

(٣٥) التومة حبة الفضة •

الفصل الثاني عشر

كتاب عبث الوليد

عبث الوليد اسم لكتاب أملاء فيلسوف المعرة أبو العلاء التنوخي في شرح شعر البحتري . وقد قال عنه أهل العلم انه ثروة لغوية وان فيه دراسة تحليلية نقدية ولقد أتى عليه الاديب محمد عبدالله المدني الذي علق على هذا الكتاب فقال (بحسبك أيها الباحث عن كنوز الاقدمين وتراث الاوائل من المعارف والفنون أن تعلم أن هذا السفر هو أمالي أبي العلاء ونتيجة أبحاثه وخلاصة عمره ولباب فكره وانه وان صغر حجما فقد يحوى به التحوي الاماني ويجد فيه الراغب في اللغة جمهرة من المفردات وينال منه الصرفي مسائل كافية شافية لعلته ويتبين فيه البياني كيف يسبك المعنى الواحد في أساليب مختلفة بأرق عبارة وأرقى اسلوب ولا يعرض عنه العروضي لجذاب فوائده ونوادير فرائده الى غير ذلك مما لا يدرك الا بمطالعه ومتابعة دراسته) .

وقد قام بنشره السيد أسعد طرابزونى المدني بأشراف عالم الحجاز الشيخ محمد الطيب الانصارى .

وفي الكتاب مقدمتان الاولى لامير البيان شبيب أرسلان والثانية للكاتب الكبير الدكتور محمد حسين هيكل . وقد أهداه صاحب التعليق الاستاذ محمد عبدالله المدني الى عاهل المملكة العربية السعودية عبدالعزيز آل سعود .

وفي الكتاب ترجمتان موجزتان الاولى تاريخ حياة البحتري والثانية تاريخ حياة أبي العلاء المعري .

أما شرح المعري لشعر البحتري فلم يكن شرحا بالمعنى المعروف

لدينا اليوم وانما هو عبارة عن ملاحظات كان أبو العلاء يبديها على بعض شعر البحري فينتقد ويستحسن ويرفع ويخفض ويشرح ما يعتقد خافيا على الجمهور ويبين مفارقات وموافقات ويشير الى ما أخذه الناس على الشاعر فيوافقهم أو يرد كلامهم (١) .

وهكذا يجري شيخ المعرفة في شرحه ونقده لابي عبادة البحري في كتابه عبث الوليد .

وها أنا أورد نمطا من تلكم الابحاث ليكون القارىء على بينة من الامر .

أتى أبو العلاء بيت من قصيدة مطلعها :

زعم الغراب منبيء الانبياء ان الاجبة آذنوا بتثاني

أما البيت الذي نقده أبو العلاء فهو قوله :

فلعلني ألقى الردي فيريحني عما قليل من جوى البرحاء

فقال : الاكثر في كلامهم (لعلني) وبها جاء القرآن . وربما جاء

لعلني . ومنهم من ينشد لانني وهو بمعنى لعلني .

وكقوله :

ما زلت تفرع باب بابك بالقنا وتزوره في غارة شعواء

كانت الرءاء في تزوره مفتوحة . وذلك غلط . لان الواو هنا لا يجوز

نصب ما بعدها اذ كانت ليست في أحد الوجود التي يجوز فيها النصب مثل

قوله (لا يسعني شيء ويضيق عنك) .

ثم ينتقل أبو العلاء الى حرف الياء مبتدأ بالقصيدة التي أولها :

رأى البرق مجتازا فبات بلا لب وأصابه من ذكر البخيلة ما يصبي

(١) عن نسخة واحدة في مكتبة المتحف العراقي ولم يوجد غيرها في

مكتبات بغداد .

فيأخذ من هذه القصيدة قوله :

كريم اذا ضاق اللثام فانه يضع الفضاء الرحب في صدره الرحب
فيقول كان في النسخة (يضيق الفضاء الرحب في صدره الرحب)
وقد يحتمل هذا المعنى على أن تكون كلمة (في) مؤدية معنى كلمة (عند) كأنه
يضيق الفضاء الرحب اذا قيس بصدرة • ويضيق أبلغ في المعنى • وانما
تعرض لقول حبيب ابن أوس •
ورحب صدر لو أن الارض واسعة كوسعها لم يضق عن أهله بلد
وكقوله :

له سلف في آل فيروز برزوا على العجم وانقادت له جملة العرب
كانت في الاصل حفلة العرب بالفاء وفي الحاشية جملة العرب •
وكلتا الروايتين لا تمتع • والاجود أن يقال جملة العرب أي جمعهم •
وكقوله :

'يكبون من فوق القرايس' (٢) بالقنا وبالبيض تلقاهم قياما على الركب
هكذا كانت في النسخة بفتح الياء والصواب 'يكبون بضم الياء من أكب
لان عجز البيت يدل على ذلك • يريد انهم يمدون أيديهم بالقنا ويعتمدون في
اصوله فيكبون فوق القرايس • واكب غير معتمد يقال كيبته لوجهه وأكب
هو وانما أراد مقابلة الاكباب بالقيام •
وكقوله :

سقياً لمجلسنا الذي آنته واها لمجلسنا الذي اوحتته
يقول أبو العلاء لو أمكنت واو العطف في أول نصفه الثاني لكان

(٢) القرايس جمع قربوس وهو الجزء المنحني من سرج الفرس امام
الراكب •

أمكن للكلام لانهم يؤثرون أن تكون الجملة الثانية معطوفة على الاولى.
الا أن ترك حرفا لا اختلاف في جوازه • ويدل على أن دخوله أحسن.
كقول أبي ذؤيب •

امن المنون وريبها تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع
فدخول الواو هنا أحسن من أن يقول (الدهر ليس بمعتب من
يجزع) وان كان ذلك جائزا • ومن ذلك قول الآخر •

انما أهلك جيران لنا انما نحن وهم شيء أحد
وكقوله :

سأرحل عنك معتصما بيأس وأفنع بالذي لي فيه قوت
وآمل دولة الايام حتى تجيء بما أومل أو أموت
الاجود أن ترفع تجيء على مذهب من رفع في قول امرئ القيس :
مطوت بهم حتى تكل غزاتهم وحتى الجياد ما يقدن بارسان
وعلى قراءة من قرأ حتى يقول الرسول • ويجوز ان تنصب تجيء
ويجعل قوله أو أموت عطفا على قوله وآمل •

وعلى هذا النمط من البحث والنقد يجرى أبو العلاء في كتابه (عبث
الوليد) حتى يأتي على جميع الاشعار التي أراد نقدها •

الى هنا أقف في الكلام على ما جاء في الكتاب المذكور لان الغرض منه
هو اعطاء صورة موجزة عنه وعن التعريف به وليس الغرض من دراسته
سرد جميع ما جاء في الكتاب • هذا من جهة ومن جهة اخرى لثلا ينفذ جهد الطلاب
في كتاب واحد من عشرات الكتب التي يجمل الاطلاع عليها •

الفصل الثالث عشر

هناك نقاد آخرون برعوا في فن النقد الادبي براعة فائقة لا يصح اغفالهم لما لهم من اثر في تطوير النقد وما لكتبهم من قيمة أدبية وفنية .
بولاتمام دراستنا هذه رأينا ان نواصل مسيرتنا في الاطلاع على مظان هذا الفن حتى نبلغ المدى الذي بلغه أسلافنا ونوصل ماضيينا بحاضرنا .
وبذلك نستطيع أن نقول اننا الممنا بأهم المصادر النقدية وأشرفنا على جانب مهم منها .

ابن شهيد

المولود سنة ٣٨٢ هـ

هو أبو عامر أحمد بن عبدالمك ، وهو حفيد ابن شهيد وزير الناصر عبدالرحمن الاموي . ورث عن أجداده الغرام بمظاهر الصبوة والفتوة، والشغف بملاعب الحسن والجمال . غير انه لم يقدر له أن يظفر بما ظفر به أجداده من أسباب الجاه والمال والملك ، لأن ثِقَلَ سمعه حجبته عن الاتصال بالملوك ، ولكنه انقاد لشبابه وهواه ، وأسلم زمامه لظفرته وطبعه ، فجاء شعره ونثره في أعلى درجات البيان .

والعيش في عرف أبي عامر هذا هو مجموعة من الحسن والخمر والادب . فما الحياة عنده الا وجه أصبح أو كأس مترعة أو رسالة أنيقة أو قصيدة بديعة فان خلت الدنيا من بعض ذلك فهي لغو وفضول ، وعيش الاديب فيها عبء ثقيل (١) .

(١) كتاب النثر الفني ج ٢ ص ٣٠٣ .

ولقد كان لهذا الاتجاه أثر كبير في أدب ابن شهيد فجاء صورة
صادقة لحياته في اللهو والتصابي في الحب والغزل • أليس هو القائل :

أصفيح شيم أم برق بدا أم سنا المحبوب اورى زندا
يمسح النعسة من عيني رشا صائد من كل يوم أسدا
كاد أن يرجع من لثمي له وارثافي الثغر منى ادردا
شربت أعطافه خمر الصبا وثناه الحسن حتى عربدا
وإذا استعجزت يوماً وعده قال لي بمطل ذكرني غدا
قام في الليل بجيد أتلع ينفض اللمة مع دمع الندى
أحتت من عضتي في نهدها ثم عضت حرّ خدى عمدا
فانا المجروح من عضتها لا شفاني الله منها أبدا^(٣)

وكان مع كثرة مبالغته في الادب المكشوف كريم النفس
محمود الخلال حتى لتراه أشرف الناس اذ يقول^(٤) :

ان الكريم اذا نالته مخصصة
أبدى الى الناس ربا وهو ظمان
يحنى الضلوع على مثل اللطى حرقا
والوجه غمر بماء البشر ملآن
أو حين يقول :

المت بالحب حتى لو دنا أجلي
لما وجدت لطمع الموت من السم
كلا الندى والهوى قديماً ولعت به
ويئلي من الحب أو ويئلي من الكرم

(٣) كتاب المغرب في حلى المغرب ج ١ ص ٨٠٢ •

(٤) النشر الفني ج ٢ ص ٣٠٤ •

غير ان انغماره فى تيار الهوى أورثه سقما أفعده عن الحركة ولازمه
ملازمة شديدة حتى غلب عليه الفالج فلم يعد يقوى على المشي الى حاجته
الا معتمدا على عصا مرة وعلى انسان مرة اخرى حتى صار قبل وفاته بعشرين
يوما حجرا لا يبرح ولا يتقلب ولا يحتمل تحريك جسمه لشدة أوجاعه •
مع ضغط الانفاس وقلة الصبر حتى هم بالانتحار •

قال يصف حاله عند آخر عمره :

تأملت ما أفنيت من طول مدتي

فلم أره الا كلمحة ناظر

وحصلت ما أدركت من طول لذتي

فلم فيه الا كصفحة خاسر

وما أنا الا رهن ما قدمت يدي

اذا خلفوني بين أهل المقابر

سقى الله فتيانا كأن وجوههم

وجوه مصابيح النجوم الزواهر

يقولون قد أودى أبو عامر العلا

اقتلوا فقدماً مات ابناء عامر

هو الموت لم يُصرف بأسجاع خاطب

بليغ ولم يُعطف بأنفاس شاعر

وليس عجيباً أن تدانت منيتي

يصدق فيها اولي امرّ اخرى

ولكن عجيب أن بين جوانحي

هوى كشرار الجمرة المتطاير

يحركني والموت يحفز مهجتي

ويحتاجني والنفس عند حاجري^(٥)

قال ابن بسام في صفة ابن شهيد^(٦) وكان أبو عامر شيخ الحضرة
وفتاها ومبدأ الغاية القصوى ومنتهاها وينبوع آياتها ومادة حياتها وحقيقة ذاتها
وابن ساستها وأساتها ومعنى أسمائها ومسمياتها نادرة الفلك الدوار واعجوبة
الليل والنهار ان هزل فسجع الحمام أوجد فزئير الأسد الضرغام نظم كما
اتسق الدر على النحور ونثر كما خلط المسك بالكافور الى نوادر كأطراف
القنا الاملود تشق القلوب قبل الجلود وجواب يجرى مجرى النفس ويسبق
رجع الطرف المختلس .

وقال صاحب الذخيرة ان أبا مروان بن حيان قد ذكر ابن شهيد في
غير ما موضع في كتابه فقال :

كان أبو عامر يبلغ المعنى ولا يعطيل سفر الكلام . واذا تأملته ولسنه
وكيف يجزى في البلاغة رسنه قلت عبدالحميد في أوانه والجاحظ في
زمانه . والعجب منه انه كان يدعو قريحته الى ما شاء من نثره ونظمه في
بديته ورويته فيقود الكلام كما يريد من غير اقتناء للكتب ولا اعتناء بالطلب
ولا رسوخ في الادب فانه لم يوجد له - رحمه الله - فيما بلغني بعد موته
كتاب يستعين به على صناعته ويشجذ من طبعه الا ما لا قدر له . فزاد ذلك
في عجائبه واعجاز بدائمه . وكان في تنسيق الهزل والنادرة الحارة أقدر
منه على سائر ذلك ، وشعره حسن عند أهل النقد تصرف فيه تصرف
المطبوعين فلم يقصر عن غايتهم .

وله رسائل كثيرة في فنون الفكاهة وأنواع التعريض والأهزال

(٥) كتاب النشر الفني ج ٢ ص ٣٠٧ .

(٦) كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، المجلد الاول ص ١٦١ .

قصار وطوال ، برّز فيها شأوه وبقاها في الناس خالدة بعده . وكان في سرعة البديهة وحضور الجواب وحِدته مع رقة حواشي كلامه وسهولة الفاظه وبراعة أوصافه ونزاهة شمائله وخلاتقه آية من آيات الله خالقه . (٧)

نثر ابن شهيد

لابن شهيد نثر فني رائع كثر أهل زمانه يعني بالمفردات النادرة والتراكيب المختارة ينحو فيها منحى أهل البديع يسجع حيناً ويترسل أحياناً يطابق ويقابل ويورّي ويجانس ويخلط الهزل بالجد والجد بالهزل . تجد كل ذلك واضحاً مرسوماً في جميع كتاباته ورسائله الى مؤيديه ومعارضيه ومجيبه وحاسديه .

ومن ثمره الذي اشتهر به رسالته المسماة بالتوابع والزوابع . انشأها بشكل محاوراة بينه وبين عالم الجن وساقها مساق الهزل المشوب بالجد . وهي رسالة بارعة ودالة على مبلغ فضله واصالة أدبه وسعة اطلاعه .

يرى الدكتور زكي مبارك أن هناك تشابهاً كبيراً بين رسالة التوابع والزوابع - لابن شهيد - وبين رسالة الغفران « لأبي العلاء المعري » . إذ يرى ان موضوع الرسالتين واحد وهو عرض المشاكل الادبية والعقلية بطريقة قصصية . والخلاف في جوهر الموضوع يرجع الى روح الكاتبين . فأبو العلاء يحرص أولاً وقبل كل شيء على عرض المشاكل الدينية والفلسفية ، وابن شهيد يحرص على عرض المشكلات الادبية والبيانية . ويتفق كلا الرجلين على التعريض بمعاصريه وشرح ما أخذ على المتقدمين من أساطين العقل والبيان . والمسرح واحد تقريباً فهو عند ابن شهيد وادى الجن في الدنيا وهو عند أبي العلاء وادى الانس في الآخرة ،

(٧) كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، المجلد الاول ، ص ١٦٢ .

أى الفردوس والجحيم فالممثلون عند ابن شهيد جنّ يسخرون الناس
وعند أبي العلاء إنس تسخرهم الملائكة والشياطين ، وكان لكل إنسان في
عرفهم ملك وشيطان^(٨) .

ووجه ابن شهيد رسالته التوابع والزوابع الى أبي بكر بن حزم
فقال له في صدرها :

لله أبا بكر ظن رميته فأصميت وحدث أملتة فما اشويت ، أبدت
بها وجه الجليّة وكشفت عن غرة الحقيقة حين لمحت صاحبك الذي
تكسبته ورأيتة قد أخذ بأطراف السماء فألف ونظّم فرقدّ بها فكلمها
رأى تغرا سدّ بسُهاها أو ملح خرقا رمة بزبانها فقلت كيف أوتى الحكم
صيا وهزّ بجذع نخلة الكلام فاستأقط عليه رطباً جنياً . أما أن به شيطاناً
يهديه وشيصباناً يأتيه . وأقسم أن له تابعة تنجده وزابعة تؤيده ليس هذا
في قدرة الانس ولا هذا النفس لهذه النفس فأما وقد قلنتها أبا بكر
فاصخّ أسمعك العجب العجائب .

كنت أيام كتاب الهجاء احن الى الادباء وأصبو الى تأليف الكلام ،
فاتبعت الدواوين وجلست الى الاساتيد فنبض لي عرق الفهم ودرّ لي
شريان العلم بمواد روحانية . وقليل الاتمام من النظر يزيدني ويسير
المطالعة من الكتب يفيدني اذ صادف شنّ العلم طبقة . ولم أكن كالتلج
تقبس منه نارا ولا كالحمار يحمل أسفارا فطغنت ثغرة البيان دراكا
وأعلقت رجلاً طيره اشراكا فاثالت لي العجائب وانهاالت عليّ الرغائب
وكان لي أوائل صبوتي هوى اشتد به كلفني ثم لحقني بعد ملل في أثناء
ذلك الميل ، فاتفق ان مات من كنت أهواه مدة ذلك الملل فجزعت وأخذت
في رثائه يوماً في الحائر وقد أبهمت عليّ أبوابه وانفردت فقلت :

(٨) كتاب النشر الفني الجزء الاول ، ص ٣٦٠ .

تولى الحِمام بظبي الخدور وفاز الردى بالغزال الغرير

الى أن انهيت الى الاعتذار من الممل الذى كان ، فقلت :

و كنت مملتك لا عن قلى ولا عن فساد جرى في الضمير

فارتج عليّ القول وأُفحِمتُ ، فاذا أنا بفارس بباب المجلس على فرس .
أدهم كأنما بقل وجهه قد اتكأ على رمحه وصاح بي أعجز يا فتى ؟ قلت .
لا وأبيك . للكلام أحيان وهذا شأن الانسان . قال لي قل بعده .

كمثل ملال الفتى للنعيم اذا دام فيه وحال السرور

فأبت اجزته ، وقلت له : بأبي أنت ، من أنت ؟ قال : أنا زهير بن
نمير من أشجع الجن ، فقلت : وما الذى حداك الى التصور لي ؟ فقال هوى
فيك ورغبة في اصطفاك . قلت : أهلا بك أيها الوجه الواضح صادفت قلبا
اليك مقلوبا وهوى نحوك مجنوبا وتحادثنا حيناً ثم قال : متى شئت
استحضاري فأنشد هذه الايات :

والي زهير الحب يعزّ انه

اذا ذكرته الذاكرات أناها

اذا جرت الأفواه يوما بذكرها

يخيّل لي اني اقبل فاهها

فاغشى ديار الذاكرين وان نأت

اجارع من دارى هوى لهواها

وأوثب الادهم جدار الحائط ثم غاب عني . وكنت أبا بكر متى أرتج
عليّ أو انقطع بي مسلك أو خذني اسلوب أنشد الايات فيمثل لي
صاحبي فأسير الى ما أرغب وأدرك بقريحتي ما أطلب . وتأكدت صحبتنا ،
وجرت قصص لولا أن يطول الكتاب لذكرت أكثرها لكنى ذاكراً بعضها .

فصل من رسالة التوابع والزوابع

تذاكرت يوماً مع زهير بن نمير أخبار الخطباء والشعراء ، وما كان
يألفهم من التوابع والزوابع . وقلت هل حيلة في لقاء من اتفق منهم ؟ قال :
حتى استأذن شيخنا وطار عني ثم انصرف كالمح بالبحر وقد أذن له ،
فقال : حلّ على متن الجواد فصرنا عليه وسار بنا كالطائر يجتاب الجوّ
فالجوّ ويقطع الدوّ فالدوّ حتى التمحت أرضا لا كأرضنا وشارفت
جوا لا كجونا متفرع الشجر عطر الزهر فقال لي : حللت أرض الجن
أبا عامر . فمن تريد أن تبدأ قلت الخطباء اولى بالتقديم لكنني الى الشعراء
أشوق ، قال فمن تريد منهم ؟ قلت صاحب امرى القيس . فأمال العنان
الى وادي من الاودية ذى روح تكسر أشجاره وترنم أطيّاره فصاح
يا عنيّة بن نوفل ، بسقط الموى فحومل ويوم دارة جلدجل . الا ما عرضت
علينا وجهك وأنشدتنا من شعرك وسمعت من الانسي وعرفتنا كيف
اجازتك له ! فظهر لنا فارس على فرس شقراء كأنها تلتهب فقال : حينك الله
يا زهير وحيّا صاحبك ، أهذا فتاهم ؟ قلت هو هذا ، وأى جمرة يا عنيّة .
فقال لي انشدك فقلت السيد اولى بالانشاد . فتطارح طرفه واهتز عطفه
وقبض عنان الشقراء وضربها بالسوط فسمت تحضير طولاً غنا وكرراً
فاستقبلنا بالصعدة هازا لها . ثم ركزها وجعل ينشد :

سما لك شوق بعدما كان أقصرا

حتى أكملها ثم قال لي : أنشد فهمت بالحبيصة ثم اشتدت قوى نفسي
وأنشدت :

حتى انتهيت فيها الى قولي :

ومن قبة لا يدرك الطرف رأسها

تنزل بها ريح الصبا فتحدر

تكلّفها والليل قد جاش بحره
وقد جعلت أمواجه تكسر
ومن تحتِ حِصني أبيضٍ ذو سفاسق
وفي الكف من عسالة الخط أسمر
هما صاحباي من لادن كنت يافعا
مقيلانٍ من جدّ الفتى حين يعثر
فذا جدول في الغمّد تُسقى به المنى
وذا غُصنٌ في الكف يُجنّي فيشمير
فلما انتهيت تأملني عتبه ثم قال: اذهب فقد اجزتك وغاب عنا •

وهكذا يجري ابن شهيد راكبا خلف صاحبه الجني زهير بن نمير
على فرسه الأدهم ينتقلان من واد الى واد ومن غيضة الى غيضة ومن مرج
الى مرج فيمر ركبهما بشياطين الشعراء والخطباء ويقفان عند كل واحد منهم
يتناشدان الأشعار ويتبادلان الخطب فينتزع أبو عامر منهم اعترافا بشاعريته
واجازةً بتفوقه في رسائله • ولولا الاطالة في الكلام لسقنا رسالة التوابع
والزوابع بالتمام •

الثعالبي

المتوفى في ٤٢٩ هـ •

هو أبو منصور عبدالمكّ محمد بن اسماعيل النيسابوري الثعالبي ،
لقب بذلك لأنه كان فراء بجلد الثعالب • وهو خاتمة مترسلي عصره وأهم
ادبائه ، لانه كان أكثرهم آثارا وأوسعهم مادة • وهو الذي ترجمهم وذكر
أخبارهم ، وكان في عصره المشار اليه وراعى تلعات العلم وجامع أشتات
الشر والنظم ورأس المؤلفين وامام المصنفين وخصوصا في الشعر والشعراء
والادب والادباء • وله شعر مطبوع • ومن نظمه في وصف الفرس قوله •

يا واهب الطرف الجواد كأنما قد أنعلوه بالرياح الأربع
لا شيء أسرع منه الا خاطري في وصف نائلك اللطيف الموقع
ولو انني أنصفت في اكرامه لجلال مهديه الكريم الاممي
أفضمته حبّ الفؤاد لوجه وجعلت مربطه سواد المدمع
وخلعت ثم قطعت غير مضيع برّد الشباب لجله والبرقع

وله كتب كثيرة في موضوعات مختلفة هاك ما بقي عندنا منها :

١ - يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر تشتمل على أخبار شعراء المئة
الرابعة للهجرة وهو العصر العباسي الثالث في أربعة مجلدات وجعله
أبوابا ، وجعل لكل اقليم بابا منها •

٢ - لطائف المعارف : هو جزييل الفائدة في موضوعه لأنه يشتمل على
فوائد لا تنال الا بمطالعة الكتب الكثيرة • أولها باب الاوائل من كل
شيء • كقوله أول من جلس على سرير من ملوك العرب ، وأول
من كسا الكعبة بالحرير ••• الخ •

٣ - فقه اللغة : وهو معجم معنوي جمعت فيه المعاني المتقاربة أو المترابطة
في باب واحد مع بيان الفرق بينها أو تدرجها أو تفرعها مما يفتقر الى
درس طويل • وذكر في المقدمة أسماء اللغويين والرواة والنحاة
الذين عوّل عليهم •

٤ - الاعجاز والايجاز •

٥ - نثر النظم أو حل العقد : هو عبارة عن تحويل الشعر المنظوم الى
شعر منثور •

٦ - ثمار القلوب في المضاف والمنسوب : وهو كتاب أدب وفيه فوائد
تاريخية على اسلوب خاص به لانه مقسوم الى فصول باعتبار أشياء
مضافة الى أشياء اخرى يتمثل بها ويكثر استعمالها في النظم والنثر

على ألسنة العامة والخاصة ، كقولهم غراب نوح وذئب يوسف
وعصا موسى ...

وقد أحصى الاستاذ جرجي زيدان أن له ستة وثلاثين كتابا في كتابه
تاريخ آداب اللغة العربية • (الجزء الثاني) • ص (٢٧٦ و ٢٨٤)
ومن آرائه التي ذكرها في مقدمة كتابه يتيمة الدهر في الشئون الادبية قوله:
ان أشعار الاسلاميين أرق من أشعار الجاهليين ، وأشعار المحدثين اللطيف
من أشعار المتقدمين ، وأشعار المولدين أبدع من أشعار المحدثين • وكانت
أشعار العصريين أجمع لنوادير المحاسن ، وانظم للطوائف البدائع من أشعار
المذكورين لانتهاؤها الى أبعد غايات الحسن ، وبلوغها أقصى نهايات الجودة
والظرف ، تكاد تخرج من باب الاعجاب الى الاعجاز ، ومن حد الشعر
الى السحر ، فكان الزمان ادخر لنا من نتائج خواطيرهم ، وثمرات
قرائحهم ، وابكار أفكارهم أتم الالفاظ والمعاني استيفاء لأقسام البراعة ،
وأوفرها نصيبا في كمال الصنعة ، ورونق الطلاوة :

ولذلك قد ساد النبي محمد " كل الانام وكان آخر مرسل

وطريقته في تأليف كتاب اليتيمة انه قسمه الى أقسام ، وجعل الباب
الاول من القسم الاول في فضائل شعراء الشام على شعراء سائر البلدان مع
ذكر العلل والاسباب ، وجعل في الباب الثاني أخبار سيف الدولة وملح
من أشعاره • وهكذا يفعل في كل من تناوله من الشعراء والادباء • حتى
يستوفى ما أراد ويحصل به المراد •

ومن فضائل هذا الكتاب انه جمع فأوعى واختار فأحسن المختار
فكانه دائرة معارف لشعراء وادباء العصر الذي عاش فيه ، على رغم ما تخلله
من فاحش الشعر ومبازل الشر • مما يستقبحه أهل الدين ويستملحه اولو
الادب •

ابن رشيق القيرواني

وكتابه العُمدة

هو الحسن بن رشيق رومي الاصل قيرواني النشأة ولد بالمسيطة وقرأ
الادب بالمحمدية • ولما تأقت نفسه الى التزيد من الادب وملاقة أهله رحل
الى القيروان فاشتهر بها ومدح صاحبها المعز الفاطمي • ولما هاجمها العرب
انتقل الى مازر وهي قرية في جزيرة صقلية الى أن مات سنة ٤٦٣هـ (٩) •

تأدب ابن رشيق على أبي عبدالله بن جعفر القزاز القيرواني النحوي
المقوي وعلى غيره من مشايخ القيروان فنشأ شاعرا بليغا ولغويا حاذقا ونحويا
متقنا وعروضيا مفتنا ••• ومن شعره الذي امتدح به المعز بن باديس بن
المنصور قوله: (١٠)

يابن الاعزة من أكابر حمير وسلالة الاملاك من قحطان
من كل أبلج واضح بلسانه يضع السيوف مواضع التيجان
ومن شعره الذي أدخله في خدمة ديوان المعز قوله :

لذن الرماح لما يسقى أستها
من مهجة القيل أو من ثغرة البطل
لو أثمرت من دم الاعداء سمرقنا
لأورقت عنده سمر القنا الذبل
إذا توجه في اولى كتابه
لم تفرق العين بين السهل والجبل

(٩) ترجمته عن المحلل السندسية •

(١٠) معجم الادباء ج ٨ ص ١١٠ •

فالجيش ينفض حويله أسته نفض العقاب جناحيه من البلل
يأتي الامور على رفق وفي دعة عجلان كالفلك الدوار في مهل
وأشد لنفسه :

أحب أخي وان اعرضت عنه وقل على مسامعه كلامي
ولي في وجهه تقطيب راض كما تطبت في وجه المدام
وربّ تجهّم من غير بغض وضغن كامن تحت ابتسام
وقال في وصف ليلة من ليالي العمر :

ومن حسنات الدهر عندي ليلة من العمر لم تترك لأيامها ذبا
خلونا بها نفي القذا عن عيوننا بلؤلؤة مملوءة ذهباً سكباً
ومنا لتقييل الثغور ولثمها كميل جناح الطير يلتقط الحباً
ولأبن رشيق مؤلفات كثيرة اشهرها واهمها :

١ - كتاب العمدة ، يبحث في صناعة الشعر ونقده وعيوبه وهو اجل
كتاب في هذا الموضوع يقسمه الى أبواب في فضل الشعر واشعار
الخلفاء والقضاة والفقهاء ، ومن رفعه الشعر ووضعه ، ومن قضى له
وقضى عليه ، واحتماء القبائل بشعرائها ، والتكسب بالشعر ، ومنافعه
ومضاره ، والمقلين من الشعراء ، وحدود الشعر واوازنه وبحوره ،
والبلاغة والايجاز والاستعارة ، والشعر المطبوع والمصنوع في
الاوزان والقوافي في البديهة والارتجال وآداب الشاعر ، وفي
آخره فصول في النسب وأيام العرب وملوك العرب ، وفي خلاله
طائفة من احسن الاشعار وتحليلها ومعانيها على طريق الانتقاد .

قال ابن خلدون : ان كتاب العمدة هو الكتاب الذي انفرد بهذه
الصناعة وأعطاهها حقها ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله . طبع
في القاهرة في جزئين سنة ١٩٠٠ .

٢ - كتاب قراضة الذهب في نقد أشعار العرب . . منه نسخة خطية في باريس . وقد ضاعت سائر كتبه (١١) .

رجع الى كتاب العمدة في محاسن الشعر وآدابه

كتاب العمدة هو من تأليف الحسن بن رشيق القيرواني ، جعله في جزئين وضمن الجزء الاول منهما ٤٤ بابا . أهم هذه الابواب

- ١ - باب في فضل الشعر . ٢ - في الرد على من يكره الشعر .
- ٣ - باب في اشعار الخلفاء والقضاة والفقهاء . ٤ - باب من رفعه الشعر ومن وضعه . ٥ - باب من قضى له الشعر ، ومن قضى عليه .
- ٦ - باب احتماء القبائل بشعرائها . ٧ - باب في منافع الشعر ومضاره .
- ٨ - باب التكسب بالشعر والانفة منه . ٩ - باب حد الشعر وبنيته .
- ١٠ - باب في حد اللفظ والمعنى . ١١ - باب في المطبوع والمصنوع .
- ١٢ - باب في آداب الشاعر . ١٣ - باب عمل الشعر وشحنه القريحة له . ١٤ - باب المخترع والبديع . وبقية الابواب تبحث في موضوعات بلاغية وعروضية مبثوثة في الكتب الخاصة في هذين العلمين .

اقتصرت البحث على ذكر هذه الابواب لعلاقتها بابحاث النقد الادبي كما اني اخترت من هذه الابواب المختارة بعضها لضرورة الاطلاع عليها .
ومما تجب الاشارة اليه ان كتاب العمدة قد حققه وعلق حواشيه العلامة محمد محيي الدين عبدالحميد المدرس في كلية اللغة العربية بالجامع الازهر . الذي اتنى على هذا الكتاب فقال : هو الكتاب الذي جمع احسن

(١١) ملخص عن كتاب العمدة نفسه ومن كتاب تاريخ آداب اللغة العربية ،
لجرجي زيدان ج ٢ ، ص ٢٨٨ .

ما قاله كل واحد ممن صنف في معاني الشعر ومحاسنه وآدابه ، وعود
مؤلفه على قريحة نفسه ونتيجة خاطره خوف التكرار ، ورجاء الاختصار .

قال في باب فضل الشعر : العرب افضل الامم ، وحكمتها اشرف
الحكم لفضل اللسان على اليد ، والبعد عن امتهان الجسد ، حيث خروج
الحكمة عن الذات بمشاركة الآلات ، اذ لا بد للانسان من أن يكون تولى ذلك
بنفسه او احتاج فيه الى آلة او معين من جنسه .

وكلام العرب نوعان منظوم ومثور ، ولكل منهما ثلاث طبقات جيدة ،
ومتوسطة ، وردئية ، فاذا اتفق الطبقتان في القدر وتساوتا في القيمة ، ولم
يكن لاحدهما فضل على الاخرى كان الحكم للشعر ظاهراً في التسمية ،
لان كل منظوم أحسن من كل مثور من جنسه في معترف العادة^{١٢} .

وقال في باب الرد على من يكره الشعر ! ان النبي صلى الله عليه وسلم
بنى لحسان بن ثابت منبراً في المسجد ينشد عليه الشعر . ويروى عن
أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت : مرّ الزبير بن العوام رضي الله
عنه بمجلس لاصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وحسان ينشدهم وهم غير
آذنين لما يسمعون من شعره ، فقال : مالي اراكم غير آذنين لما تسمعون من
شعر ابن القريعة ؟ لقد كان ينشد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيحسن
استماعه ويجزل ثوابه ، ولا يشتغل عنه اذا انشده . وقيل لسعيد بن
المسيب ! ان قوماً بالعراق يكرهون الشعر . فقال : نسكو نسكا اعجبياً .

وقال في باب حد الشعر وبنيته : الشعر يقوم بعد النية من اربعة
اشياء ، هي : اللفظ ، والوزن ، والمعنى والقافية . لان من الكلام موزوناً
مقفى وليس بشعر ، لعدم القصد والنية ثم يذكر قول علي بن عيسى

(١٢) الجزء الاول ص ٧ .

الرماني : اكثر ما تجرى عليه اغراض الشعر خمسة النسيب ، والمدح
والهجاء ، والفخر ، والوصف .

وينقل عن القاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني صاحب كتاب الوساطة
قوله : الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع ، والرواية ، والذكاء ،
ثم تكون الدربة مادة له ، وقوة لكل واحد من اسبابه ، فمن اجتمعت له
هذه الخصال فهو المحسن المبرز ، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبه من الاحسان .
وقال : ولست افضل في هذه القضية بين القديم والمحدث ، والجاهلي ،
والمخضرم ، والاعرابي والمولد . الا اني ارى حاجة المحدث الى الرواية
امس ، واجده الى كثرة الحفظ افقر ، فاذا استكشفت عن هذه الحال وجدت
سببها والعلّة فيها ان المطبوع الذكي لا يمكنه تناول الفاظ العربي الا رواية ،
ولا طريق الى الرواية الا السمع ، وملاك السمع الحفظ .

وقال اسحاق بن ابراهيم الموصلی : قلت لاعرابي : من اشعر الناس ؟
قال : الذي اذا قال اسرع ، واذا اسرع ابدع ، واذا تكلم اسمع ، واذا مدح
رفع ، واذا هجا وضع .

وقال في باب الكلام عن اللفظ والمعنى :

اللفظ جسم ، وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم
يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته ، فاذا سلم المعنى ، واختل بعض اللفظ كان
نقصاً للشعر ، وهجنة عليه ، كما يعرض لبعض الاجسام من العرج والشلل
والعور وما اشبه ذلك . من غير ان تذهب الروح ، وكذلك ان ضعف المعنى ،
واختل بعضه ، كان للفظ من ذلك اوفر حظ ، كالذي يعرض للاجسام من
المرض بمرض الارواح ، ولا تجد معنى يختل الا من جهة اللفظ ، وجريه
فيه على غير الواجب ، قياساً على ما قدمت من ادواء الجسوم والارواح ، فان
اختل المعنى كله وفسد بقي اللفظ موثلاً لا فائدة فيه ، وان كان حسن الطلاوة

في السمع ، كما ان الميت لم ينقص من شخصه شيء في رأى العين ، الا انه لا يُتَّفَعُ به ، ولا يفيد فائدة . وكذلك ان احتل اللفظ جملة ، وتلاشى لم يصبح له معنى ، لانا لا نجد روحاً في غير جسم البتة^{١٤} .

وقال في باب المطبوع والمصنوع من الشعر إن المطبوع منه هو الاصل الذي وضع اولاً ، وعليه المدار ، والمصنوع (وان وقع عليه هذا الاسم) فليس مُتَكَلِّفًا تَكَلَّفَ اشعار المولدين ، لكن وقع فيه هذا النوع الذي سموه صنعة من غير قصد ولا تعمل ، وقع بطباع القوم عفواً ، فاستحسنوه بمالوا اليه بعض الميل .

(١٣) الجزء الاول ص ١٤ ، و ١٥ .

(١٤) الجزء الاول ص ١٠٣ .

الفصل الرابع عشر

ابن سنان الخفاجي وكتابه سر الفصاحة

هو ابو محمد عبدالله بن محمد بن سعيد الخفاجي احد شعراء الشام
وأمر قلعة عزار من أعمال حلب وُلِدَ سنة ٤٢٢ هـ وتوفي سنة ٤٦٦ هـ .
اخذ العلم والادب على علماء عصره واختص بالدراسة على ابي العلاء
المعري وكان انتفاعه به اكثر من غير .
له ديوان شعر نسخة منه في المكتبة الخديوية وله كتاب سر
الفصاحة منه نسخة في برلين .

* * *

ولما أتم ابن سنان تعليمه سعى لدى صاحبه ابي نصر محمد بن النحاس
الذي كان وزيراً للأمير حلب محمود بن نصر بن مرداس حتى تمكن ابن
النحاس ان يوليه قلعة عزار من اعمال حلب . ولكن ابن سنان كان في نفسه
نزوع الى الثورة الذي ورثه عن استاذه ابي العلاء . فلم يلبث ان اعلن
العصيان على الامير محمود الذي امر وزيره ابن النحاس ان يكتب اليه
ليستدرجه ويرجعه الى الطاعة ويحضره اليه بحلب . فقال الامير لابن
النحاس قل له ان امير حلب لا يأمن الا اليك ولا يثق الا بك . فكتب الوزير
الكتاب ، ولما فرغ منه كتب في اخره ان شاء الله تعالى وشدد النون من
(ان) . . . فقرأ الخفاجي كتاب صاحبه واطمأن به فخرج من قلعة عزار
قاصدا حلب . ولكنه خطر له في الطريق ان يعيد النظر في الكتاب فلما
قرأه وجد التشديد على النون فأمسك رأس فرسه وفكر في نفسه واعتقد
ان صاحبه ابن النحاس لم يضع الشدة عبثاً ، اذ لاح له انه اراد بتشديد

النون ، الآية الكريمة « إنَّ الملائماتُ يأترون بك ليقتلوك » فعاد الى قلعة عزار
وكتب الجواب • انا الخادم المعترف بالانعام الخ • وكسر الهمزة من
(انا) فلما وقف ابو نصر بن النحاس على ذلك سرَّ سرورا كبيرا وعلم
انه قصد به قوله تعالى « انا لن ندخلها ابدا ما داموا فيها » • وبعد ذلك
استدعى الامير محمود وزيره وقال له أنت أشرت عليّ بتوليته وما أعرفه
إلا منك ومتى لم يفرغ بالي منه قتلتك • ولما لم يجد ابن النحاس من الامر بدا
مضى الى ابن سنان وفي صحبته ثلاثون فارسا فاذا قاربه عرفه بحضوره وطلب
اليه ان يطيعه في الحضور الى حلب فاطاعه وفي الطريق اعطوه طعاما مسموما
ولما أكله شعر بمغص شديد وأخذته رعدة شديدة فقال قتلني والله أخي
ابو نصر ورجع الى قلعة فلبث مدة حتى مات سنة ٤٦٦ هـ في سن مبكرة
ولم يحقق شيئا من مطامعه التي يقول فيها : (١) •

من مبلغ اللوام ان مطامعي صارت حذبنا بينهم وقصائدا
ولم يتمكن من ان يصلح بثورته شيئا من مفاصد عصره تلك المفاصد
التي يقول فيها :

استغفر الله لا مال ولا شرف ولا وفاء ولا دين ، ولا انف
كانما نحن في ظلماء داجية فليس ترفع عن ابصارنا السجف

(١) عن مقدمة كتاب سر الفصاحة •

كتاب سر الفصاحة

اما كتابه سر الفصاحة فعنوانه يكشف عن موضوعه وان كان قد تكلم في اولياته واطال في اثبات ان الصوت عرض وليس بجسم حتى امل بتلك الاطالة • ثم يدخل في موضوع اخر هو موضوع الحروف فيطيل فيه البحث ايضا كما اطال في بحث الاصوات • فيأخذ بتعريف الحرف في كلام العرب فيقول : الحرف حد الشيء وحدته ، ومن ذلك حرف السيف انما هو حده وناحيته وقولهم انحرف فلان عن فلان اى جعل بينه وبينه حدا بالبعد • وفسر ابو عبيدة معمر بن المثنى قوله تعالى (ومن الناس من يعبد الله على حرف) اى لا يدوم ، وفسره ابو العباس ثعلب (اى على شك) والمراد انه غير ثابت على دينه ولا مستحكم البصيرة فيه فكانه على حرفه وليس في وسطه •

وسميت الحروف حروفا لانها حدود منقطع الصوت • فاما قولهم في القراءة حرف ابي عمرو فقد قيل فيه ان المراد منه الحد ما بين القراءتين ، والمعنى ان القارىء يؤدى حروف ابي عمرو باعيانها من غير زيادة ولا نقصان •

وهكذا يدخل ايضا في تعليقات فلسفية فيذكر الحروف المستحسنة وغير المستحسنة والقوية والضعيفة والرخوة والشديدة وما يجرى بينهما • ثم الحرف المجهور والمهموس ومعنى الجهر والهمس • ثم حروف الذلاقة الستة كاللام والراء والنون والفاء والباء والميم وما سواها من الحروف فهى المصمتة •

والظاهر من قوله في ختام موضوع الحروف انه شعر هو نفسه بالاطالة فيه فقال :

وللحروف ايضا انقسام الى الصحة والاعلال والزيادة والاصل
والسكون والحركة وغير ذلك مما علاقته بالنحو اكثر . ولو ذكرنا لاطلنا
وعدلنا عن الغرض . وانما اردنا ذكر ما لا يستغنى عنه طالب معرفة الفصاحة
التي لها يقصد واليها ينحو . فاما ماسوى ذلك فاللمحة تقنع منه واللمعة
تغنى فيه ، وفيما اوردناه من اقسام الحروف واحكامها في هذا الفصل مقنع
ولا يليق به الزيادة عليه لانه كالطريق الذي نجتاز فيه الى مرادنا وتوصل
بسلوكه الى مقصدنا فاللبث به غير واجب والريث فيه غير محمود . ثم
يتحدث بعد ذلك في الكلام واللغة حتى اذا اشبههما بحثا انتقل الى الكلام
في الفصاحة .

اما بحثه عن الكلام فانه يتناول فيه تعريف الكلمة والكلام والكلم
والمهمل والمستعمل والمفيد وغير المفيد وكذلك يفعل في تناوله بحث اللغة
فيتكلم فيه عن اصل اللغات ونشأتها . ويرى ان اصل اللغات مواضعة وليس
بتوقيف ، كما يرى فضل اللغة العربية على سائر لغات البشر فيقول (٢) :

ومن تتبع جميع اللغات لم يجد فيها - على ما سمعته - لغة تضاهي
اللغة العربية في كثرة الاسماء للمسمى الواحد على ان اللغة الرومية
بالضد (٣) فان الاسم الواحد يوجد فيها للمسميات المختلفة كثيرا . وقد
كان بعض اللغويين حصر اسماء السيف والاسد في لغة العرب فكانت اوراقا
عدة . وهي مع السعة والكثرة اخصر اللغات في ايصال المعاني وفي النقل
اليها . فليس هناك كلام ينقل الى لغة العرب الا ويحيى الثاني اخصر من
الاول مع سلامة المعاني وبقائها على حالها . وهذا لا شك فضيلة مشهورة
وميزة كبيرة . لان الغرض في الكلام وفي وضع اللغات بيان المعاني

(٢) كتاب سر الفصاحة ص ٤٨ .

(٣) هي المعروفة الآن باللغة اللاتينية .

وكشفها • فإذا كانت تفصح عن المقصود وتظهره مع الاختصار والاقصار
فهي اولى بالاستعمال وفضل مما يحتاج فيه الى الاسهاب والاطالة • ثم قال :
وقد اخبرني ابو داود المطران - وهو عارف باللغتين العربية والسريانية -
انه اذا نقل الالفاظ الحسنة الى السرياني قبحت وخست واذا نقل الكلام
المختار من السرياني الى العربي ازداد طلاوة وحسنا • وهذا الذي ذكره
المطران صحيح يخبر به اهل كل لغة عن لغتهم مع العربية ••• فكان ما ينقل
من اللغة العربية يتغير حسنه لهذه العلة وما ينقل الى العربية يمكن الزيادة
على طلاوته لان ناقله يجد ما يعبر به في العربية افضل مما يريد وابلغ مما
يحاول •

ومما هو جدير بالذكر اكباره واعجابه بلغة العرب • ولم يكن مصدر
اعجابه هذا هو حبه للغة وانما يتحدث بذلك من الناحية الموضوعية فيقول :
فاما السعة فالامر في لغة العرب واضح لان الناظم او الناثر اذا حذر
عليه موضع ايراد اللفظة وكانت اللغة التي ينسج منها ذات الفاظ كثيرة تقع
موقع تلك اللفظة في المعنى اخذ ما يليق بالموضع من غير عنت ومشقة • وهذا
غير ممكن لولا السعة في كثرة الاسماء للمسمى الواحد • وتلك فائدة
حاصلة بلا خلاف • على انه ربما عرض في وضع الاسماء المشتركة فائدة
في بعض المواضع • مثل ان يحتاج الناطق الى كلام يؤثر ان يكنى فيه
ولا يصرح ، فيقول لفظه ويوهم بها معنى قد قصد غيره • وهذا وان قل
الداعي اليه الا في اليسير من المواضع فلم تجعل اللغة العربية خالية منها ،
بل فيها اسماء مشتركة كثيرة •

وهنا لها فضيلة اخرى • وهي ان الواضع لها ان كانت مواضعه تجنب
في الاكثر ما يتقل على الناطق تكلفه والتلفظ به كالجمع بين الحروف
المتقاربة في المخارج وما اشبه ذلك • واعتمد مثل هذا في الحركات ايضا
فلم يأت الا بالسهل الممكن ، دون الوعر المتعب • ومتى تأملت الالفاظ

المهملة لم تجد العلة في اهمالها الا هذا المعنى • وليس غيرها من اللغات
كذلك • كلغة الارمن والزنج وغيرهم •

ومما يدل على فضل هذه اللغة العربية ايضا وتقدمها على جميع
اللغات ان اربابها واصحابها هم العرب الذين لا امة من الامم تنازعهم
فضائلهم ولا تباريهم في مناقبهم ومحاسنهم ، وان كانوا تواضعوا على هذه
اللغة فلم تكن تنتج اذهانهم الصقيلة وخواطرهم العجيبة الا شيئا خليقا
بالشرف وامرا جديرا بالتقدم وان كان توقيفا من الله تعالى لهم ومنه من بها
عليهم فلم يكن بد لهم من العناية بشأنهم والتشديد من ذكرهم حتى ركبهم
على حميد الخصال وطبعمهم على جميل الاخلاق الا على غاية لا يتعلق
بشأوها ورتبة يقصر الطالبون عن بلوغها • ولست في هذه النتيجة ممن
يدعى تقديمها عصبية ولا يذهب اليها حمية •••••

ووجه تفضيل العرب على غيرهم ان الخصال المحموده توجد فيهم
اكثر وفي غيرهم اقل وعلى هذا الحد يقع التمييز بين القبيلتين واهل
البلدين • ومتى تأمل المصنف حال العرب علم حقيقة ذلك •

أما الكرم فالامر فيهم واضح ، لانا لم نجد امة من الامم ولا شعبا من
من الشعوب رأى قرى الضيف واجبا ومساواة الجار فريضة الا هذه
الامة من العرب • حتى صرحوا بذلك في اشعارهم ودونوه في المأثور
عنهم • وتساوى فيه موسرهم ومعسورهم وغنيهم وفقيرهم • هذا وهم
الاكثر أهل جذب وفاقه وضيق وعسر ونصب في اتجاج الرزق وكذا
التعرض للكسب ثم بلغ من جبههم الجود وصيابتهم الى جميل الذكر ان
سمحوا بنفوسهم ورأوا البخل بها مذموما كالبخل باموالهم ••• ولم نر
في الهند والزنج والحبس والترك من ادعى مثل هذه السجية ولا انتسب
الى هذه الخلة • فاما الفرس والروم فالبخل عليهم غالب وحب الغنى مركز

في طباعهم • ليس عندهم في ذلك كبير عار ولا يلحقون انفسهم به منقصة •
واما الوفاء فمن دينهم الذي كانوا يرونه لازما ومذهبهم الذي كانوا
يعتقدونه حتما حتى صار من تمسك بجوارهم او تعلق ببعض اطناهم تبذل
النفوس دونه • وتراق الدماء في المنع منه • فكم قتل الرجل منهم في ذلك
أقرب الناس اليه نسبا وامسهم به رحما • وكم من وقعة عظيمة وحرب
جليلة طويلة جررها ضيم نزيل او التعرض لسب جار •

واما اليأس والنجدة وطاعة الغضب والحمية وادراك النار وطلب
الاوراق فاجبارهم بذلك معروفة وسيرهم فيه بذلك متداولة لا يخص به
الرجل دون المرأة • بل يوجد عند نسايتهم من الصبر والشجاعة ما لا يساويه
عند غيرهم ••••• ثم هم لم يرضوا شماسهم بذلة المهن ولا مروا نخواتهم
على معانات الحرف لا يسأل احدهم الرزق الا من غرار سيفه ولا يستتجد
على نفى الضيم الا بسنان رمحه واما العقول الصحيحة والاذهان الصافية
فالامر في تفضيلهم واضح وذلك انهم لم يكونوا اهل تعليم ودرس ولا
اصحاب كتب وصحف وفي كلامهم من الحكم العجيبة والامثال الغريبة
والحث على محاسن الاخلاق والامر بجميل الافعال ما اذا تأملته غص عندك
ما يروى عن حكماء اليونان وسهل الامر عليك فيما حكاه الناس عنهم •

ثم لما صاروا الى الدين وتمسكوا بالشريعة وعادوا اصحاب كتاب
يدرس ومذهب يروى ظهر من دقيق افهامهم وعجيب كلامهم ما لا يخفى
على احد جالس العلماء وخالط كتبهم •

واما حبّ الذكر وجميل الثناء والخوف من الذم وسوء القول مما هو
معلوم من عاداتهم معروف من شيمتهم حتى كانوا اذا اسروا شاعرا شددوا
لسانه بنسعة خوفا من أن يسبقهم بيت يشرد أو يعجلهم بقول يؤثر • هذا
مذهب فاقت به العرب جميع الامم وهو مذهب جامع لاصناف الخير •

واما الغيرة والانفة والصبر والجلد فمعلوم منهم حتى ذكروا بالغلظة
والقساوة وعُدل ذلك باكثرهم اكل لحوم الابل التي من عاداتها غلظ الاكباد
وفي طباعها قسوة القلوب •

هذا وهم متى هب في احدهم نسيم الصباية ودبت في مفاصله نشوة
الهوى لانت تلك المعاطف ورقت تلك الشمائل وعاد ذلك العز ذلا وفرقا
وصارت تلك النخوة توسلا وخضوعا لكنه مع العفاف من الريب والبعد
من التهم والمساواة بين الباطن والظاهر والاتفاق بين الغائب والبادى •
واشعارهم واخبارهم بهذا كله مملوءة حتى كان هذا الحي من عذرة قوما
اذا نظروا عشقوا واذا عشقوا ماتوا (٤) •

واما مراعاة الانساب وحفظها وذكر الاصول والبحث عنها فباب
تفردت به العرب فلم يشاركها فيه مشارك ولا ماثلها فيه مماثل • وفوائده
الاتصار للعشيرة والحمية للاهل وغير ذلك معروفة •

هذه شيمهم وأخلاقهم • وفيهم بعد ذلك كتاب الله خير الكتب ورسوله
سيدالرسل ودينه ناسخ الاديان •

وبعد هذا الثناء العاطر على العرب ولغة العرب المؤيدبالادلة الساطعة والبراهين
القاطعة على طيب عنصرهم ورجاحة عقولهم وحسن اخلاقهم واصالة لغتهم
باشر الكلام في الفصاحة والبلاغة والفرق بينهما • ثم تكلم عن شرف هذا
العلم الذى به وقع التمييز بين الحيوان الناطق والحيوان الصامت مستشهدا
بقوله تعالى (الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان) ويقول النبي
صلى الله عليه وسلم للعباس وقد سأله فيم الجمال ؟ فقال : (فى اللسان) •
ويقول سهل بن هارون الكاتب (العقل رائد الروح والعلم رائد العقل
والبيان ترجمان العلم) •

(٤) قبيلة عرفت بالحب العنرى •

وبقول الشاعر الاعور السلمي :

وكائن ترى من صامت لك معجب زيادته أو نقصه في التكلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق الا صورة اللحم والدم
ثم بدأ يعرف الفصاحة فيقول : ان الفصاحة نعت للالفاظ اذا وجدت
على شروط عدة • ومتى تكاملت تلك الشروط فلامزيد على فصاحة تلك
الالفاظ ، وبحسب الموجود منها تأخذ القسط من الوصف • وبوجود
اضدادها تستحق الاطراء والذم ، وتلك الشروط تنقسم قسمين : فالاول
منها يوجد في اللفظة الواحدة على انفرادها من غير أن يضم اليها شيء من
الالفاظ وتؤلف معه والقسم الثاني يوجد في الالفاظ المنظومة بعضها مع
بعض • فاما الذي يوجد في اللفظة الواحدة فثمانية أشياء :

الاول

أن يكون تأليف تلك اللفظة من حروف متباعدة المخارج ، وعلّة هذا هي أن
الحروف التي هي أصوات تجري من السمع مجرى الالوان من البصر •
ولا شك في أن الالوان المتباينة اذا جمعت كانت في المنظر أحسن من
الالوان المتقاربة • وقد قال الشاعر •

فالوجه مثل الصبح مبيض والشعر مثل الليل مسود
ضدان لما استجمعا حسنا والضد يظهر حسنه الضد

وأما تأليف الحروف المتقاربة فقد تدرك قبحها كما يقبح عندك بعض
الامزجة من الالوان وبعض النغم من الاصوات •

الثاني

ان تجد لتأليف اللفظة في السمع حسنا ومزية على غيرها وان تساوبا
في التأليف من الحروف المتباعدة • كما انك تجد لبعض النغم والالوان حسنا
يتصور في النفس ويدرك بالبصر والسمع دون غيره مما هو من جنسه كل
ذلك لوجه يقع التأليف عليه كقول المتنبي •

إذا سارت الاحداج فوق نباته تفاوح مسك الغانبات وورنده
فان كلمة تفاوح فى غاية الحسن • وقد قيل ان أبا الطيب أول من
نطق بها •

الثالث

أن تكون الكلمة غير متوعرة وحشية فان كانت متوعرة وحشية مجها
السمع والفهم ، من ذلك قول أبي علقمة النحوي ما لكم تكأكتم عليّ
كنكأكوكم على ذي جنة افرنقوا عني •

الرابع

أن تكون الكلمة غير ساقطة عامية كقول ابي تمام
(جليت والموت مبدٍ حرّ صفحته وقد تفرّ عنّ فى أفعاله الاجل)
فان تفرّ عنّ مشتق من اسم فرعون وهو من ألفاظ العامة • اذ
عادتهم أن يقولوا تفرعن فلان اذا وصفوه بالجبرية •

الخامس

أن تكون الكلمة جارية على العرف العربي الصحيح غير شاذة ويدخل
فى هذا القسم كل ما ينكره أهل اللغة ويرده علماء النحو من التصرف الفاسد
فى الكلمة وقد يكون ذلك لاجل ان اللفظة بعينها غير عربية كقول ابي
الطيب •

وجناح مقصوص تحيّف ريشه ريب الزمان تحيّف المقراض
فالمقراض ليس من كلام العرب • وكقول ابي عبادة :
يشق عليه الريح كل عشية جيوب الغمام بين بكر وايم
فوضع الايم مكان الثيب • وليس الامر كذلك انما الايم التي لا زوج
لها بكرا أو ثيبا •

السادس

أن تكون الكلمة قد عبر بها عن أمر آخر يكره ذكره فإذا أوردت وهي غير مقصود بها ذلك المعنى قبحت وان كملت فيها صفات الحسن المذكورة
آنفا •

ومن هذا النحو قول أبي تمام :

(متفجر نادته فكأنني للدلو أو للمرزمين نديم)

فالدلو هنا أحد البروج وهو مستكره لموافقته اسم الدلو المعروف
وكذلك المرزمان وهما نجمان من نجوم المطر •

السابع

أن تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروف فإنها متى زادت على الامثلة المعتادة المعروفة قبحت وخرجت عن وجه من وجوه الفصاحة • كقول أبي نصر بن نباتة :

(فإياكم أن تكشفوا عن رؤوسكم إلا أن مغناطيسهن الذوائب)

وكقول أبي تمام :

(وإلى محمد ابتعثت قصائدي ورفعت للمستنشدين لوائحي)

الثامن

أن تكون الكلمة مصغرة في موضع عبر بها فيه عن شيء لطيف أو خفي أو قليل أو ما يجرى مجرى ذلك كقول الشريف الرضي :

(يولع^(٥) الطلّ بُردَيْنَا وقد نسمت رويحة الفجر بين الضال والسلم)
وكقول المخزومي :

(وغاب تمير كنت أرجو غيوبه وروح رعيان ونوم سمّر)

(٥) يولع يبيض يقال ولع جسده برصه •

وهذا تصغير مختار في موضعه •

وهكذا ينتهي ابن سنان من الكلام على اللفظة المفردة مبتدئا بالاصوات والحروف ومنتها بالكلمة مبينا الفصيحة وغير الفصيحة مستشهدا على ما يقول بشتى الامثال من القرآن الكريم والحديث الشريف والمأثور من كلام العرب شعرا ونثرا •

وعند استيفائه الكلام في ذلك يأخذ بالكلام عن الالفاظ وما يتألف منها • فيقول :

ان كل صناعة من الصناعات فكمالها بخمسة أشياء على ما ذكره الحكماء : الموضوع وهو الخشب في صناعة النجارة ، والصانع وهو النجار ، والصورة وهي كالتربيع المخصوص ان كان المصنوع كرسيًا ، والآلة مثل المنشار والقدوم وما يجري مجراهما • والغرض وهو أن يقصد على هذا المثال الجلوس فوق ما يصنعه • واذا كان الامر على هذا قطعًا وكان تأليف الكلمات المخصوص صناعة وجب أن نعتبر فيها هذه الاقسام فنقول :

ان الموضوع هو الكلام المؤلّف من الاصوات فأما الصانع المؤلف فهو الذي ينظم الكلام بعضه مع بعض كالشاعر والكاّتب وغيرهما • واما الصورة فهي كالفضل للكاّتب وكالبيت للشاعر وما جرى مجراهما •

واما الآلة فاقرب ما قيل فيها انها طبع هذا الناظم والعلوم التي اكتسبها بعد ذلك • ولهذا لا يمكن لاحد ان يعلم الشعر من لا طبع له • وان جهد في ذلك لان الآلة التي يتوصل بها غير مقدورة لمخلوق ويمكن تعلم سائر الصناعات لوجود كل ما يحتاج اليه من آلاتها •

واما الغرض فيحسب الكلام المؤلّف • فان كان مدحا كان الغرض به قولاً ينبىء عن عظم حال المدح وان كان هجواً فبالضد • وعلى هذا القياس كل ما يؤلّف •••••

وبعد نقاش ينشئه ابن سنان حول المعاني وتأليف الالفاظ وهل المعاني وحدها هي موضوع صناعة تعلم الكلام كما يراه قدامة بن جعفر في كتابه نقد الشعر ؟ او المعاني وتأليف الالفاظ معا هما موضوع صناعة تعلم الكلام ؟ وجوابه في هذا واضح صريح . اذ يقول (٦) : المعاني وتأليف الالفاظ هي صناعة الصانع التي اظهرها في الموضوع . ذلك لان الالفاظ ليست من عمل الصانع ، وانما له منها تأليف بعضها من بعض لا غير . . . ثم يقول : سمعت بعضهم يدعى ان الناظم متى الف لفظة رديئة فليس ذلك بعيب عليه كما ان النجار اذا صنع كرسيًا من خشب رديء ، فليس بعيب في صناعته (٧) . وعذره كون الموضوع الذي هو الخشب رديئا . وهذا الذي ذكره هذا القائل فاسد وذلك ان النجار يعاب اذا كان قليل البصيرة بموضوع صناعته ولو تمكن من عمل ذلك الكرسي الذي مثل به من خشب مرضي فعدل عنه الى خشب رديء جهلا منه بالمختار من هذا الجنس كان معيبا عند اهل صناعته . وانما يتوجه له العذر اذا سلم اليه خشب رديء لتظهر صناعته فيه فانه عند ذلك لا يعاب لاجل الخشب . فاما ناظم الكلام فقادر على اختيار موضوعه ، غير محظور عليه تأليف ما يؤثره منه . فمتى عدل عن ذلك جهلا او تسمحا توجه الانكار والنوم عليه وكان اهلا له وجديرا به . على ان كلامنا في الصورة نفسها ولا شبهة في قبح صورة الكرسي المصنوع من رديء الخشب وان كان النجار قد احكم عمله .

وهكذا يجري الخفاجي في الحديث عن تأليف الكلام من الكلمات كما جرى عليه في تأليف الكلمة المفردة من الاصوات والحروف . فيقرر فيه مثل ما قررته كتب البلاغة في فصاحة الكلمة والكلام والمتكلم ويزيد

(٦) كتاب سر الفصاحة ص ١٠٤

(٧) كتاب سر الفصاحة ص ١٠٤ .

على ذلك بكثرة ما اورده من الامثلة في الكلام الفصيح وغيره • ثم يتحدث
عن الاستعارة وقبح الحشو والاستطراد والمعاظلة فيها وعن الكتابة ووجوبها
في الموضوع الذي لا يحسن فيه التصريح وان لا يستعمل في الشعر الفاظ
المتكلمين والنحويين واشباههم • ثم يتكلم على القوافي بانها تجري في الشعر
مجري السجع في النثر وعن التزام ما يلزم وبيان ان من التناسب حمل
اللفظ على اللفظ في الترتيب والتخلص من معنى الى معنى وان لا يوضع
الجائز موضع الممتنع •

وأخيرا ينهي كتابه بفصل يذكر فيه ما يحتاجه مؤلف الكلام الى
معرفة وها انا اختم الحديث به واقطف منه ما يعني عنه • استمع اليه
حيث يقول :

وبالجملة ان مؤلف الكلام شاعرا كان او كاتباً لو عرف حقيقة كل
علم واطلع على كل صناعة لاثر ذلك في تأليفه ومعانيه والفاظه ، لانه يدفع
الى اشياء يصفها ، فاذا خبر كل شيء وتحققه كان وصفه له اسهل ونعته
أمكن • الا ان المقصود في هذا الموضوع بيان ما لا يسعه جهله دون ما اذا
علمه اثر عنده علمه فان ذلك لا يقف على غاية • والوصية لهما ترك التكليف
والاسترسال مع الطبع وفرط التحرز وسوء الظن بالنفس ومشاورة أهل
المعرفة وبغض الاكثار والاطالة وتجنب الاسهاب في فن واحد من فنون
الصناعة • فان كلام الانسان ترجمان عقله ومعيار فهمه وعنوان حسه
والدليل على كل أمر لولاه لخفى منه وبحسب ذلك يحتاج الى فضل التثقيف
واجتماع اللب عند النظم والتأليف •

وقد أثنى الاستاذ عبدالمتعال الصعيدي على كتاب سر الفصاحة ثناء طيباً
فقال : وقد تناول ابن سنان الخفاجي الكلام في موضوعات سر الفصاحة
باسلوب العالم الاديب ، والناقد البصير ، بعد دراسات واسعة في دواوين

من سبقه من الشعراء ، وفي كتب النقد الادبي ، من أمثال نقد الشعر لقدماء -
والموازنة بين ابي تمام والبحثري للآمدي ، والوساطة بين المتنبي وخصومه -
للقاضي الجرجاني فجاء كتابه خلاصة لهذه الكتب • بعد تهذيب وتنقيح فيها •
وهذا الى ما اضافه اليها بفكره واجتهاده في ذلك العلم^(٨) •

(٨) في مقدمة كتاب سر الفصاحة •

الفصل الخامس عشر

عبدالقاهر الجرجاني

وكتابه اسرار البلاغة ودلائل الاعجاز

هو أبو بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن الجرجاني من كبار أئمة النحو
واللغة • وهو مؤسس علم البيان •

ولقد اتفق المؤرخون على الثناء عليه بالعلم والدين حتى لقبوه بالامام ••
انه اشتهر بالنحو من قبل أن يضع علم البلاغة •• على انه كان متكلماً وفقياً
ايضاً •••

قال الحافظ الذهبي في تاريخه دول الاسلام : توفي امام النحاة أبو بكر
عبدالقاهر الجرجاني صاحب التصانيف القيمة •• وقال عنه تاج الدين
السبكي في طبقات الشافعية الكبرى : أخذ عبدالقاهر الجرجاني النحو
بجرجان عن ابي الحسين محمد بن الحسن الفارسي ، وصار الامام المشهور
المقصود من كل الجهات مع الدين المتين والسكون •

ومن مصنفاته القيمة اسرار البلاغة ودلائل الاعجاز في المعاني والبيان •
وهما من الكتب الهامة في هذا الفن • وكتاب المغنى على شرح الايضاح
في نحو ثلاثين مجلداً ، وكتاب المقصد وكتاب اعجاز القرآن والعوامل المنة ،
والمفتاح ، وشرح الفاتحة ، والعمدة في التصريف ، وكتاب الجمل المختصر
المشهور في النحو يقال له الجرجانية ، وكذلك كتاب التمه في النحو ايضاً
بالمتحف البريطاني •

وذكروا له شعراً فمنه ما أورده الصلاح الكتبي في فوات الوفيات :

لا تأمن النفس من شاعر ما دام حيا سالما ناطقا
فان من يمدحكم كاذبا يحسن أن يهجوكم صافا
ولقد اتفق المؤرخون على انه توفي سنة ٤٧١ هـ رحمه الله (١) .

كتاب اسرار البلاغة

اما كتابه أسرار البلاغة فقد أتم فيه علم البلاغة بطريقة خاصة به بحيث
جعله فنا مرفوع القواعد مفتاح الابواب . ولهذا الكتاب مقدمتان .

الاولى منهما لناشره ومعلق حواشيه الشيخ رشيد رضا الذي حقق فيها
معنى البلاغة وبيّن مزية الكتاب على سائر الكتب البلاغية . كما أبان في هذه
المقدمة فضل اللغة العربية والعوامل التي جعلتها لغة الدين والشريعة وعلوم
العقل والطبيعة . أما المقدمة الثانية فهي لمؤلف الكتاب نفسه التي يتحدث فيها
عن المعاني المقصودة بكلام الناس . ومن هذا البحث يدخل مباشرة في
موضوعات بيانية هامة هي في نهاية العمق والدقة والبراعة اذ يتحدث عن
التجنيس وقسمته وتنويعه وتعريف الاستعارة وتقسيمها ثم الاستعارة المفيدة .
ثم الفرق بين التشبيه والتمثيل ثم مواقع التمثيل وتأثيره . ثم ينتقل الى الكلام
عن التشبيه المتعدد والفرق بينه وبين المركب . ثم الموازنة بين التشبيه والتمثيل
والفرق بين الاستعارة والتمثيل . ثم يتحدث في الاخذ والسرقه وما في ذلك
من التعليل وضروب الحقيقة والتخييل ثم نوع آخر في التعليل . ثم تخييل
بغير تعليل . ثم يفصل الفرق بين التشبيه والاستعارة . ثم الاتفاق في الاخذ
والسرقه والاستمداد والاستعانة ثم يأتي بفصل يبين فيه حدي الحقيقة والمجاز
وبعد ذلك يتكلم في المجاز العقلي والمجاز اللغوي والفرق بينهما وفي آخر

(١) من ترجمته في كتاب اسرار البلاغة . ومن كتاب تاريخ الآداب
العربية لجرجي زيدان .

الكتاب يأتي ببحث مستقل يبدوء بالبسمة ويتحدث فيه عن المجاز وبيان حقيقته ومعناه والمنقول والمشارك ثم المجاز المرسل وعلاقته • ثم يقسم المجاز الى لغوي وعقلي ويقسم اللغوي الى الاستعارة وغيرها •

ويختم الكتاب بفصل فى الحذف والزيادة وهل هما من المجاز ام لا •
ومن أجمل ما جاء فى هذه المقدمة قوله : اعلم ان الكلام هو الذى يعطي العلوم منازلها ويبين مراتبها ويكشف عن صورها ويجني صنوف ثمارها ويدل على سرائرها ويبرز مكنون ضمائرها وبه ابان الله تعالى الانسان من سائر الحيوان ونبه فيه على عظم الامتان فقال عز من قائل (الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان) فلولا لتعطت قوى الخواطر والافكار من معانيها ولبقيت القلوب مقفلة على ودائعها والمعاني مسجونة فى مواضعها ولصارت القرائح عن تصرفها معقولة والاذهان عن سلطانها معزولة ولما عرف كفر من ايمان واساءة من احسان ••• ثم ان الوصف الخاص به والمعنى المثبت لنسبه أنه يريك المعلومات بأوصافها التى وجدها العلم عليها ويقرر كفياتها التى تتناولها المعرفة اذا سمت اليها • الى ان يقول :

فاذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعرا او يستجيد ثرا ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ فيقول حلو رشيق وحسن انيق وعذب سائغ وخلوب رائع فاعلم انه ليس ينبئك عن أحوال ترجع الى أجراس^(٢) الحروف والى ظاهر الوضع اللغوي بل الى أمر يقع من المرء فى فؤاده وفضل يقتدحه العقل من زناده •

وأما رجوع الاستحسان الى اللفظ من غير شرك من المعنى فيه وكونه من أسبابه ودواعيه فلا يكاد يعدو نمطا واحدا • وهو ان تكون اللفظة مما يتعارفه الناس فى استعمالهم ويتداولونه فى زمانهم ولا يكون وحشيا غريبا او عاميا

(٢) جمع جرس بكسر الجيم وبفتحها وهو الصوت او الخفى من الصوت •

سخيفا الى ان يقول وههنا أقسام قد يتوهم في بدء الفكرة وقبل اتمام
العبرة ان الحسن والقبح فيها لا يتعدى اللفظ والجرس الى ما يناجي فيه
العقل النفس . ولها اذا حقق النظر مرجع الى ذلك ومنصرف فيما هنالك .
ومنها التجنيس والحشو . ثم يبدأ الكلام عن التجنيس الذي سأحدثك عنه
بعد قليل .

عود على بدء في كتاب اسرار البلاغة

ان العناوين التي ذكرتها آنفا تدعونا الى تفصيل ما تضمنته من فنون
القول وعمق الفكر وبالغ التعبير .
ولما كان هذا التفصيل يحتاج الى وقت طويل لا يتسع له المقام تحتم
علينا ان نكتفي بمعرفة اسلوب الشيخ عبدالقاهر في تناوله الابحاث البلاغية
التي لها مساس بدراستنا النقدية .
يتحدث الشيخ في بداية كتابه عن التجنيس ومدى اثره في تحسين
الكلام وهل له الافضلية في هذا التحسين على المعنى أو المعنى له الفضل الاكبر
في حسن الكلام وجماله .

انا نعلم عن طريق قواعد البلاغة ان التجنيس تشابه الكلمتين في اللفظ
مع اختلاف في المعنى . غير ان الشيخ الجرجاني لم يبحثه كما بحثه البلاغيون
وانما يتناوله تناولا أدبيا خاصا به فيقول :

اما (٣) التجنيس فانك لا تستحسن تجانس اللفظين الا اذا كان موقع
معنيهما من العقل موقعا حميدا ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيدا .
أتراك استضعفت تجنيس ابي تمام في قوله :

(٣) كتاب اسرار البلاغة ص ٤

ذهبت بمذهبه السماحة فالتوت فيه الظنون أمْذهب أمْ مذهب
واستحسنت تجنيس القائل :

ناظِـرِـاه فيما جنى ناظِـرِـاه أو دعاني أمت بما اودعاني

الامر يرجع الى اللفظ ؟ أم لانك رأيت الفائدة ضعفت عن الاول وقويت
في الثاني ... ورأيتك لم يزدك بمذهب ومذهب على ان اسمك حروفا
مكررة تروم لها فائدة فلا تجدها الا مجهولة منكورة ... ورأيت الآخر قد
أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها ويوهمك كأنه لم يزدك
وقد أحسن الزيادة ووفأها • فهذه السريرة صار التجنيس من حلى الشعر •
فقد تبين لك ان ما يعطي التجنيس من الفضيلة أمر لم يتم الا بنصرة
المعنى اذ لو كان اللفظ وحده لما كان فيه مستحسن ولما وجد فيه الاميب
مستهجن • ولذلك ذم الاستكثار منه والولوع به •• وذلك ان المعاني
لا تدين في كل موضع لما يجذبها التجنيس اليه •• اذ الالفاظ خدَم المعاني •
فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن ازال الشيء عن جهته واحاله عن
طبيعته •• ولهذه الحالة كان كلام المتقدمين الذين تركوا أفضل العناية
بالسجع ولزموا سجية الطبع أمكن في العقول وأبعد من القلق وأوضح للمراد
وأفضل عند ذوي التحصيل وأسلم من التفاوت^(٤) وأكشف عن الاغراض
وأنصر للجهة التي تنحو نحو العقل وأبعد من التعمد^(٥) الذي هو ضرب
من الخداع بالتزويق والرضى بان تقع النقيصة في نفس الصورة • وذات
الخلقة اذا كسر فيها من الوشم والنقش وأنقل صاحبها بالحلى والوشى
يكون قياس الحلى عليها كقياس الحلى على السيف الددان وكالتوسع في
الدعوى بغير برهان •

(٤) التفاوت التباعد والاختلاف •

(٥) التعمد التكلف والتصنع •

(اذا لم تشاهد غير حسن شياتها وأعضائها فالحسن عنك مغيب)
واعلم ان العارفين بجواهر الكلام لا يعرجون على هذا الفن الا بعد
الثقة بسلامة المعنى وصحته •

فانظر الى خطب الجاحظ في أوائل كتبه • هذا والخطب من شأنها أن
يعتمد فيها الاوزان والاسجاع فانها تروى وتتناقل كتناقل الاشعار ومحلها
محل النسيب والتشبيب من الشعر الذي هو كانه لا يراد منه الا الاحتفال
في الصنعة والدلالة على مقدار شوط القريحة والاخبار عن فضل القسوة
والاقتدار على التفنن في الصنعة قال في أول كتاب الحيوان •

(جنبك الله الشبهة وعصمك من الحيرة وجعل بينك وبين المعرفة سببا
وبين الصدق نسبا وحبب اليك الثبت وزين في عينك الانصاف وأذاقك
حلاوة التقوى وأشعر قلبك عز الحق واودع صدرك برد اليقين وطرده عنك
ذل اليأس وعرفك ما في الباطل من الزلة وما في الجهل من القلة) •

فقد ترك اولاً ان يوفق بين الشبهة والحيرة في الاعراب ولم ير ان
يقرن الخلاف الى الانصاف ويشفع الحق بالصدق ولم يعن بان يطلب لليأس
قرينة تصل جناحه وشيئا يكون رديفا له لانه رأى التوفيق بين المعاني أحق
والموازنة فيها أحسن • ورأى العناية بها حتى تكون اخوة من أب وأم
ويذرهما على ذلك تتفق بالوداد على حسب اتفاقها بالميلاد اولى من أن يدعها
لنصرة السجع وطلب الوزن اولاد علة ان لا يوجد بينها وفاق الا في الطواهر
فاما ان يتعدى ذلك الى الضمائر ويخلص الى العقائد والسرائر ففي الاقل
النادر •

وعلى الجملة فأنك لا تجد تجنيسا مقبولا ولا سجعا حسنا حتى يكون
المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساقه نحوه وحتى تجده لا تتبغى به بدلا
ولا تجد عنه حولا •

ومن هنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه وأحقه بالحسن وأولاه.
ما وقع من غير قصد من المتكلم الى اجتلابه وتأهب لطلبه وذلك كما
يمثلون به من قول الشافعي رحمه الله تعالى وقد سئل عن النيذ فقال :
(اجمع أهل الحرمين على تحريمه) ومما تجده كذلك قول البحرى •
يعشى عن المجد الغبي ولن ترى فى سؤدد اربا لغير أريب

ومثال ما جاء من السجع هذا المجيء وجرى فى لين مقادته وحل
هذا المحل من القبول قول القائل : اللهم هب لي حمدا وهب لي مجدا فلا
مجد الا بفعال ولا فعال الا بمال ولست تجد هذا الضرب يكثر فى
شيء ويستمر كثرته واستمراره فى كلام القدماء كقول خالد ما الانسان
لولا اللسان الا صورة ممثلة وبهيمة مهملة وان انت تتبعته فى كلام
النبي صلى الله عليه وسلم تنق كل الثقة بوجودك له على الصفة المتقدمة •
وذلك كقول النبي عليه السلام (الظلم ظلمات يوم القيامة وكقوله : لا تزال
امتى بخير ما لم تر الغنى مغنما والصدقة مغرما) فأنت لا تجد لفظا اجتلب
من أجل السجع وترك له ما هو أحق بالمعنى منه وأبر به وأهدى الى مذهبه •

ثم يجعل الشيخ الجرجاني مذهبه هذا بقوله : ان غرضي فى هذا
الكلام الذى ابتدأته والاساس الذى وضعته أن أتوصل الى بيان أمر المعاني
كيف تتفق وتختلف^(٦) ومن أين تجتمع وتفرق وأفضل اجناسها وأنواعها
أتبع خاصها ومشاعها وأبين أحوالها فى كرم منصبها من العقل وتمكنها فى
نصابه وقرب رحمها منه أو بعدها حين تنسب عنه وكونها كالحليف الجارى
مجرى النسب أو الزنيم الملتصق بالقوم لا يقبلونه ولا يمتعضون له ولا يذبون
دونه • وان من الكلام ما هو كما هو شريف فى جوهره كالذهب الابرين

(٦) لو اخر كلمة تتفق لجاءت السجعة مقفاة مع كلمة تفرق فيما بعدها؛
ولكنه راعى المعنى دون اللفظ على قاعدته •

الذى تختلف عليه الصور وتتعاقب عليه الصناعات وجل المعول فى شرفه على ذاته وان كان التصوير قد يزيد فى قيمته ويرفع فى قدره .

ومنه ما هو كالمصنوعات العجيبة من مواد غير شريفة فلها قيمة تغلو ومنزلة تملو وللرغبة اليها انصباب وللنفوس بها اعجاب ما دامت الصورة محفوظة عليها لم تنتقص وأثر الصنعة باقيا معها لم يبطل حتى اذا خانت الايام فيها أصحابها وضاعت الحادثات أربابها وفجعتهم فيها بما يسلب حسننها المكتسب بالصنعة وجمالها المستفاد من طريق العرض فلم يبق الا المادة العارية من التصوير والطينة الخالية من التشكيل سقطت قيمتها وانحطت رتبها وعودت الرغبات التى كانت فيها زهدا واوسعتها عيون كانت تطمح اليها إعراضا دونها وصدا . وصارت كمن احظاه الجذ^(٧) بغير فضل كان يرجع اليه فى نفسه وقدمه البخت من غير معنى يقضى بتقدمه ثم أفاق فيه الدهر عن رقدته وتنبه لغلظته فأعاده الى دقة أصله وقلة فضله .

(٧) فى تاريخ العروس احظيت فلانا على فلان فضلته عليه . والجذ بفتح الجيم الحظ والبخت .

فصل

في بحث التشبيه والتمثيل

ولاجل ان ندرك أساليب الشيخ الجرجاني في أبحاثه تمام الإدراك
لزمنا ان نتعرف الى موضوع آخر من موضوعات كتاب أسرار البلاغة •
وليكن بحث التشبيه والتمثيل مثلا •

أجل اخترت البحث في هذين الموضوعين لما لهما من الاصلة في
الابحاث البيانية التي يحتاجها الطالب في دروس البلاغة كما يحتاجها لاجراء
الموازنة وتقييم النماذج الادبية التي كثيرا ما تتعرض لها في دروس النقد
الادبي يقول الشيخ الجرجاني : ان الشيتين اذا شبه أحدهما بالآخر كان
ذلك على ضربين •

أحدهما : أن يكون من جهة امر بيتن لا يحتاج فيه الى تأويل •
والثاني : أن يكون محصلا بضرب من التأويل •

فمثال الاول تشبيه الشيء بالشيء من جهة الصورة والشكل مثل ان
يشبه الشيء اذا استدار بالكرة في وجه وبالحلقة في وجه آخر • وكالتشبيه
من جهة اللون كتشبيه الخدود بالورود والوجه بالنهار وسقط النار بعين
الديك وما جرى في هذا الطريق •• أو جمع الصورة واللون كتشبيه الثريا
بعنقود الكرم المثور والرجس بمداهن^(٨) در حشوهن عقيق وكذلك
التشبيه من جهة الهيئة كتشبيه شيء مستو منتصب مديد مثل تشبيه القامة
بالرمح والقد اللطيف بالغصن ويدخل في الهيئة حال الحركات في اجسامها
كتشبيه الذهاب على الاستقامة بالسهم السديد • وتشبيه من تأخذه الاريحية

(٨) المداهن جمع مدهن بتضمين وهو ما يجعل فيه الدهن ووزنه شاذ
والقياس الكسر لانه من اسماء الآلة •

تفهتر بالفصن تحت البارح^(٩) • ونحو ذلك • وكذلك كل تشبيه جمع بين شيئين فيما يدخل تحت الحواس نحو تشبيهك صوت بعض الأشياء بصوت غيره كتشبيه اطيظ الرحل باصوات الفراريح كما قال :

(كان أصوات من ايغالهن بنا أواخر الميس أنقاض الفراريح^(١٠))

تقدير البيت كان أصوات أواخر الميس أصوات الفراريح من ايغالهن بنا • ثم فصل بين المضاف والمضاف اليه بقوله من ايغالهن كتشبيه صريف أنياب البعير بصياح البوازي كما قال :

(كان على انيابها كل سحرة

صياح البوازي من صريف اللوائك^(١١))

وأشبه ذلك من الاصوات المشبهة له • وتشبيه بعض الفواكه الحلوة بالسل والسكر وتشبيه اللين الناعم بالخز • وتشبيه الخشن بالمسح^(١٢) أو تشبيه رائحة بعض الرياحين برائحة الكافور وكذلك التشبيه من جهة الغريزة والطباع كتشبيه الرجل بالاسد في الشجاعة والذئب في النكر • والاخلاق كلها تدخل في الغريزة مثل السخاء والكرم واللؤم وكذلك تشبيه الرجل بالرجل في الشدة والقوة وتشبيه المرأة بالمرأة في الرقة والانوثة والحنان • وما يتصل بذلك •

(٩) الاريحية بسكون الراء حالة يرتاح معها الى البذل • والبارح - الريح الشديدة •

(١٠) الميس شجرة تتخذ منه الرحال للينه وقوته • ويطلق على الرحال نفسها وهو المراد هنا •

(١١) السحرة بالضم السحر الاعلى وهو ما قبل انصداع الفجر • والسحر الآخر عند انصداعه • واللوائك المواضع جمع لائكة اسم فاعل مؤنث من اللكوك وهو المضغ او اهون منه كمضغ البعير •

(١٢) المسح بالكسر البلاس وهو ثوب من الشعر غليظ وجمع المسح مسوح كحمل وحمول والبلاس بالفتح فارس معرب يتخذ بساطا وكساء •

فالشبه في هذا كله يتن لا يجري فيه التأول ولا يُفتقر اليه في
تحصيله • وأي تأول يجري في مشابهة الخد للورد في الحمرة وانت تراها
ها هنا كما تراها هناك • وكذلك تعلم الشجاعة في الاسد كما تعلمها في
الرجل •

ومثال الثاني وهو الشبه الذي يحصل بضرب من التأول كقولك هذه
حجة كالشمس في الظهور • وقد شبهت الحجة بالشمس من جهة ظهورها
كما شبهت فيما مضى الشيء بالشيء من جهة ما أردت من لون أو صورة أو
غيرهما الا انك تعلم ان هذا التشبيه لا يتم لك الا بتأول • وذلك أن تقول
حقيقة ظهور الشمس وغيرها من الاجسام ان لا يكون دونها حجاب ونحوه
مما يحول بين العين وبين رؤيتها • ولذلك يظهر الشيء لك • ولا يظهر لك
اذا كنت من وراء حجاب أو لم يكن بينك وبينه ذلك الحجاب •

ثم تقول ان الشبهة نظير الحجاب فيما يدرك بالعقول لانها تمنع القلب
رؤية ما هي شبهة فيه كما يمنع الحجاب العين ان ترى ما هو من وراءه •
ولذلك توصف الشبهة بانها اعترضت دون الذي يروم القلب ادراكه ويصرف
فكره للوصول اليه من صحة حكم او فساد • فاذا ارتفعت الشبهة وحصل
العلم بمعنى الكلام الذي هو الحجة على صحة ما أدى من الحكم قيل هذا
ظاهر كالشمس أي ليس ههنا مانع عن العلم ولا للتوقف والشك فيه مساغ •
وان المنكر له اما مدخول في عقله أو جاحد مباهت ومسرف في العناد • كما
ان الشمس الطالعة لا يشك فيها ذو بصر ولا ينكرها الا من لا عذر له في
انكاره •

ثم ان ما طريقه التأول يتفاوت تفاوتاً شديداً • فمنه ما يقرب مأخذه
ويسهل الوصول اليه ويعطى المقادة طوعاً حتى انه يكاد يداخل الضرب الاول
الذي ليس من التأول في شيء • ومنه ما يحتاج فيه الى قدر من التأمل •

ومنه ما يدق ويغمض حتى يحتاج في استخراجه الى فضل روية ولطف
فكرة •

فما هو قريب المأخذ سهل المأتي قولهم في صفة الكلام :

الفاظه كالماء في السلاسة وكالنسيم في الرقة وكالعسل في الحلاوة
يريدون ان اللفظ لا يستغلق ولا يشتبه معناه ولا يصعب الوقوف عليه وليس
هو بغريب وحشي يستكره لكونه غير مألوف • أو ما ليس في حروفه تكرير
وتنافر يكد اللسان من اجلهما • فصار لذلك كالماء الذي يسوغ في الحلق
والنسيم الذي يسري في البدن ويتخلل المسالك اللطيفة منه ويهدي الى
القلب روحا ويوجد في الصدر انشراحا ويفيد النفس نشاطا وكالعسل الذي
يلذ طعمه وتهش النفس له ويميل الطبع اليه ويحب وروده اليه • فهذا كله
تأول ورد شيء الى شيء بضرب من التلطف • وهو ادخل قليلا في حقيقة
التأول وأقوى حالا في الحاجة اليه من تشبيه الحجة بالشمس •

واما ما تقوى فيه الحاجة الى التأول حتى لا يعرف المقصود من التشبيه
فيه ببديهة السماع فنحو قول كعب الاشقرى وقد اوفده المهلب على الحجاج
فوصف له بنيه وذكر مكانهم من الفضل والبأس • فسأله آخر القصة
قال فكيف كان بنو المهلب فيهم قال : كانوا حماة السرح نهارا فاذا الليلوا
ففرسان البيات • قال : فايهم كان انجد ؟ قال : كانوا كالحلقة المفرغة
لا يدري اين طرفاها (١٣) • فهذا كما ترى ظاهر الامر في فقره الى فضل
الرفق والنظر • الا ترى انه لا يفهمه حق فهمه الا من له ذهن ونظر
يرتفع به عن طبقة العامة • وليس كذلك تشبيه الحجة بالشمس فانه

(١٣) هذا المثل من كلام فاطمة بنت الخرشب احدى المنجيات في
الجاهلية ام الكملة حين سألها ابو سفيان أى بنيك افضل فقالت
الربيع لا بل عمارة لا بل انس الفوارس ثكلتهم ان كنت ادري (هم
كالحلقة المفرغة لا يدري اين طرفاها) •

كالمشترك اليّين الاشتراك حتى يستوى في معرفته الليب اليقظ والمضغوف
المغفل •

وهكذا تشبيه الالفاظ بما تقدم قد تجده في كلام العامي • فاما
ما كان مذهبه في اللطف مذهب من قال (هم كالحلقة) فلا تراه الا في
الآداب والحكم المأثورة عن فضلا وذوي العقول الكاملة •

الفرق بين التثبييه والتتمثيل

يقول الشيخ ان التثبييه عام والتتمثيل اخص منه فكل تمثيل تشبييه
وليس كل تشبييه تمثيلا فانت تقول في قول قيس ابن الخطيم •
(وقد لاح في الصبح الثريا لمن رأى كعقود ملاحية حين نوراً^(١٤))
انه تشبييه حسن ولا تقول هو تمثيل • وكذلك تقول : ابن
المنز حسن التثبييهات بديعها لانك تعنى تشبييه المبصرات بعضها ببعض •
وكذلك كل ما لا يوجد التشبييه فيه من طريق التأول كقوله :

(كان عيون النرجس الغض حولها مداهن درحسوهن عقيق)

وكقوله في وصف كلب صيد

لما تعرى افق الضياء	مثل ابتسام الشفة للمياء
وشمطت ذوائب الظلماء	قدنا لعين الوحش والظباء
داهية محذورة اللقاء	ويعرف الزجر من الدعاء
بأذن ساقطة الارحاء	كوردة السوسنة الشهباء
ذا برثن كمنقب الحذاء	ومقلة قليلة الاقذاء

صافية كقطرة من ماء

وما كان من هذا الجنس • وذلك ان احسانه في النوع الاول أكثر وهو

(١٤) الملاحى بضم الميم وتشديد اللام وتخفيفها عنب ابيض طويل •
ونور الزرع ادرك ونور التمر خلق فيه النوى •

به اشهر • وكل ما لا يصح ان يسمى تمثيلا فنفظ المثل لا يستعمل فيه
ايضا فلا يقال ابن المعتز حسن الامثال تريد به قوله :

اصبر على مضمض الحسو دقان صبرك قاتله
فالنار ناكل نفسها ان لم تجد ما تأكله

وانما يقال صالح بن عبدالقدوس كثير الامثال في شعره يريدون به
قوله ؟

وان من ادبته في الصبا كالعود يسقى الماء في غرسه
حتى تراه مورفا ناضرا بعد الذي ابصرت من يسه

وما اشبه ذلك مما يكون الشبه فيه من قبيل ما يجرى فيه التأول • وان
قلت في بيتي ابن المعتز انه تمثيل فصحيح لان تشبيه الحسود اذا صبر عليه
وسكت عنه وترك غيظه يتردد فيه بالنار التي لا تمد بالحطب حتى يأكل
بعضها بعضا مما حاجته الى التأول ظاهرة بينه •

وهكذا يجرى الشيخ عبدالقادر الجرجاني في بسط ارائه في جميع
ابحائه فهو يبدأها بيسر وسهولة ثم يظل يزاول فتح اكمامها ويكشف
الحجب عما استتر من لآئها بعباراته الانيقة وشواهد الرقيقة ويتعمق فيها
شيئا فشيئا حتى يبلغ الغاية ويصل الى النهاية • ولعل ما عرضته من كتاب
اسرار البلاغة ما فيه الكفاية •

كتاب دلائل الاعجاز

واما كتابه دلائل الاعجاز فقد بدأه

بعد البسملة بالحمد لله رب العالمين ثم سأله يقينا ان يملأ الصدر ويعمر القلب ويستولى على النفس حتى يكفها اذا نزعته ويردها اذا تطلعت ثم قال : فاننا اذا تصفحنا الفضائل لنعرف منازلها في الشرف وجدنا العلم اولها بذلك .
اذ لا شرف الا وهو الدليل عليه وهو الوفي اذا خان كل صاحب ، والثقة اذا لم يوثق بناصح . الى ان يقول ثم انه لا ترى علما هو ارسخ اصلا .
وأحلى جنى وأكرم تاجا من علم البيان اذ لولاه لم تر لسانا يحوك الوشى .
ويلفظ الدر وينث السحر .

وبعد ان يسترسل في الثناء على علم البيان يشرع فيما دخل على الناس من الغلط في معناه وما سبق الى نفوسهم من اعتقادات فاسدة وظنون رديئة اذ ترى كثيرا منهم لا يرى له معنى اكثر مما يرى للاشارة بالرأس والعين وانه خبر واستخبار وامر ونهى ولكل من ذلك لفظ قد وضع له وجعل دليلا عليه فكل من عرف اوضاع لغة من اللغات عربية كانت او فارسية وعرف المغزى من كل لفظه ثم ساعده اللسان على النطق بها وعلى تأدية اجراسها وحروفها فهو بالغ من البيان المبلغ الذي لا مزيد عليه ومنته الى الغاية التي لا مذهب بعدها . يسمع الفصاحة والبلاغة والبراعة فلا يعرف لها معنى سوى الاطناب في القول وان المتكلم في ذلك جهير الصوت جارى اللسان وجملة الامر انه لا يرى النقص يدخل على صاحبه في ذلك الا من جهة نقصه في علم اللغة ، ولم يعلم ان ها هنا دقائق واسرارا طريق العلم بها الروية والفكر ، ولطائف مستقاهها العقل وخصائص معان ينفرد بها قوم قد هدوا اليها ودلوا عليها وكشف لهم عنها ورفعت الحجب بينهم وبينها حتى ينتهي الامر الى الاعجاز والى ان يخرج من

طوق البشر ... ثم يأخذ الجرجاني باللائمة على الذين يخيل اليهم ان الامر ليس فيه كثير طائل وانه ليس الا ملحمة او فكاهة او بكاء منزل او وصف طلل او نعت ناقة او جمل او اسراف قول في مدح او هجاء وانه ليس بشي تمس الحاجة اليه في صلاح دين او دنيا . ثم يقول :

واما النحو فظنوه ضربا من التكلف وشيئا لا يستند الى اصل ولا يعتمد على عقل وان ما زاد منه على معرفة الرفع والنصب وما يتصل بذلك فهو فضل لا يجدى نفعا ولا تحصل منه على فائدة وضربوا له المثل فقالوا النحو في الكلام كالملح في الطعام الى اشباه لهذه الظنون وآراء لو علموا مغبتها لتعودوا بالله منها . ذاك لانهم بايثارهم الجهل على العلم في معنى الصاد عن سبيل الله ، والمتبغى اطفاء نور الله .

وذاك انا اذا كنا نعلم ان الجهة التي منها قامت الحججة بالقرآن هي ان كان على حد من الفصاحة تقصر عنه قوى البشر ومنتها الى غاية لا يطمع اليها بالفكر وكان محالا ان يعرف كونه كذلك الا من عرف اشعر الذى هو ديوان العرب وعنوان الادب ... ثم بحث عن العلل التي بها كان التباين في الفضل وزاد بعض الشعر على بعض كان الصاد عن ذلك صاد عن ان تعرف حجة الله تعالى ، وكان مثله مثل من يتصدى للناس فيمنعهم عن ان يحفظوا كتاب الله تعالى ... ويصنع في الجملة صنيعا يؤدي الى ان يقل حافظه ... ذاك لانا لم نتعبد بتلاوته وحفظه والقيام باداء لفظه على النحو الذى انزل عليه وحرصته من ان يغير ويبدل الا لتكون الحججة به قائمة على وجه الدهر تعرف في كل زمان ويتوصل اليها في كل اوان . ويكون سبيلها سائر العلوم التي يرويها الخلف عن السلف ... فمن حال بيننا وبين ماله كان حفظنا اياه واجتهادنا في ان نؤديه ونرعاه كان كمن رام ان ينسيناه جملة ، ويذهبه من قلوبنا دفعة . ولا فرق بين من اعدمك الدواء الذى تستشفى به من دائك وتستبقى به حشاشة نفسك وبين من اعدمك

«العلم بان فيه شفاء وان لك فيه استبقاء» •

ثم يفترض الشيخ عبدالقاهر ان قائلاً يقول له : ان لنا طريقا اخر الى معرفة اعجاز القران غير ما ذكرت ذلك هو علمنا بعجز العرب عن ان يأتيوا بمثله مع تكرار التحدى عليهم وطول التقريع لهم بالعجز عنه • فيقول ان التعويل على علم الغير وترديد اقواله لا تستبان به معجزة القرآن كما ارادها الله للناس •

لذلك يرى فرضا على المسلمين ان يعرفوا اسرار بلاغة الكتاب الحكيم معرفة حقيقية تناسب قيام البرهان على بقاء المعجزة خالدة على وجه الدهر بدليل علمي ومنطقي لا شك ولا شبهة فيه ثم قال : فانظر اى رجل تكون اذا زهدت انت في ان تعرف حجة الله تعالى وآثرت الجهل على العلم وعدم الاستبانة على وجودها وكان التقليد أحب اليك والتعويل على علم غيرك أثر لديك • الى ان يقول دع الهوى عنك وراجع عقلك واصدق نفسك بين لك فحش الغلط فيما رأيت وقبح الخطأ في الذي توهمت ••••• وهل رأيت رأيا اعجز واختيارا اقبح ممن كره ان تعرف حجة الله تعالى من الجهة التي اذا عرفت منها كانت انور وابهر واقوى واقهر ••••• ثم هل رأيت رأيا اعجز واختيارا اقبح ممن آثر ان لا يقوى سلطان الحجة على الشرك كل القوة ولا تملو على الكفر كل العلو •

ثم يشرع الجرجاني في تفصيل الكلام على من زهد في رواية الشعر وحفظه وذم الاشتغال بعلمه وتبعه فيفند اقوالهم بقول النبي صلى الله عليه وسلم (ان من الشعر لحكمة • وان من البيان لسحرا) وبقوله لحسان بن ثابت (قل وروح القدس معك) (١٥) ••••• ويستشهد بعد ذلك باستحسان كبار الصحابة والتابعين للشعر •

ثم يتوجه الى الذين يزهدون في دراسة النحو فيرى ان صنيعهم هذا

• (١٥) دلائل الاعجاز ص ١٢ •

اشنع من صنيع الذين زهدوا في الشعر ويعتبر قولهم اشبه بان يكون صدقاً
عن كتاب الله وعن معرفة معانيه • ذلك لانهم لا يجدون بدا من ان يعترفوا
بالحاجة اليه فيه اذ كان قد علم ان الالفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الاعراب
هو الذي يفتحها وان الاعراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها •••
انه المعيار الذي لا يتبين نقصان الكلام ورجحانه حتى يعرض عليه والمقياس
الذي لا يعرف صحيفه من سقيمته حتى يرجع اليه • ولا ينكر ذلك الا من ينكر
حسه والا من غالط في الحقائق نفسه • واذا كان الامر كذلك فليت شعري
ما عذر من تهاون به وزهد فيه ولم ير ان يستسقيه من مصبه ويأخذه من
معدنه ورضى لنفسه بالنقص ، والكمال لها معرض ، وآثر الغيبة وهو يجد
الى الربح سيلا •

ثم يتحدث عن اعجاز القرآن في الشؤون البلاغية فيتكلم على الفصاحة
والبلاغة وعلى نظم الكلام بحسب المعاني والفرق بين نظم الكلام ونظم
الحروف وعلاقتها بالتركيب النحوي ، وعلى شبهة الذين حصروا الفصاحة
في صفة اللفظ • ثم يتحدث عن الكناية والمجاز والاستعارة التمثيلية وترجيح
المجاز على الحقيقة وهكذا يسترسل الشيخ عبدالقاهر في دلائل الاعجاز
حتى يستوفى كل ما قيل عن موضوعات علم المعاني والبيان بأسلوب العالم
المحيط بدقائق اسرار البلاغة الواثق من صحة ارائه •

وختاماً اقول ان هذه الدراسة الموجزة لكتابه اسرار البلاغة ودلائل
الاعجاز لا تغني طلاب هذه الابحاث الجليلة عن مدارس الكتابين دراسة
مباشرة باتقان وتأمل وصدق نظر • ذلك لان نفعهما كبير والعلم الذي فيهما
جد غزير •

الفصل السادس عشر

ابن الاثير وكتابه

المثل السائر

هو ابو الفتح ضياء الدين الشيباني المعروف بابن الاثير الجزري الموصلى المولود في العشرين من شعبان (٥٥٨) والمتوفي سنة ٦٣٧ هـ نشأ ابن الاثير بجزيرة ابن عمر • ثم انتقل مع والده الى الموصل وبها حفظ القرآن وكثيرا من الاحاديث النبوية وطرفا صالحا من العلوم فدرس النحو واللغة وعلم البيان وطائفة مختارة من الشعر قديمه وحديثه •

ولما كملت له الادوات قصد في سنة ٥٨٧ الملك الناصر صلاح الدين ابن الامير نجم الدين بن شادي بن مروان • فاستعان بالقاضي الفاضل عبدالرحيم بن علي اللخمي فوصله القاضي بخدمة صلاح الدين • ولم تطل به الاقامة حتى ارسل الملك الافضل الى ابيه صلاح الدين يلتمسه ان يرسل اليه ابن الاثير ، فخيرته صلاح الدين بين ان يقيم في خدمته أو ان ينتقل الى خدمة ولده نورالدين الملك الافضل فاختار ان ينتقل الى خدمة نورالدين فمضى اليه وهو يومئذ شاب لم يكمل العقد الثالث من عمره فاستوزه نورالدين الملك الافضل وحسنت حالته عنده ولما خلاص ملك دمشق للمك نورالدين بعد وفاة ابيه صلاح الدين استقل ابن الاثير بالوزارة ورددت امور الناس اليه والى الحاجب المدعو محاسن العجمي وفي هذه الفترة ضجرت الناس من سياسة ابن الاثير والحاجب واستكر الجند ادارتهما وصمموا ترك دمشق والاتحاق بمصر ، ولما انفصل الجند عنها توجه الملك الافضل الى مصر وفوض امر الدولة الى وزيره ابن الاثير والى حاجبه بن العجمي ،

ولم يكن احدهما احسن سياسة من الآخر فافسدا احوال الحكم على الملك
الافضل وكانا سبيا في زوال دولته • ويقال ان اهل البلاد حين خرج الافضل
هموا بقتل ابن الاثير غير انه تمكن من اخراج نفسه مستخفيا في صندوق
مقفل حتى التحق بالملك وصحبه الى مصر • ويقال ايضا ان الملك الافضل
حينما عاد الى البلاد الشرقية طلب الى ابن الاثير ان يخرج معه ويعود الى
خدمته فاعتذر لانه خاف على نفسه من جماعة كانوا يقصدونه • وبعد مدة
عاد فالتحق بالملك الافضل ولكنه لم يطل مقامه عنده • وما عثم ان فارقه
واتصل بخدمة الملك الظاهر صاحب حلب اخي الملك الافضل • ولكنه لم
يطل مقامه عنده ايضا فعاد الى الموصل ثم تركها وذهب الى اربيل ثم فارقتها
الى سنجار ثم عاد الى الموصل واتخذها دار اقامته وكتب الانشاء لصاحبها
ناصر الدين بن الملك القاهر • ومؤرخو هذا العصر مجمعون على ان ابن
الاثير كان في وزارته سىء السيرة مع رجال الدولة وان احوال السلطنة
كانت تسوء بسببه وكانوا يأخذون عليه امرين :

احدهما انه كان يحاول الايقاع بين الملك الافضل واخيه العزيز
صاحب مصر • وكلما حاول الافضل وهم بالاتفاق مع اخيه اجتهد ضياء الدين
في تنفيره وابقاء الجفاء بينهما مع ما كانت تتطلبه حال المسلمين في ذلك من اتحاد
الكلمة واجتماع الشمل ، اذ كان الصليبيون في نزاع دائم ، وكانوا يهتبلون
فرصة انقسامهم واختلافهم ليغيروا على البلاد وينتقصوها من اطرافها •

وثانيهما انه كان سبيا في اغصاب القاضي الفاضل الذي قرّبه من الملوك
وفتح له باب الاتصال بصلاح الدين •

ويقول المترجم له الاستاذ محي الدين : ولسنا ندري اكان ذلك راجعا الى
المحيط الذي كان يعيش فيه ضياء الدين وهو محيط مضطرب كثير المنازعات
والمشاكل ام كان يرجع الى خلق فيه ؟ ونحن نلمح في كتابه آثار الكبرياء
والصلف والاعتداد بالنفس وهذا خلق ينأى بصاحبه عن الحكمة والانزان

والنظر الى الامور بعين الانصاف ووزنها بميزان الروية والعقل .

مؤلفات ابن الاثير

ذكر ابن خلكان^(١) لابن الاثير عدة مؤلفات وقال : لضياء الدين

تصانيف عدة دالة على غزارة فضله وتحقيق نبه اشهرها :

١ - كتاب المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر وهو في جزئين . جمع

فيه فأوعى ولم يترك شيئا يتعلق بالكتابة الا ذكره .

وستحدث عن هذا الكتاب القيم بعد الانتهاء من ترجمة حال صاحبه .

٢ - كتاب الوشي المرقوم في حل المنظوم وهو مع وجازته في غاية الحسن

والافادة .

٣ - كتاب المعاني المخترعة في صناعة الانشاء وهو ايضا نهاية في بابه .

٤ - ومن مؤلفاته مجموع اختار فيه شعر ابى تمام والبحرئى وديك الجن

والمتنبى وهو في مجلد كبير وحفظه مفيد .

وقال ابو البركات ابن المستوفى في تاريخ اربل : نقلت من خطه

في آخر كتابه المختار ما مثاله .

تمتع به علقا نفيا فانه اختيار بصير بالامور حكيم

اطاعته انواع البلاغة فاهتدى الى الشعر من نهج اليه قويم

٥ - كتاب الجامع الكبير في صناعة المنظوم والمنثور . يقول في مفتحه

« اما بعد فلما كان تأليف الكلام مما لا يوقف على غوره ولا يعرف كنه امره

الا بالاطلاع على علم البيان الذى هو لهذه الصناعة بمنزلة الميزان

احتجت حين شدوت نبذة من الكلام المنثور الى معرفة هذا العلم

المذكور فشرعت عند ذلك فى تطلبه والبحث فى تصانيفه وكتبه فلم

(١) كتاب وفيات الاعيان ٢ - ٦٥ .

اترك في تحصيله سبيلا الا نهجته ولا غادرت بابا الاولجته حتى
اتضح عندي باديه وخافيه وانكشفت لى اقوال الائمة المشهورين فيه :
ولما كان كتاب المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر من الكتب التي
لها علاقة قوية في الابحاث النقدية اقتضى ان نأخذ فكرة عن محتواه.
وتبيّن شيئا عن غرضه واتجاهه • فنقول :

انه كتاب جاء في جزئين •

الجزء الاول منهما مشتمل على مقدمة وعلى ترجمة المؤلف من قبل
محقق الكتاب وناشره الشيخ محمد محي الدين المدرس في قسم التخصص
بكلية اللغة العربية بالجامعة الازهرية ، ذكر في مقدمته هذه الخلال التي
حييت اليه تحقيق وطبع الكتاب • والعمل الشاق الذي لاقاه في اثناء عمله
والفائدة العظمى المتوخاة من دراسة الكتاب على الصورة التي اخرجها به
وتبيان العقل الجبار الذي اتصف به سلف امتنا العربية والخدمة الكبرى
التي قدموها للفكر وللانسانية بعامة وللاجيالهم المتعاقبة بخاصة وكذلك
اشتمل هذا الجزء على خطبة المؤلف نفسه ابان فيها موضوع علم البيان
والآته وادواته والحكم على المعاني في الترجيح بينها وبين الالفاظ • ثم
تحدث عن جوامع الكلم مبينا ان الحكمة ضالة المؤمن • ثم بعد ذلك يدخل
في صميم موضوعه فيتحدث عن الحقيقة والمجاز والفصاحة والبلاغة واران
الكتابة والطريق الى تعلمها • ثم ينشيء في هذا الجزء مقالتين •

المقالة الاولى :

في الصناعة اللفظية ويقسمها الى قسمين ••••• الاول في اللفظة
المفردة ••••• والثاني في الالفاظ المركبة •

ثم يتحدث عن صناعة تأليف الالفاظ فيقسمها الى ثمانية انواع :

١ - في السجع ••••• ٢ - في التجنيس •••

- ٣ - في الترصيع
 ٤ - في لزوم ما لا يلزم
 ٥ - في الموازنة
 ٦ - في اختلاف صيغ الالفاظ واتفاقها
 ٧ - في المعاضلة اللفظية
 ٨ - في المنافرة بين الالفاظ في
 السبك *

المقالة الثانية :

في الصناعة المعنوية * ويقسمها ايضا الى انواع *

- ١ - في الاستعارة
 ٢ - في التشبيه
 ٣ - في التجريد وبهذا ينتهي الجزء الاول *

الجزء الثاني :

اما الجزء الثاني فانه يستمر فيه باتمام الانواع التي بدأها في المقالة الثانية التي ذكرها في جزئه الاول * وهي :

- ٤ - في الالتفات * ٥ - في توكيد الضميرين * ٦ - في عطف
 المظهر على ضميره والافصاح به بعده * ٧ - في التفسير بعد الابهام *
 ٨ - في استعمال العام في النفي والخاص في الاثبات * ٩ - في التقديم
 والتأخير * ١٠ - في الحروف العاطفة والجارة * ١١ - في الخطاب
 بالجملة الفعلية والجملة الاسمية والفرق بينهما * ١٢ - في قوة اللفظ لقوة
 المعنى * ١٣ - في عكس الظاهر * ١٤ - في الاستدراج * ١٥ - في
 الایجاز * ١٦ - في الاطناب * ١٧ - في التكرير * ١٨ - في الاعتراض *
 ١٩ - في الكناية والتعريض * ٢٠ - في المغالطات المعنوية * ٢١ - في
 الاحاجي * ٢٢ - في المبادئ والافتتاحات * ٢٣ - في التخلص والاقضاب *
 ٢٤ - في التناسب بين المعاني * ٢٥ - في الاقتصاد والتفريط والافراط *
 ٢٦ - في الاشتقاق * ٢٧ - في التضمنين * ٢٨ - في الارصاد * ٢٩ - في
 التوشيح * ٣٠ - في السرقات الشعرية *

وبهذه الموضوعات ايضا انتهى ابن الاثير جزءه الثاني من كتابه امثل

السائر •

ولقد وصف ابن الاثير كتابه هذا وصفا مزج فيه الادعاء بالتواضع

وذكر مباحاته بشيء من اللطف والرفق • قال :

ولا ادعى فيما افته من ذلك فضيلة الاحسان ولا السلامة من سلق^(١)

اللسان فان الفاضل من تعد سقطاته وتحصى غلطاته ••••• واذا تركت الهوى

قلت : ان^(٢) هذا الكتاب بديع في اغرابه وليس له صاحب في الكتب

فيقال انه من اخذانه او من اترا به ، مفرد بين اصحابه • ومع هذا فاني اتيت

بظاهر هذا العلم دون خافيه وحمت حول حماه ولم اقع فيه • اذ الغرض انما

هو الحصول على تعليم الكلمة التي بها تنظم العقود وترصع ، وتخلب العقول

فتخدع ، وذلك شيء تحيل عليه الخواطر ، ولا تنطق به الدفاتر •

واعلم ايها الناظر في كتابي ان مدار علم البيان على حاكم الذوق الذي هو

انفع من ذوق التعليم • وهذا الكتاب وان كان فيما يليق به اليك استاذًا ،

فان الدربة والادمان اجدى عليك نفعا واهدى بصرا

وسمعا وهما يريانك الخبر عيانا ويجعلان عسرك من

القول امكانا ، وكل جارحة منك قلبا ولسانا • فخذ من هذا الكتاب ما اعطاك

واستنبط بادمانك ما اخطاك وما مثلي فيما مهدته لك من هذا الطريق الا كمن

طبع سيفا ووضع في يمينك لتقاتل به ، وليس عليه ان يخلق لك قلبا فان

حمل النصال غير مباشرة القتال^(٣) •

وانما يبلغ الانسان غايته ما كل ماشية بالرحل شمالا

(٢) مقدمة الكتاب ج ١ ص ٥ •

(١) سلق اللسان حدثه •

(٣) كتاب المثل السائر ج ١ ص ٦ •

وبعد اهدائه هذه النصيحة يبدأ كتابه بالفصل الاول ويضع تحت هذا
الفصل موضوع علم البيان • ولكنه يمهّد له بالحديث عن موضوع كل علم
فيذكر موضوع علم الفقه والطب والحساب والنحو • حتى اذا استخرج
ضوابط العلوم قال : ان موضوع^(٤) علم البيان هو الفصاحة والبلاغة وصاحبه
يسأل عن احوالهما اللفظية والمعنوية • ثم يقول : البياني والنحوي يشتركان
في تلك الاحوال ولكن النحوي ينظر في دلالة الالفاظ على المعاني من جهة
الوضع اللغوي وتلك دلالة عامة • واما صاحب علم البيان فانه ينظر في
فضيلة تلك الدلالة وهي دلالة خاصة • والمراد بها ان يكون الكلام على
هيئة مخصوصة من الحسن • وذلك امر وراء النحو والاعراب •

الا ترى ان النحوي يفهم معنى الكلام المنظوم والمنثور ويعلم مواقع
اعرابه ، ومع ذلك فانه لا يفهم ما فيه من الفصاحة والبلاغة • ومن هنا غلط
مفسرو الاشعار في اقتصارهم على شرح المعنى وما فيها من الكلمات اللغوية
وتبين مواضع الاعراب منها دون شرح ما تضمنته من اسرار الفصاحة
والبلاغة •

ثم يأتي الى الفصل الثاني فيتحدث فيه عن الات علم البيان وادواته
فيقول :

اعلم ان صناعة تأليف الكلام من المنظوم والمنثور تفقر الى الات كثيرة
وقد قيل : ينبغي للكاتب ان يتعلق بكل علم • حتى قيل : كل ذي علم
يسوغ له أن ينسب نفسه اليه فيقول : فلان النحوي وفلان الفقيه وفلان
المتكلم ولا يسوغ له ان ينسب نفسه الى الكتابة فيقول فلان الكاتب ، وذلك
لما يفتقر اليه من الخوض في كل فن •

وملاك^(٥) هذا كله الطبع فانه اذا لم يكن ثم طبع فانه لا تغني تلك

(٤) كتاب المثل السائر ج ١ ص ٦ •

(٥) ملاك الشئ بكسر الميم بزنة كتاب وبفتح الميم بزنة سحاب هو ما يقوم
به الشئ • ومن هذا قولهم القلب ملاك الجسد •

«الآلات شيئا ومثال ذلك كمثل النار الكامنة في الزناد والحديد التي يقدح
بها ، الا ترى انه اذا لم يكن في الزناد نار لا تفيد تلك الحديد شيئا ؟

وكثيرا ما رأينا وسمعنا من غرائب الطباع في تعلم العلوم حتى ان
البعض يكون له نفاذ في تعلم علم مشكل المسلك صعب المأخذ فاذا كلف تعلم
ما هو دونه من سهل العلوم نكص على عقبيه ولم يكن له فيه نفاذ .

واغرب من ذلك ان صاحب الطبع في المنظوم يجيد في المديح دون
الهجاء او في الهجاء دون المديح او يجيد في المراثي دون التهاني او في
التهاني دون المراثي . وكذلك صاحب الطبع في المنثور . هذا ابن الحريري
صاحب المقامات قد كان على ما ظهر عنه من تنسيق المقامات واحدا في فنه
فلما حضر بغداد ووقف الناس على مقاماته قيل هذا يصلح لكتابة الانشاء في
ديوان الخلافة ويحسن اثره فيه فاحضر وكلف كتابة كتاب فافحم ولم يجبر
السانه في طويلة ولا قصيرة فقال فيه بعضهم .

شيخ لنا من ربيعة الفرس ينتف عشونه من الهوس
انطقه الله بالمشان وقد الجمه في بغداد بالخرس

والآن وبعد هذا الاجمال يهمننا أن نتعرف الى بعض موضوعات كتاب
«المثل السائر والى اسلوب ابن الاثير وكيف كان يزاول ابحاثه ويقربها الى
اذهان طلابه .

ولما كان غرضنا من هذه الدراسات اعطاء فكرة عامة عن الكتب المقررة
في منهاج دراستنا النقدية وهي كثيرة لذلك لزمنا ان نأخذ من كل كتاب بطرف
حتى نكون في مأمن من الانزلاق والانغمار في متاهات ابحاث تلك الكتب .
ولهذا السبب سنتناول ما هو اجدر بالمعرفة واهرى بتحقيق الغرض
المطلوب . وليكن موضوع الحقيقة والمجاز . لان ابن الاثير يعتبره من اهم
موضوعات علم البيان بل يجزم فيقول ان موضوع الحقيقة والمجاز هو علم البيان

بأجمعه^(٦) وان في تصريف العبارات على الاسلوب المجازي فوائد كثيرة لا تحصى . فيقول فلما الحقيقة فهي اللفظ الدال على موضوعه الاصلي .

وما المجاز فهو ما اريد به غير المعنى الموضوع له في اصل اللغة ، وهو مأخوذ من جاز من هذا الموضوع الى هذا الموضوع اذا تخطاه اليه فالمجاز اذا هو اسم للمكان الذي يجاز فيه كالمعاج والمزار وأشباههما . . . وحقيقته هي الانتقال من مكان الى مكان فجعل ذلك لنقل الالفاظ من محل الى محل كقولنا زيد اسد فان زيدا انسان والاسد هو هذا الحيوان المعروف . وقد جزنا من الانسانية الى الاسدية ثم يقول : وقد ذهب قوم الى ان الكلام كله حقيقة لا مجاز فيه . وذهب اخرون الى انه كله مجاز لا حقيقة فيه . وكلا هذين المذهبين فاسد عندي . . . الى ان يقول : الحقيقة اللغوية هي حقيقة الالفاظ في دلالتها على المعاني وليست بالحقيقة التي هي ذات الشيء اي نفسه وعينه . فالحقيقة اللفظية اذا هي دلالة اللفظ على المعنى الموضوع له في اصل اللغة والمجاز هو نقل المعنى عن اللفظ الموضوع له الى لفظ اخر وذلك ان المخلوقات كلها تفتقر الى اسماء يستدل بها عليها ، ليعرف كل منها باسمه . من اجل التفاهم بين الناس . وهذا يقع ضرورة لا بد منها . فالاسم الموضوع بازاء المسمى هو حقيقة له فاذا نقل الى غيره صار مجازا . ومثال ذلك انا اذا قلنا شمس اردنا به هذا الكوكب العظيم الكثير الضوء ، وهذا الاسم له حقيقة لانه وضع بازائه ، وكذلك اذا قلنا بحر اردنا به هذا الماء العظيم المجتمع الذي طعمه ملح وهذا الاسم له حقيقة لانه وضع بازائه . فاذا نقلنا الشمس الى الوجه المليح استعارة كان ذلك له مجازا لا حقيقة . وكذلك اذا نقلنا البحر الى الرجل الجواد استعارة كان ذلك له مجازا لا حقيقة . فان قيل ان الوجه المليح يقال له شمس وهو حقيقة فيه وكذلك البحر يقال للرجل الجواد وهو حقيقة فيه .

(٦) كتاب المثل السائر ج ١ ص ٥٧ .

فالجواب عن ذلك من وجهين احدهما نظري والاخر وضعي ، اما
النظري فهو ان الالفاظ انما جعلت ادلة على افهام المعاني ولو كان ما ذهبت
اليه صحيحا لكان البحر يطلق على هذا الماء العظيم المالح وعلى الرجل الجواد
بالاشتراك . وكذلك الشمس ايضا فانها كانت تطلق على هذا الكوكب
العظيم الكثير الضوء وعلى الوجه المليح بالاشتراك ، وحينئذ فاذا ورد احد
هذين اللفظين مطلقا بغير قرينة تخصصه فلا يفهم المراد به ما هو من احد
المعنيين المشتركين المندرجين تحته . ونحن نرى الامر بخلاف ذلك فانا اذا قلنا
شمس او بحر واطلقنا القول لا يفهم من ذلك وجه مليح ولا رجل جواد
وانما يفهم منه ذلك الكوكب المعلوم وذلك الماء المعلوم . لا غير فبطل اذن
ما ذهبت اليه بما بيناه ووضحناه .

فان قلت ان العرف يخالف ما ذهبت اليه فان من الالفاظ ما اذا اطلق
لم يذهب الفهم منه الا الى المجاز دون الحقيقة ، كقولهم الغائط ، فان
العرف خصص ذلك بقضاء الحاجة دون غيره من المطمئن من الارض .

قلت في الجواب هذا شيء ذهب اليه الفقهاء وليس الامر كما ذهبوا
اليه لانه ان كان اطلاق اللفظ فيه بين عامة الناس من اسكاف وحداد ونجار
وخباز ومن جرى مجراهم فهؤلاء لا يفهمون من الغائط الا قضاء الحاجة
لانهم لم يعلموا اصل وضع هذه الكلمة وانها مطمئن من الارض . واما
خاصة الناس الذين يعلمون اصل الوضع فانهم لا يفهمون عند اطلاق اللفظ الا
الحقيقة لا غير . الا ترى ان هذه اللفظة لما وردت في القرآن الكريم وارىد
بها قضاء الحاجة قرنت بالفاظ تدل على ذلك كقوله تعالى (او جاء احد منكم
من الغائط) فان قوله او جاء احد منكم من الغائط دليل على انه اراد قضاء
الحاجة دون المطمئن من الارض . فالكلام في هذا وامثاله انما هو مع علم

اصل الوضع حقيقة • والنقل عنه مجازا واما الجهال فلا اعتبار بهم ولا اعتداد
بأقوالهم •

واما الوجه الوضعي فهو ان المرجع في هذا وما يجرى مجراه الى
اصل اللغة التي هي وضع الاسماء على المسميات ولم يوجد فيها ان الوجه
يسمى شمسا ولا ان الرجل الجواد يسمى بحرا • وانما اهل الخطابة
والشعر توسعوا في الاساليب المعنوية فنقلوا الحقيقة الى المجاز ولم يكن ذلك
من واضع اللغة في اصل الوضع • ولهذا اختص كل منهم بشيء اخترعه
من التوسعات المجازية •

هذا امرؤ القيس قد اخترع شيئا لم يكن قبله • فمن ذلك انه اول
من عبر عن الفرس بقوله (قيد الا وايد) • ولم يسمع ذلك لأحد من قبله •
وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يوم حنين الان حمى
الوطيس واراد بذلك شدة الحرب فان الوطيس في اصل الوضع هو التور
فنقل الى الحرب استعارة • ولم يسمع هذا اللفظ على هذا الوجه من غير
النبي صلى الله عليه وسلم وواضع اللغة ما ذكر شيئا من ذلك فعلمنا حينئذ
ان من اللغة حقيقة بوضعه ومجازا بتوسعات اهل الخطابة والشعر •

هذا موضوع واحد من موضوعات المثل السائر التي ذكرت مجملها
في مقدمة هذا البحث • آمل أن يكون قد أعطانا فكرة صحيحة عن اسلوب
الكتاب وعن اتجاه مؤلفه في تبيان علمه وفضله وتصوير خواطره •

ومن اجمل ما قيل في كتاب المثل السائر ما قاله الاستاذ محمد خلف
الله عميد كلية الآداب بجامعة الاسكندرية في مقدمته لكتاب (اثر القرآن
في تطور النقد العربي) تأليف محمد زغلول سلام :

حقا انه كتاب جامع لمسائل العلم حافل بالطريف من التحليل الفني
لنماذج الادبية • وفيه كثير من النظرات الاصيلية والملاحظات المبتكرة •
كتاب ممتع في الدراسات القرآنية واتى على ابواب من البيان لم يتعرض
لها السابقون • وهداه الله الى اشياء جديدة بلغ بها مرتبة الاجتهاد •

الفصل السابع عشر

الكتب النقدية الحديثة

ان تاريخ النقد عند العرب مرتبط بتاريخ ادبهم أشد الارتباط • من هنا صح أن نقول : ان النقد وجد عندهم يوم وجد ادبهم ذلك لان الاديب عندما يريد ان يظهر للناس ادبه لا معدى له من التفكير فيما هو مقدم عليه من نسج شعر أو تدبيح رسالة أو خطبة أو وصية أو موعظة وما يجرى هذا المجرى •

فهذا النوع من التفكير الذي يدعو الاديب الى التمحيص والتبديل والتغير في كلامه هو النقد بعينه • ولهذه العلة نفسها كان بعض الشعراء الجاهلين يجسسون اشعارهم حولا كاملا ثم يعرضونها على الحذاق ينقدونها ويهذبونها ويفيرون بعض ابياتها ويتخيرون لها أجود الكلام وأحسنه • وبعد هذا التهذيب والتنقيح يطلعون بها على الناس ••• غير ان صحة النقد وفساده يعود الى مبلغ ثقافة الناقد وتبصره في الامور •

ولما كانت البيئة الطبيعية عند العرب بيئة بسيطة تفتقر الى التعليل والتحليل ولا يهتمها التعمق في البحث • ولما كانت حياتهم الفكرية والاجتماعية غير معقدة كان من الطبيعي ان يكون نقدهم سمحا مبنا على السليقة والفطرة لا يهتم كثيرا بذكر الاسباب والمسببات ••• على هذا السنن الفطري جرى نقدهم الادبي في عصرهم الجاهلي ولا سيما في الشعر الذي هو في حقيقة امره احساس وعاطفة وخيال اكثر مما هو عقل وتبصر وتدقيق •

مضى العصر الجاهلي وطفق العرب يجتازون حياة البداوة وطراز انظمتها القبلية • وجاءهم الاسلام حاملا لهم عز الدنيا والآخرة • بعد ان كانوا حائرين يمارسون عقائد متعددة انحدرت اليهم ممن جاورهم من

الاقوام الزرد شتية والوثنية وغيرها • وبينما هم في هذه المناهة جاءتهم ملائكة الرحمة تقول لمنقذهم الاعظم ونيهم الاكرم (اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم) ••• وبهذا التنزيل الحكيم من رب العالمين علم العرب بانهم خير امة اخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر • فحينئذ انتقلوا من طورهم البدائي الى طور حضارى عظيم شمل الكون والحياة • فأتسعت بذلك آفاقهم الفكرية وارتفعت حياتهم الاجتماعية وتبع هذا الرقى رقى اسلوبهم في الادب والنقد •••

لقد اكدت ابحاث النقد الادبي على ضرورة الاطلاع على بعض المصادر النقدية الحديثة منها :-

١- كتاب تاريخ النقد الادبي عند العرب

هو كتاب الفه الاستاذ طه ابراهيم لطلبة كلية الآداب في جامعة القاهرة مبتدئاً بالعصر الجاهلي ومنتهاً بالقرن الرابع الهجرى • غير ان مؤلفه رحمه الله توفى قبل ان يتم طبعه • وقد عزّ على اخوانه الاساتذة في الجامعة ان يضع جهده فانبرى من بينهم الاستاذ احمد الشايب فطبعه وقدم له بمقدمة جديرة بالمطالعة •

ولقد لاحظ الاستاذ الشايب في تلك المقدمة على نقاد هذا العصر انهم مشوا في اتجاهين مختلفين تبعاً لما اتيح لكل فريق منهم من الثقافة ولما تيسر له من الاطلاع •

فالذين درسوا الآداب الغربية حاولوا ان يفرضوا قواعدها على الآداب العربية حتى اذا تنكر لهم الآدب العربي وابى عرفان الاراء المنقولة والمذاهب المستحدثة وصموه بانه ادب متأخر فقير لا يمت الى الحضارة بشي •

واما الذين لم يظفروا بهذه الدراسات الاجنبية فوقفوا في مباحثه النقدية عندما كتبه الاقدمون من نقاد الادب العربي ، ممن غلبت على مذاهبهم

الافكار الجزئية والمباحث الموجزة الضيقة والنظرات السريعة ... اذ قلما تجاوزوا في تقديم الكلمة المفردة والصورة الفذة والمعنى المستقل . وهكذا يرى ان النقد الادبي بقي محصورا في دائرة شكلية هي جسم الادب لا روحه دون عناية بوحدة القصيدة ووحدة الديوان وبغير التفات الى شخصية الشاعر وببسته وعصره .

ويقول الاستاذ الشايب في تلك المقدمة ايضا : ان الفريق الاول قد اخطأ خطأين اساسيين .

احدهما ان الادب العربي الذي يطالبونه بهذه المذاهب الفنية التي فاضت بها الآداب الاجنبية ، كان ولا يزال ادبا قديما نشأ منذ عهد بعيد وفي بيئات طبيعية وعقلية واجتماعية تخالف هذه البيئات التي انشأت الأدب الحديث . فليس من المعقول ان يتساوى النوعان وليس من الانصاف وصدق الموازنة ان نلتمس في ادبنا خواص قد لا يؤاويه بها عصره الماضي ولا بواعثه الغابرة .

ثانيهما ان قوانين النقد الادبي واصوله لا تفرض على الأدب فرضا ولا تلقى عليه القاء . وانما يجب ان تستنبط من نصوصه الممتازة على انها خواص وجدت فيها فاكسبتها القوة والجمال وجعلتها قادرة على التأثير والخلود .

ولقد وزعت تلك المحاضرات على ابواب . وجعلوا الباب الاول في نقد العصر الجاهلي والباب الثاني في نقد صدر الاسلام . اما الباب الثالث فقد تحدثوا فيه عن اثر المتقدمين من اصحاب النحو واللغة في النقد الادبي . والباب الرابع قد قصروه على محمد بن سلام الجمحي وكتابه طبقات الشعراء . وخصصوا الباب الخامس للخصومة بين القدماء والمحدثين والباب السادس جعلوه للنقد في القرن الثالث . واما الباب السابع وهو الاخير فاجعلوا فيه النقد في القرن الرابع .

٣٠ - هو كتاب الفه الاديب احمد الشايب الاستاذ بكلية الآداب في الاسكندرية • دعا فيه الى معرفة طبيعة الأدب وعناصره وبعض مقاييسه النقدية • كما دعا الباحثين لتناول النقد الادبي الفني بالدرس والتمحيص بجانب النقد التاريخي والفردى • ولقد تناول فيه ابحاثا قيمة في معاني الادب وموازين النقد ثم تكلم عن العاطفة والفكرة والاسلوب والخيال وتاريخ الادب وثقافة الاديب وبين الفرقى بين العلم والفن ووظيفة الادب في الحياة • والعوامل المؤثرة في حياة الاديب كالمكان والزمان والجنس والدين والسياسة والاتصال بين الشعوب • ثم تحدث عن النقد الادبي فاعطى خلاصة تاريخية للنقد اليوناني والنقد العربي وتكلم عن الذوق الادبي والعوامل المؤثرة فيه والمكونه له •

ثم تكلم عن وظيفة النقد الادبي ومقاييسه الموضوعية والذاتية وعاد فتكلم بأسهاب عن العاطفة الادبية ومعناها والخيال وتعريفه والحقيقة ومنزلتها والصورة الادبية وجمالها ، والوحدة ومستلزماتها والاسلوب وصفاته • ثم تحدث عن اساس السرقات وامثلتها والموازنة وقيمتها • وبعد هذه الابحاث المستفيضة خصص الباب السادس في الشعر وعناصره ثم تقسيمه عند الغربيين وعند العرب كما تحدث عن موسيقى الشعر واوزانه وفنونه وقوافيه •

اما الباب السابع وهو الاخير فقد خصص فصله الاول للنشر واقسامه عند الفرنجة وعند العرب • واما الفصل الثاني منه فقد جعله للقصة وعناصرها وانواعها وعاطفة الحب فيها • ثم مقاييسها النقدية من حيث المادة والطريقة • واخيرا انتهى الكتاب بخاتمة قال فيها

ان المقاييس التي اشتمل عليها الكتاب مقاييس عامة تقوم على اصلين
من علمي النفس والجمال • وهي بذلك اليق بالنقد الذي لا يمكن
ان يكون علما مطلقا ما دام الذوق حكمه الاخير ••••• ثم يقول : ان
هناك نقدا وصفا او ايضا حيا يُعنى ببيان خواص النص الادبي دون عناية
بالحكم عليه ••••• وهو نقد يخضع لمثل الموازنة بين البحترى
وابي تمام •

وهناك نقد ترجيحي او قيمي • ومهمته الحكم على النص الادبي
بالجودة او الرداءة ووضع في درجة فنية خاصة بالنسبة لغيره فيعده
بذلك فاضلا او مفضولا • ولعل هذا الاخير هو الغالب على النقد
العربي القديم (١) •

هذا الى انه غلب عليه ايضا ذلك النوع الجزئي او الموضوعي
الذي يتناول كل شاهد وحده بالنقد والتقدير مع الاعتماد على الذوق
المدرّب ، وان كان الذوق لا يلزم الاخرين الا اذا كان معللا ، على
ان التعليل ليس ممكنا في كل حالة لان من الاشياء اشياء تحيط بها
المعرفة ولا تؤديها الصفة •

وهناك ظاهر تحسسه النواظر وباطن تحصله الصدور وأكثر ما تكون
تلك الدقائق في مواطن الحسن والجمال • فتلك قد تحسها واما
تعليلها فمسير الا بالفاظ عامة لا تحدد معنى • ولذلك شاعت في النقد
هذه الالفاظ التي ينكرها المحدثون كالجزالة والرقّة والانسجام
وحلاوة اللفظ وكثرة الماء والرونق والاغراب والابداع والطرب
والصبوة (٢) مما يمكن ردها الى اصل نفسي هو قوة الانفعال وجماله
واصل فني هو خلوّ الشعر من الصنعة والتكلف •

(١) راجع الوساطة ص ٣٨ صبيح •

(٢) الوساطة ص ٣٢ صبيح •

ومهما يكن فيمكن رد كثير من المقاييس النقدية القديمة الى

الانواع الآتية :

١ - مقاييس شعرية تقليدية كما نقد الامدى ابا تمام بانه لم يصف
المرأة بما درج عليه الشعراء السابقون من ضمور الخصر وري
الارداف وكما يذكر الجرجاني طرق وصف السلاح عند
الشعراء الماضين وتبيان غرضهم من ذلك •

٢ - مقاييس لغوية ويراد بها عدم الدقة في استعمال اللغة او الخروج
عن نهج الماضين في صوغ العبارات كما عابوا على ابي تمام
قوله (لا انت انت ولا الديار ديار) •

بحجة ان هذا من اقوال العوام :

٣ - مقاييس بيانية تتصل بالاستعارات والتشبيهات التي تكون الصور
وتبني الخيال • ومقاييس الجودة فيها القرب وعدم الاغراب
وصدق الدلالة لذلك عابوا على ابي تمام قوله :

لا تسقني ماء الملام فاني صب قد استعذبت ماء بكائي

لجعله للملام ماء • وعابوا على المتنبي •

(بليت بلى الاطلال ان لم اقف بها وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه)
بأنه أراد المبالغة في طول الوقوف فبالغ في تقصيره •

٤ - مقاييس انسانية وهي التي ينتزعها النقاد من طبائع النفوس
فيقبلون من اقوال الشعراء ما يلائمها ويرفضون ما ينافيها لذلك
عابوا على ابي تمام قوله •

دعا شوقه يا ناصر الشوق دعوة فلباه ظل الدمع يجرى ووابله

وعابوا على البحراني قوله :

نصرت لها الشوف اللجوج بادمع تلاحقن في اعقاب وصل تصرما

اذ الدمع لا يقوى الشوق بل يشفى منه •

٥ - مقاييس عقلية ومردها الثقافة العامة والتجارب اليومية فلما قال

ابو تمام •

تعجب ان رأيت جسمي نحيفا كأن المجد يدرك بالصراع

عابوه بان الصراع ليس من النحافة والجسامة في شيء ، ولو

قال : كان المجد يدرك بالجسامة لأصاب •

هذه هي المقاييس النقدية الموضوعية القديمة اوجزناها لتكون

دليلا لقراء النقد الادبي القديم •

* * *

٣ - أسس النقد الادبي عند العرب

ذلك كتاب الفه الدكتور احمد بدوى استاذ النقد الادبي بكلية دار

العلوم في جامعة القاهرة وطبعه سنة ١٩٥٨ وقدم له بمقدمة ذكر فيها ان

للغرب تراثا ضخما وذخائر قيمة في الادب والنقد غير انها منشورة لم يجمعها

عقد ولم توضع تحت عنوان الاصطلاحات المعروفة عندنا اليوم •

ثم قال ما معناه : اذا كانت العرب لم تستعمل النقد الادبي بهذا المصطلح

الحديث فانها قد عرفته عملا •• وقال ان النقد في نشأته ابان العصر الجاهلي

كان يعتمد على السليقة والفطرة ، وكان يستمد احكامه ويصدرها عن الذوق

في كل ما كان يديه من الاراء • ولذا لم يكن نقادهم يبينون علل واسباب

الجمال والقبح اذ لم تكن ثمة علوم قد دونت •

ويرى ايضا ان النقد الادبي قد تابع تقدمه في صدر الاسلام فروى

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه قال لبعض الوفود ، انشدوني لاشعر

شعرائكم قيل له ومن هو ؟ قال زهير لانه لا يعاظم بين القول ولا يتبع حوشي

الكلام ولا يمدح الرجل الا بما فيه •

ويرى ان النقد قد ارتقى رقيا ملحوظا في اواخر القرن الاول • وصار الشعراء والادباء يكثر من الحديث في النقد • وظهر بعد هذا القرن نقاد بنوا تقدمهم على اساس من الذوق العلمي وتمثل ذلك في فريق من النحويين واللغويين • ولم يقف تقدمهم عند الصياغة والشكل وتحديد معاني الالفاظ بل مضوا يتفهمون الشعر ويتذوقونه ويدركون ما يمتاز به شاعر عن شاعر ويوازنون بينهم ويضعونهم في طبقات • ثم الفت بعد ذلك كتب كثيرة تناولت النص من نواحيه المختلفة فبينوا تأثيره في النفس ومخالطته للقلب ووصفوا اسلوبه من حيث وضوحه او غموضه ، جماله او قبحه • حتى اذا جاء عبدالقاهر الجرجاني بكتابه اسرار البلاغة وجاء بعده السكاكي ملخصا ما شرحه عبدالقاهر مقسما علوم البلاغة الى معان وبيان وبديع فحينئذ اتجهت جهود العلماء الى علوم البلاغة متناولين بعض مسائل النقد الادبي ••• ويرى الدكتور بدوى ان علوم البلاغة ليست بشيء منفصل عن النقد الادبي بل هي جزء اساسي من علومه ••••• ويقول في مقدمته ايضا ان في هذا الكتاب الذي اقدمه عرضا موجزا لما وصل اليه العرب في النقد الادبي من نظرات • ولما كان هذا التراث قد ساهم في تكوينه رجال كثيرون ونهض باعبائه اجيال متتابعة فان الشخصية لا تعينني بقدر ما تعينني الفكرة •

ولقد جرى الدكتور بدوى في تأليف كتابه هذا على النمط الذي جرى عليه سلفه من النقاد • فتناول دراسة الادب شعرا ونثرا والمواد التي كانوا يعدونها ضرورية للاديب المنتج والناقد والدارسين لهما • وجعل كل ذلك في الباب الاول من الكتاب •

اما الباب الثاني فقد تحدث فيه عن النقد والنواحي التي تناولها نقاد العرب ثم الناقد وما يجب ان يتصف به من صفات عقلية وخلقية وثقافية • ثم الذوق ومدى اعتماد النقاد عليه ثم مظاهر الجمال والقبح في انتاج الشعراء والكتاب والفوائد التي ادركوها من تقدمهم •

واما الباب الرابع فقد خصصه لنقد الشعر وتعريفه والمؤثرات فيه
وفنونه كالغزل والمدح والفخر والرثاء والهجاء والعتاب والاعتذار والوصف
والحماسة والحكمة واغراض اخرى *

ثم تحدث فيه عن تحقيق النص الشعري وبناء القصيدة ومطلعها وحسن
التخلص وحسن المقطع ووحدة البيت ووحدة القصيدة والوزن والقافية *
واختلاف العلماء في ترجيح اللفظ على المعنى والعكس * ثم مقاييس نقد
المعنى ونقد الاسلوب * ثم العاطفة ومقاييس نقدها والخيال ومقاييس نقده
والشعر وعموده ثم دراسة نقدية مستقلة *

وتحدث في الباب الرابع عن النثر وانواعه ثم النثر المثالي عند نقاد
العرب وتحدث عن القرآن الكريم واعجازه * وذكر نماذج من نقد العرب
للنثر * ووصف الخطيب المثالي عندهم وختمه بملحق شرح فيه بعض العبارات
النقدية عند العرب * وبخلاصة استعرض فيها اصول الاراء الدائرة حول
النقد * واخيرا اتمنى ان يرجع الطلاب اليها للعلم الموجود فيها *

٤ - النقد المنهجي عند العرب

هذا اسم كتاب الفه الدكتور محمد مندور في النقد الادبي * وطبعه سنة
١٩٤٨ وجعله في جزئين خصص الجزء الاول بتاريخ النقد عند ابن سلام
المولود في النصف الاول من القرن الثاني الهجري الى ابن الاثير المولود
سنة ٥٥٨ هـ والمتوفي سنة ٦٣٧ هـ والذي يجب معرفته مبدئيا عن محتوى
هذا الكتاب هو ان مؤلفه اخذ بالمنهج التاريخي باعتباره المنهج الذي استقر
الباحثون الغربيون على جدواه منذ اوائل القرن التاسع عشر الى يومنا هذا *
والذي بفضل جددت الانسانية من معرفتها بترائنا الروحي وزادته خصبا * *
ويرى الدكتور ان النقد الادبي نشأ عربيا وظل عربيا صرفا * * * * * وعنده ان
اساس كل نقد هو الذوق الشخصي تدعمه ملكة تحصل في النفس بطول
ممارسة الاثار الادبية وعلى هذا فالنقد عنده ليس علما ولا يمكن ان يكون

علما وان وجب ان نأخذ فيه بروح العلم ثم يقول لو فرضنا جدلا
امكان وضع علم له لوجب ان يقوم ذلك العلم بذاته . اذ من المعروف ان
العلوم المختلفة لا تنمو ولا تثمر الا بفضل استقلال مناهجها ومبادئها التي
التي تستقى من موضوع دراستها .

ثم اخذ المرحوم مندور في تأليف كتابه باتباع المبادئ الثلاثة التي اتبعها
ابن سلام^(٣) . وهي الزمان والمكان وفن النقد .

فجعل من الشعراء مجموعتين جاهليين واسلاميين . ثم جعل بعضهم
شعراء لعامة العرب وبعضهم شعراء اقليميين . ثم عاد فقال : ان من الشعراء
من انفرد بفن بذاته دون ان يقصد الى ذلك الفن بل سبق اليه بدافع من
حياته . ومن اولئك اصحاب المراثي مثل متم بن نويرة والخنساء واعشى
باهلة وكعب بن سعيد الغنوي .

ثم تحدث الكتاب عن فطنة ابن سلام والشروط التي اوجب توفرها
في النقد والناقد . . . فذكر منها .

(١) الدربة والممارسة في الآثار الادبية لأن كثرة الدراسة تعدى على
العلم .

(٢) تحقيق النصوص وهذه اولى عمليات النقد واساسه المتين .

(٣) تفسير الظواهر الادبية التي تظهر على الادباء فتنشئهم نشأة خاصة .
كطابع الرقة والسلاسة على شعر عدى بن زيد بسبب سكناه الحيرة .
وكظهور كثرة الشعر أبان اشتعال نار الحرب ، وكظهور الشعر العذري
للصراع المعنوي بين الحب والعفة والدين والغريزة .

(٤) اسس المفاضلة مثل كثرة شعر الشاعر وتعدد اغراضه ودقة معانيه
وجمال تعبيره .

(٣) كتاب النقد المنهجي ج ١ - ص ٤ .

ثم تكلم عن ابن قتيبة في كتابه « الشعر والشعراء » الذي اخبر فيه عن ازمان الشعراء واحوالهم في شعرهم وقبائلهم وطبقاتهم • وعن الوجوه التي يختار الشعر عليها ويستحسن لها • وعن الروح العلمية الصائبة في دعوتها الى تحكيم النظر الشخصي والاستقلال بالرأى ورفضه تفضيل القديم لقدمه ••• ولا يرى الدكتور تناقضا بين قول ابن قتيبة المذكور وبين حرصه على ان يظل النظر في مسائل اللغة والادب خاضعا للتقاليد العربية الصحيحة • ومع هذا التقدير له فانه يراه دون ابن سلام في ذوقه ومنهج تأليفه ودون الأمدى في عدم نقده النصوص نقدا موضوعيا وتحليليا •• ويرى الدكتور ان كل ما عمله ابن قتيبة في كتابه « الشعر والشعراء » هو ايراده اخبارا وقصصا عن الشعراء المختلفين ثم بعضا من اشعارهم دون مناقشة ولا حكم الا ان يكون حكما تقليديا يرويه عن الغير ولا فضل له فيه •

وقال الدكتور ان نقد ابن قتيبة الشعر في الفاظه ومعانيه نقد سابق مقرر • وان قوله الالفاظ خدم للمعاني يدل على انه يقصد بالمعنى احد امرين ١ - الفكرة • ٢ - المعنى الاخلاقي فاما الفكرة فبدليل انه ينقد الابيات الآتية لخلوها من كل معنى •

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالاركان من هو مسح الى النخ ••• اذ ان من الواضح ان هذه الابيات الجميلة التي نشرها ابن قتيبة لا تحمل في نظره أية فكرة وانما هي تصوير فني رائع استطاع عبدالقاهر ايجرجاني ان يدرك جماله فيما بعد •

اما تطلبه لمعنى اخلاقي فواضح من اعجابه بمثل قول ابي ذؤيب
والنفس راغبة اذا رغبتهها واذا تردت الى قليل تنقع
ويرى الدكتور ان نظرة ابن قتيبة نظرة ضيقة • لان مادة الشعر

عنده ليست المعاني الاخلاقية كما انها ليست الافكار وان من اجوده ما يمكن
ان يكون مجرد تصوير فني • كقول ذى الرمة الشاعر الرقيق الحس وقد
حط رحاله بمنزل الحبيبة وتفقدتها فلم يجدها •

عشبة مالي حيلة غير انني بلقط الحصى والخطفى الترب مولع
أخط وأمحو الخط ثم أعيدته بكفي والغربان في الدار وقّع
وبعد كلام طويل يقول : ان ابن قتيبة ليس ناقدا وانما الناقد الذى
يتناول النصوص ، يدرسها ويميز بين اساليبها كما فعل الامدى الذى
اصبح النقد بفضلها نقدا منهجيا ولم يعد مجرد خواطر كما كان من قبل ولا
احكاما تستقى من جزئية ثم تعمم •

وعلى هذا النمط من النقد يمارس مذهب البديع ونشأة النقد المنهجي
عند ابن المعتز وقدامة • ثم الخصومة بين القدماء والمحدثين ، ثم يتكلم عن
الأمدى والموازنة بين الطائين وبيان منهجه وذوقه الادبي • ثم الخصومة
حول المتنبي • ثم كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه للجرجاني ثم بيان
منهجه فى النقد وذوقه الادبي • ثم اجرائه موازنة سريعة بين الجرجاني
والامدى وبين الجرجاني والبديع ثم مناقشة الجرجاني لما عابه النقاد على
المتنبي • ثم يتحدث عن يتيمة الدهر للثعالبي وبيان ما فيها من محاسن
ومساوى المتنبي • ثم يختم الجزء الاول من كتابه النقد المنهجي عند العرب
بفصل يبين فيه كيف تحول النقد الى بلاغة ويسرد في هذا الفصل سردا
سريعا جميع ما تقدم من ابحاثه النقدية •

اما الجزء الثاني فانه لا يتجاوز الخمسين صفحة تحدث فيها عن
موضوعات النقد ومقاييسه فى ثلاثة فصول • تكلم فى الفصل الاول
عن الموازنة بين الشعراء والمنهج العام • وتكلم فى الفصل الثاني عن نشأة
دراسة السرقات ومشكلة الاصاله • وبيان رأى عبدالعزیز الجرجاني
وعبدالقاهر الجرجاني فى العام المشترك والخاص • ثم تقسيم السرقات الى

انواع عند ابن رشيق وابن الاثير •
فقد تكلم فيه عن نشأة علوم البلاغة • وعن النقد القيمي والنقد الوصفي
ومقاييس النقد الموضوعي وكتاب ثعلب وكتاب الباقلائي - اعجاز القرآن -
ومقاييس الجمال عند الامدي وعبدالعزيز الجرجاني • اساس فني واسباس
نفسى • ثم مقاييس النقد الاخرى - مقاييس شعرية تقليدية ومقاييس لغوية
ومقاييس بيانية ومقاييس انسانية ومقاييس عقلية واخيرا الاساس اللغوى
الفقهى عند عبدالعزيز الجرجاني •

٥ - كتاب النقد الادبي

لاحمد امين

كان من الممكن ان نقدم بحث هذا الكتاب على غيره من هذه الكتب
النقدية الحديثة التى اوجزنا وصفها • ولكننا وضعناه فى الخاتمة لانه كتاب
جامع لاشتات الابحاث النقدية فى مختلف العصور الادبية ، ليكون بمثابة
خلاصة لما جاء فى هذه الدراسات التى بين ايدينا • وعذرى فى ذلك كعذر
صاحب يتيمة الدهر حيث يقول ان العرب قد تبدأ بذكر الشئ والمقدم
غيره • وبعد :

فانه كتاب واحد جعله مؤلفه رحمه الله فى جزئين الجزء الاول
خاصا باصول النقد ومبادئه والجزء الثانى خاصا فى تاريخ النقد عند
الافرنج وعند العرب •

ومما هو جدير بالملاحظة ان المرحوم احمد امين يرى فى الجزء
الاول من كتابه المذكور ان قواعد النقد الادبي عند الافرنج تنطبق على الادب
العربى • لذلك جعل لكل قاعدة من قواعد النقد عند الافرنج أمثلة عربية
لأنها أدنى الى ذوق القارىء العربى ••• ويرى ان الغرض من دراسة النقد
هو معرفة القواعد النقدية التى يستطيع الناقد بالاطلاع عليها أن يحكم على

القطعة الادبية بالجودة أو الرداءة ثم درجتها من الحسن أو القبح ... ثم تحدث عن قيمة الدراسة التاريخية في فهم الادب كما تحدث عن العاطفة والمعنى والاسلوب والخيال ونظم الكلام شعرا ونثرا ، والعناصر الاساسية للاسلوب ، والفرق بين القصة والرواية والمسرحية ، ثم عاد فأعطى نظرة عامة في النقد ونواحيه التاريخية . ثم مبدأ العالمية في الادب . وختم الجزء الاول بشواهد متفرقة لكل ما سبق في ثنايا هذا الجزء كتوضيح وتعليق على أغليتها بما يناسبها .

اما الجزء الثاني فقد تناول فيه تاريخ النقد عند الافرنج والعرب . وقصر البحث في تاريخ النقد الاوربي على العصور الوسطى والعصور الحديثة لانها اكثر اتصالا بأدبنا وأمس بحياتنا . ثم تحدث فيه عن عوامل انحلال الكلاسيكية الحديثة وعن السابقين الاولين من النقاد الانجليز مثل جراي ، وديدرو ، ثم تحدث عن جان جاك روسو ومدرسة الجمالين ونشأتها في فرنسا واطاليا وانجلترا . وعن الخلاف بين الكلاسيكية والرومانتيكية . وعن نهضة النقد ورجاله مثل : وردسورث . وكولردج ، ودانتى وهازلت ولامب وسنت بيف وجوته وشيلر ، وخلاصة عن الثورة الرومانتيكية . ثم تحدث عن خلفاء سنت بيف وعن النقد الانجليزي ، وعن ماكولي ، وكار لايل ، وآرنولد ، ثم تكلم عن تاريخ النقد في القرن العشرين ، وعن عصر الرمزية وما قبل الحرب العالمية الاولى وما بعدها في فرنسا ، وبلاد الانجليز ، فتناول مارسيل ، واندرية جيد ، وبول فاليري ومذاهب جديدة ، ثم ويلز ، وجورج برناردشو ، وختم الجزء الثاني بلمحة مختصرة مفيدة عن تاريخ النقد عند العرب في الجاهلية وفي العصر الاموي في العراق والشام . ثم النقد في العصر العباسي .

وها أنا اقتطف بايجاز ايضا من تلك اللوحة المختصرة ما يتصل بدراستنا هذه باعتباره هو المطلوب اولاً وبالذات .

النقد الادبي في الحجاز

يقول المرحوم احمد امين : كانت الحجاز في العصر الاموي وخاصة المدينة ومكة زاخرة بالحياة غنية بأنواع الترف مملوءة بأعيان العرب ... وكانت الاموال تصب فيها صبا من البلاد المفتوحة ومن اشتراك رجالها في الفتح والغنائم وكثرة الموالي من عبيد وجوار من كل امة من الفرس والرومان وغيرهم فكان السيد يملك منهم ومنهن العدد الكثير .

ويقول : كان الحجاز اكبر مركز لظاهرتين متناقضتين أو كالمتناقضتين فهو أكبر مركز للحركة الدينية من درس للقرآن الكريم والحديث الشريف والفقہ . يهرع اليه الناس من جميع الاقطار يأخذون عن رجاله علمهم بالكتاب والسنة ، واستنباطهم الاحكام الشرعية ... وهو في الوقت نفسه اكبر مركز لحياة اللهو والعبث ، ففيه أعظم المغنين والمغنيات .

ففي مكة ابن سريج شيخ المغنين والذي قال فيه جرير :

« لله دركم يا أهل مكة ماذا أعطيتم . والله لو ان نازعا نزع اليكم ليقم بين أظهركم فيسمع هذا صباح مساء لكان أعظم الناس حظا ونصيبا ، فكيف ومع هذا بيت الله الحرام ووجوهكم الحسان . ورقة البستكم وحسن اشارتكم وكثرة فوائدكم » .

وكان في مكة منافس لأبن سريج وهو الغريض الذي قال فيه الحارث بن خالد المخزومي ياغريض لو لم يكن لي في ولايتي مكة حظ الا أنت لكان حظا كافيا وافيا ، ياغريض انما الدنيا زينة فأزين الزينة ما فرّح النفس ، ولقد فهم الدنيا من فهم قدر الغناء^(١) .

وكان في المدينة من المغنين المشهورين والمغنيات امثال سائب خاثر ونسيط وعزة الميلاء وجميلة وطوبس ومعبد وبرد الفؤاد ونومة الضحى .

(١) كتاب النقد الادبي ج ٢ ص (٤٢٠) للمرحوم احمد امين .

ومن مظاهر هذا الظرف وأقوالهم الماثورة تسامح رجال الدين وسعة
نظرهم الى الحياة خصوصا اذا قورنوا برجال الدين في العراق اذ ذلك .
ففقهاء الحجاز كما روى ابن عبد ربه يجيزون الغناء وفقهاء المدينة
يستحسنونه ويستسيغونه ، بل منهم من كان يسمع ويغشى أماكن الغناء
ويضرب فيها بسهم كأبي عتيق وعبدالله بن جعفر . وكان عبدالله بن
جعفر بن أبي طالب يشتري الجوارى الحسان ويأتي بمعلمين يدربونهن
على الغناء (١) .

وفي هذه البيئة نشأ أدب رقيق يتفق وروح العصر . فيه دعاية وفيه
وصف للنساء صريح . وفيه قصص لاحداث الشعراء مع النساء وكان يحمل
لواه عمر بن ابي ربيعة اولا والاحوص ونصيب ثانيا ، كما كان هناك
محافظون يسيرون على النمط القديم في المعاني ولا يجددون الا بمقدار
ما يضطر اليه الزمان ككثير عزة فانه بطبيعة بداوته كان محافظا .

هذا الادب الجديد في هذه البيئة الطريفة الالهية استتبع كذلك رقا
في النقد يدل على رقي في الذوق وكان الاحتكاك بين الاحرار
والمحافظين ماثرا لنقد ظريف حقا كالذى روى لنا بين عمر بن ابي ربيعة
وكثير عزة . فكثير يسمع عمر بن ابي ربيعة يقول :

قالت تصدئى له ليعرفنا ثم اغمز به يا أخت في خفر
قالت لها قد غمزته فأبى ثم اسبطرت تشتد في اثرى
فيقول كثير : أتراك لو وصفت بهذا حرة أهلك ألم تكن قد قبحت
وأسأت وقلت الهجر ، وانما توصف الحرة بالحياء والاتواء والخجل
والامتناع .

(١) كتاب النقد الادبى لاحمد امين ص (٤٣٠) .

ويسمع عمر بن ابي ربيعة كثيرا يقول :

الا ليتنا يا عز كنا لدى غنى بعيرين نرعى في الخلاء ونعزب
كلانا به عر فمن يرنا يقل على حسنها جرباء تعدى وأجرب
اذا ما وردنا منها صاح اهله علينا فما تنفك نرعى ونضرب
وددت وبيت الله انك بكرة هجان واني مصعب ثم نهرب
نكون بعيرى ذى غنى فيضيعنا فلا هو يرعانا ولا نحن نطلب

فيقول له عمر : تمنيت لها ولنفسك الرق والجرب والرمي والطرد
والمسخ ، فأى مكروه لم تمن لها ولنفسك • لقد اصابها منك قول القائل :
(معاداة عاقل خير من مودة أحمق) •

وهكذا كان النقد بين الاحرار والمحافظين •

أما النقاد أنفسهم فخير من يمثلهم في الحجاز في ذلك
العصر ابن ابي عتيق يمثل نزعة أهل الحجاز وظرفهم فكلاهما له منزلة
دينية عالية ومع هذا يعنى بالادب والنقد •

وابن ابي عتيق من اعلى الناس حسبا فهو عبدالله بن محمد بن
عبدالرحمن ابن ابي بكر الصديق انه من نساك قريش وظرفائهم وقد
غلبت عليه الدعابة وكان من الرواة الموثوق بهم •

وقد ملأ الحجاز نقدا ظريفا لكثير من الشعراء • وكان يفضل عمر بن
ربيعة على معاصريه ، ويقول لشعر عمر نومة بالقلب وعلوق بالنفس ودرك
للحاجة ليست لشعر غيره وما عَصِيَّ الله عز وجل بشعر أكثر مما عصى
بشعر عمر •

وسمع كثيرا يقول :

ولست براض من خليل بنائل قليل ولا أرضى له بقليل

فقال له : هذا كلام مكافئ ، وليس بكلام عاشق وعمر أصدق منك
واقنع اذ يقول :

ليت حظي كالحظة العين منها وكثير منها القليل منها

ومرّ به ابن قيس الرقيات فسلمّ عليه فقال : عليك السلام يا فارس
العمياء ، فقال له : ما هذا الاسم الحادث ؟ قال ابن أبي غنيق : أنت سميت
نفسك حيث تقول : (سواء عليها ليها ونهارها) فما يستوى الليل والنهار
الا على عمياء قال : انما عنيت التعب . قال : فيبتك هذا يحتاج الى ترجمان .
وعلى الجملة فقد سائر النقد الادب . تجدد الادب فتجدد النقد
ورقى الذوق فرقى النقد .

النقد في الشام

ولئن كان الادب في الحجاز أكبر مظهر له الغزل والنقد يتبعه ، فالشام
أكبر مظهر لادبه هو المديح والنقد يتبعه ايضا . وكان هذا طبيعيا ، فدمشق
عاصمة الخلافة الاموية والشعراء يقدون على الخلفاء بمدائحهم التي انفقوا
فيها عمرهم . والخلفاء يعطون عليها فيجزلون العطاء .

اما سياسة منهم حتى يتألفوا الشعراء ويأمنوا شر السنتهم ويستجلبوا
منهم الثناء عليهم فيشيع ذلك في الناس ، واما تقديرا للشعر نفسه واعجابا
به . ثم خلفاء بني امية كانوا عربا في نسبهم وعربا في ذوقهم فلاعجب أن يعجبوا بالشعر
ويطربوا له ويكافئوا عليه واما للسبيين معا .

فمن عهد معاوية الى عهد مروان بن محمد والشعراء تفد على دمشق
بمدائحها في ملوكها وكانت قصور الخلفاء الامويين في تقاليدها كثير
من طباع العرب سهولة حجاب وكثرة وفود وزوار وامداد سباط لمن
حضر . وكثرة تردد على الخليفة للامور الجليلة والحقيرة .

لهذا كله كان في القصر معنى المتدى ايضا • فالشاعر اذا قال قصيدة
قالها في جمع كبير ، واذا نقدت نقدت في جمع كبير • وكان القصر مركزا
للادب كما هو مركز للسياسة •

والادب الذى يناسب القصور هو ادب المديح - لهذا لَوْنُ الادب
الشامي بلون المديح وَلَوْنُ النقدِ بلون الادب •

وكان موقف خلفاء بني امية يحملهم على تشجيع الشعراء على مديحتهم
والاغداق عليهم ، فهم منذ بدء خلافتهم كانوا هدفا لمهاجمة اعدائهم ثم
ظهور الدعوة العباسية آخر الامر • وهم يعلمون ان الشعراء ألسنة
الناس وانهم يفعلون فيهم ما تفعل جرائد الاحزاب في هذه الايام •

لهذا قربوا الشعراء اليهم بكل وسيلة وشجعوهم على القول في المديح
والعطاء عليه •

ولوأحصينا أشهر شعراء الشام في ذلك العصر ونوع شعرهم لوجدناهم
شعراء سياسة وشعرهم يخدم السياسة بالمديح ، واشهرهم في ذلك الاخطل •
فقد ظل أكثر حياته يمدح الامويين ويعلي من شأنهم ويناصر من ناصرهم
ويهجو من ناوهم •

واضطرهم الاكثار من المديح ان يُقَلِّبُوا معانيه على وجوهها وان
يذهبوا فيه كلَّ مذهب ويفوضوا على معانيه كلَّ غوص • وتبع الاكثار
من المديح الاكثار من نقد المديح •

ولعل خير من روى لنا عنه في نقد المديح هو عبدالملك بن مروان فقد
كان الى جنب انه خليفة عظيم ذا ذوق ادبي راق يقصده الشعراء بمدحهم
فيقومه تقويما حسنا ويدقق في معانيه وينقده بنوقه الظريف ••• كان
يكره من الشعراء أن يطيلوا في مدح انفسهم أو نوقهم ويرى ان يكون
المدح خالصا للممدوح • فينشده السلولي قصيدة خلطها مدحا بفخر

فيقول له : (والله ما مدحت الا نفسك) وينشده ذو الرمة قصيدة يطيل فيها مدح ناقته فيقول له : ما مدحت الا ناقتك فخذ الثواب والجائزة منها • وكان يرسم للشعراء طريق المدح فيقول :

تشبهونني مرة بالاسد ومرة بالبازي ومرة بالصقر • الا قلت كما قال الشنفرى :

ملوك ينزلون بكل نعر اذا ما الهام يوم الروع طارا
رزان في الامور ترى عليهم من الشيخ الشمائل والنجارا
نجوم يهتدى بهم اذا ما اخو الظلماء في الغمرات حارا

ويسمع قول ابن قيس الرقيات في مدحه :

ان الاغر الذي ابوه ابو العا صى عليه الوقار والحجب
يعتدل التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

فيوازن بينه وبين ما قاله الشاعر نفسه في مدحه مصعب :

انما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك عزة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء

فيقول له : يا ابن قيس تمدحني بالتاج كأنني من العجم وتمدح مصعبا

بأنه شهاب من الله •••

وأمثال هذا كثير في كتب الادب تدل على علو مقام عبدالمملك في النقد •
وانه قام في نقد المديح بالشام مقام ابن عتيق في الغزل بالحجاز •

تروى لنا كتب الادب ان مجالس الخلفاء كعبدالمملك وهشام مملوءة
بالسؤال عن الشعراء ، أيهم اشعر وأي المعاني أجود ونحو ذلك مما جعل
القصور مدارس ادب ونقد ، ولا سيما في المديح •

هذه خلاصة موجزة للنقد في الشام • فكله كان يدور حول تفضيل
شاعر على شاعر ، وميزة الشعراء بعضهم على بعض • وضعف المعاني التي
يأتي بها الشعراء وتفضيل بعضها على بعض وتخير الالفاظ وحسن الصياغة

أو قبحها • وكل ذلك مبني على الذوق الفطري الذي تهذبه البيئة وترقيه
الحضارة ، وشأن النقد شأن الادب •

لقد كان الادب فطريا يصدر عن سليقة وطبع فكان النقد كذلك فطريا
يصدر عن ذوق وسليقة وطبع •

وفي آخر العصر الاموي ظهر النحو وجدّ بعض علمائه في وضع
قواعده • والمهم هنا ان علماءه بدأوا ينقدون الشعر على نمطهم واسلوبهم •
بدأوا نوعا جديدا من النقد هو ان الشاعر اخطأ نحويا ولم يجز في شعره
على منحى العرب في الاعراب فنقدوا النابغة الذبياني اذ يقول :

فبت كأنني ساورتني ضئيلة من الرقش في انيابها السم نافع
فقالوا : ان الصواب ان يقول ناعما بالنصب على الحال •

ونقد عبدالله بن اسحق الحضرمي الفرزدق اذ يقول :
وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المال الا مسحتا ومجلف
فقالوا : كان الواجب ان يقول مجلفا بالنصب لأنه معطوف على
منصوب • وهجاه الفرزدق لما عابه بهذا فقال :

ولو كان عبدالله مولى هجوته ولكن عبدالله مولى مواليا
فعابوه ايضا في ذلك • وقالوا : كان الواجب ان يقول مولى موال
لا مولى مواليا •

وعلى الجملة فقد ظهر هذا النوع من النقد العلمي النحوي في آخر
العصر الاموي • فلما جاء العصر العباسي وأسس العلوم في جميع الفروع
تأثر النقد الادبي بالعلم وتحول الذوق الفطري الى قواعد وقوانين •

النقد في العراق

علمنا الحجاز واختصاصه بفن الغزل ، وعلما ان النقد كان يعتمد على الذوق الطريف المرهف . كما علمنا ان النقد في الشام كان يتبع ما اختصت به عاصمة الخلافة الاموية في ادب المديح ودواعيه وفنونه .
اما في العراق فانا نجد طعما آخر للادب والنقد ، كما يقول المرحوم احمد امين .

انا نجد الشعر العراقي في اكثر احواله يشابه الشعر الجاهلي في موضوعه وفحولته واسلوبه . حيث فيه العصية القبلية على اشدها واعنفها وكان اغلب موضوعاته ما يتصل بهذه العصية من فخر وهجاء ، فخر الشاعر بقبيلته ومن يعتز به ، أما الغزل ونحوه فكان على هامش الشعر لا في صميمه على عكس الحال في بيئة الحجاز كعمر بن أبي ربيعة وأضرابه . يفخر الفرزدق ببيته من تميم ويهجن غيره . ويفخر جرير كذلك ويهجو خصومه .

ويشاء الله أن يكون أشهر مكان للسباق بين الشعراء في العراق يشبه أخاه الذي في الجاهلية وهو مريد البصرة في الاسلام الشبيه بسوق عكاظ في الجاهلية .

كان المريد ضاحية من ضواحي البصرة وعلى بعد ثلاثة اميال منها . وكان اصله سوقا للابل . ثم كان مجتمع العرب يتناشدون فيه الاشعار ويبيعون ويشترون . وكان العرب يعيشون فيه عيشة تشبه عيشة الجاهلية من مفاخرة في الانساب وتعاظم بالكرم والشجاعة وذكر ما كان بين القبائل من احن .

كان هذا المريد يزخر بالشعراء يتهاجون ويتفاخرون ، ويعلي كل شاعر من شأن قبيلته ومذهبه السياسي ويضع من شأن غيره من الشعراء ومذاهبهم السياسية ، فيجتمع فيه جرير والفرزدق ويتنافران ويتهاجيان ويحضرهما العجاج والاخلطل وكعب بن جعيل وغيرهم وكان لكل

شاعر من شعراء المربد حلقة ينشد فيها شعره وحوله الناس يسمعون منه • ولكل شاعر حزب ينتصر له ويتعصب له • وما زال جرير والفرزدق يتهاجيان حتى ضجح والى البصرة فهدم منازلهما بالمربد ••• وقد خلف لنا هذا المربد وما كان فيه من صراع مجموعات كبيرة من الشعر ، أهمها شيثان • مجموعة كبيرة من النقااض بين جرير والفرزدق • فكان احدهما يقول قصيدة فسى هجاء صاحبه على وزن خاص وقافية خاصة فينقضها الآخر ويحولها الى هجاء خصمه على نفس الوزن والقافية • والثانى مجموعة من الارجيز الفخمة كأرجوزة العجاج •

قد جبر الدين الاله فجير
وارجوزة ابي النجم
تذكر القلب وجهلا ما ذكر
وارجوزة رؤبة
وقاتم الاعماق خاوى المخترق
الى غير ذلك •

والناظر فى هاتين المجموعتين النقااض والارجيز يرى فيهما صدق ما نقول من الفروق الواسعة بين الشعر الحجازى والشعر العراقى ••• فهذا الشعر العراقى متميز باسلوبه الفخم الذى يشبه الاسلوب الجاهلى • ومعانيه البدوية التى لم تمسها الحضارة الا مسآ رفيقا والتي يشيع فيها الفخر القبلى والهجاء القبلى ، والتعبير بانه قين وابن قين •

فلا عجب ان نجد النقد يتبع الادب ويكون من جنسه • فلا نجد فى العراق ابن ابي عتيق وامثاله الذين كانوا ينقدون المعاني بعرضها على الذوق الحضرى المهذب وينقدون الغزل بعرض ما هو اليق وأنسب ••• انما نجد فى العراق انواعا اخرى من النقد تناسب تلك البيئة التى وصفنا ونوع الشعر الذى اوضحنا •

كان النقد متجها اكثر الاتجاه في العراق الى التفضيل بين الشعراء
قأى الثلاثة اشعر جرير أو الفرزدق أو الاخطل ؟ ونحو ذلك وسموا هذا
قضاء ، وسموا الذي يحكم قاضيا ، وسموا هذا العمل حكومة ، فقال
الاخطل :

واني لقاض بين جمعة عامر وسعد قضاء بين الحق فيصلا
وقال كعب بن جعيل :

اني لقاض قضاء سوف يتبعه من أم قصدا ولم يعدل الى أود
فصلا من القول تاتم القضاة به ولا أجور ولا أبغي على أحد
وقال جرير في الاخطل لما فضل الفرزدق عليه :

فدعوا الحكومة نستمن من اهلها ان الحكومة في بني شيان

وكانت لهم احكام نقدية كذلك في ميزة الشاعر ووجوه ضعفه ووجوه
قوته ، واحكام في الموازنة بين الشعراء ، نذكر منها بعض الامثلة كحكم
الفرزدق على النابغة الجعدي بأنه (صاحب خلقان عنده مطرف بالاف وخمار
بواف ، يريد انه يعلو ويسفل ، ويقول البيت يساوي الاف الدراهم والبيت
لا يساوي الا درهما . وكحكمه على ذى الرمة بجودة شعره لولا وقوفه
عند البكاء على الدمن ووصف القطا وابوال الابل وكحكم جرير على
على الاخطل بانه يجيد مدح الملوك وكموازنة الاخطل بين جرير
والفرزدق بأن جريرا يعرف من بحر والفرزدق ينحت من صخر وساد هذا
الضرب من النقد في العراق وزاده كثرة حركة العنف في الهجاء بين جرير
والفرزدق، وجرير والخطل، فانقسم الناس الى معسكرات ثلاثة، كل يتعصب
لشاعر ويفضله على غيره ويتلمس محاسن شعره ويشيعها ومعايب غيره فيشهر
بها ، فكان هذا وأمثاله من الخصومات بين الشعراء سببا في غلبة هذا الاتجاه على
النقد الادبي في العراق وزاد هذا الاتجاه حتى جعلوا من لم يسر على طريقتهم في
المدح والهجاء متخلفا ، رووا أن ذا الرمة قال للفرزدق : مالي لا الحق بكم

معشر الفحول ، فقال له : لتجافيك عن المدح والهجاء واقتصارك على الرسوم
والديار •

وكان في العراق حركة ادبية تغاير هذه الحركة كل المغايرة ، ولئن
كانت الحركة السابقة متأثرة بالشعر الجاهلي والعصية الجاهلية والعادات
والتقاليد الجاهلية فهذه الحركة الجديدة متأثرة بالاسلام وتعاليمه ، وأغني بها
حركة الخوارج ، فقد كان لهم أدب قوى ولهم شعر رائع ولكنهم لا يقصدون فيه
الى مديح وهجاء كما يفعل جرير والفرزدق والاخلطل وامثالهم •• انما
يقصدون فيه الى ارضاء عواطفهم بالاستهانة بالموت في سبيل الله ، والحث
على الشجاعة والاقدام وبيع النفس لارضاء الله • وسموا انفسهم الشراة
أخذنا من قوله تعالى : « ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم
الجنة » • ولهم شعر " بليغ بثوا فيه قوة ايمانهم وشدة شجاعتهم أمثال قطعة
قطرى بن الفجاءة •

اقول لها وقد طارت شعاعا من الابطال ويحك لا تراعي
فانك لو سألت بقاء يوم على الاجل الذي لك لم تطاعي
فصبرا في مجال الموت صبيرا فما نيل الخنود بمستطاع

فكان هذا اللون من الشعر مخالفا للون الشعر الذي يقوله جرير
والفرزدق والاخلطل • وتبع نزعتهم في الادب نزعتهم في النقد فكانوا يهزؤون
بهؤلاء الشعراء الذين يتمسحون بالملوك والامراء يمدحونهم بما ليس فيهم
ويستجدون المال الذي ليس من حقهم ، ويرون ان الشاعر من صدق في
قوله واتقى الله في شعره ، فيروون ان عمران بن حطان مر على الفرزدق
وهو ينشد والناس حوله ، فوقف عليهم ثم قال :

أيها المادح العباد ليُعطي ان لله ما بأيدي العباد
فاسأل الله ما طلبت اليهم وارح فضل المقسم العواد
لا تقل في الجواد ما ليس فيه وتسم البخيل باسم الجواد

وكان بعض الخوارج يسمي عاصم بن الحذثان أحد شعراء الخوارج.
شاعر المؤمنين والفرزدق شاعر الكافرين •

فهؤلاء الخوارج يزنون الشعر بميزان الدين والاخلاق ، واولئك يزنونه بالميزان الفنى البحث ويجعلون امامهم الشعر الجاهلى والنزعات الجاهلية • ولكن قد ضاعت حركة الخوارج الادبية بضياعهم سياسيا وتغلبت نزعة امثال جرير والفرزدق والاخلطل ونقادهم ، وكانت هى اكبر مظهر فى العراق •

النقد فى العصر العباسى

اذا وصلنا الى النقد فى العصر العباسى رأينا امعانا فى الحضارة وامعانا فى الترف ، ورأينا الشعر والادب يتحولان الى فن وصناعة بعد ان كانا يصدران عن طبع وسليقة حتى لنرى كثيرا من الكتاب والشعراء من الموالى الذين عدوا عربا بالمربى ، ورأينا الثقافة تعظم وتوسع وتشمل فروع المعرفة كلها ولا تقتصر على الثقافة الدينية والادبية ورأينا الثقافات الاجنبية تدفق على المملكة الاسلامية من فارسية وهندية ويونانية ، ورأينا كل مجموعة من المعارف تتحول الى علم حتى اللغة والادب والنحو والصرف • فكان طبيعيا ان يتحول الذوق الفطرى الى ذوق مثقف ثقافة علمية واسعة ، وأن يتأثر النقد الادبي بهذه الثروة العلمية والادبية الواسعة •

لقد كان مما عمله العلماء ان جمعوا ما استطاعوا من اشعار الجاهليين والاسلاميين ، فكانت المادة الادبية التى ينقدونها اغرز وأوفر ، وجمعوا مادة اللغة واطلعوا على اقوال النقاد السابقين كما نقلت اليهم اقوال الفرس والهند واليونان فى معنى البلاغة وشروطها •

ولو تتبعنا ما روى لنا من النقد فى هذا العصر لرأينا متجها اتجاهين أوسائرا على نمطين: نمط منه هو امتداد النقد الجاهلي والاسلامى مع ما اقتضته البيئة من تحول ، من ذلك ان العلماء باللغة والادب من العباسيين امثال

الخليل والكسائي والاصمعي وابي عمرو بن العلاء ، والنظر بن شميل وابن الاعرابي ، كانوا يستعرضون الشعراء السابقين من جاهليين واسلاميين ويتذوقون شعرهم ويبدون فيه رأيهم .

فيقولون : ان شعر النابغة قوى الصياغة شديد الاسر ، وشعر امرئ القيس غزير بالمعاني التي لم يسبق اليها ، وشعر جرير اسهل وأرق وشعر الفرزدق أقسى وأصلب الى غير ذلك .

ويقول ابو عمرو بن العلاء في ذي الرمة : ان شعره نقط عروس تضمحل عما قليل ، أو ابعاد ظباء لها شم في اول شمها . ثم تعود الى ارواح الابعار . يريد ان يقول ان لشعره حلاوة ، ولكن لا تبقى . وكان هؤلاء العلماء يتنازعون في افضلية الشعراء فكان المفضل الضبي يقدم الفرزدق على جرير وابو عمرو بن العلاء يقدم الاخطل ثم جرير ثم الفرزدق . وكان علماء الكوفة مثلا يقدمون الاعشى على من في طبقتهم ، وعلماء البصرة يقدمون امرأ القيس وأهل الحجاز يقدمون النابغة وزهيرا . وكان لهذا الاختلاف في التفضيل أسباب ، من ذلك ان بعض العلماء كانوا يحبون الغريب من الالفاظ فيقدمون من الشعراء من يستعمل الغريب ومنهم من كان يحب الغزل فيقدم اكثرهم غزلا ومنهم من يحب النحو فيقدم الفرزدق لاكثره من تقديم وتأخير ونحو ذلك .

ووازنوا بين الشعراء فقال ابو عمرو بن العلاء في أوس بن حجر انه كان فحل مضر حتى نشأ النابغة وزهير فاحملاه . وقال : ان عدى بن زيد في الشعراء بمنزلة سهيل في النجوم يعارضها ولا يجرى معها .

واستعرضوا الشعراء وأبانوا موضع نبوغهم وموضع ضعفهم ، فقالوا طفيل الغنوي اعلم العرب بالخيال وأوصفهم لها وامرؤ القيس يحسن وصف المطر ، وعنترة يحسن وصف الحروب وامية بن ابى الصلت يحسن ذكر الآخرة وعمر بن ابى ربيعة يحسن ذكر الشباب . وشبهوا جريرا بالاعشى والفرزدق بزهير والاطل بالنابغة .

واستعرضوا الشعراء الذين تواردوا في شعرهم على معنى واحد
ففضلوا قولاً على قول • ففضلوا في الصبر على التواضع قول دريد بن الصمة :
يُغار علينا واترين فيُشتفى بنا إن أُصبتنا أو نغير على وتر
بذاك قسمنا الدهر شطرين قسمة فما ينقضي الا ونحن على شطر
وقالوا أجود بيت في المديح قول جرير :

الستم خير من ركب المطايا واندى العالمين بطون راح

وهذا نمط يشبه النمط الذي رأيناه في العصر الاموي ولكنه اوسع
وأعمق لان المادة عندهم اصبحت اغزر وعلمهم بالشعر اوفر • ثم هم اذا
نقدوا عللوا ولم يكن قولهم مجرد حكم كما كان من قبل • فيونس يفضل
الفرزدق ويعمل ذلك بانه اكثرهم عدد قصائد طوال جيد ولم نجد للاختلاف
عشرا بهذه الصفة • ووجدنا لجرير ثلاثا بهذه الصفة •

اما النمط الآخر الذي كان جديدا لم يسبق اليه هو النمط العلمي
في النقد نمط التأليف ووضع الكتب التي لا تعرض الا للنقد وما يتصل
به ، ولعل اسبق البلدان في ذلك هو البصرة • فقد كانت الحركة العلمية
فيها على أتم ما يكون من نشاط • وكان فيها أول حركة للاعتزال • والمعتزلة
هم واضعوا اصول البلاغة اذ كانوا هم المحتاجين اليها في الدعوة واقامة
الحجج فوضع منهم بشر بن المعتز الصحيفة الخالدة في البلاغة وجاء بعده
الجاحظ وهو ما هو في البلاغة وفنونها •

لقد كان في البصرة علماء من النمط الاول كابى عمرو بن العلاء ،
ويونس ، وخلف الاحمر ، والاصمعي ، وابى عبيدة • فجاءت الطبقة التي
بعدهم وفلسفت النقد وفلسفت الكلام من قبل وجعلته عينا ، والفت فيه
كتبا •

ولعل اقدم ما وصل الينا من كتب النقد •

* - كتاب طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي ، ولكن كتابه على فضله ينقصه الترتيب المحكم ، والنظام الدقيق .

* - كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة . وكان الفضل الاول فيه عدم رضاه على من يفضل القديم لقدمه .

* - كتاب البديع لابن المعتز الذي اثبت فيه ان البديع كان موجودا فسي الجاهلية و صدر الاسلام ، ولكنه كان يأتي عفو الخاطر فجاء بشار وابو تمام ، ومن بعدهما فاكثروا فيه ، وقصدوا اليه .

* - كتاب نقد الشعر لقدماء بن جعفر ، وهو الى البلاغة اقرب ، وهو المسؤول الاول عن جمود المصطلحات البلاغية وتحجرها ، اذ أنه لم يزد في النقد شيئا ، وقد تأثر به علماء البلاغة الذين جاؤا بعده امثال السكاكي صاحب مفتاح العلوم وسعدالدين التفتازاني في شرح التلخيص . وعبدالحكيم السيلكوتي في المطول ، ونحو ذلك حتى وصلنا في تلخيص المفتاح الى ضرب من الكلام أبعد ما يكون عن البلاغة .

* - ووجدت من أثر خصومة الادباء مدرستان عنيقتان احدهما تفضلت ابا تمام لغزارة معانيه وطائفة تفضلت البحرى لاتصاله بعمود الشعر فجاء على اثر ذلك مؤلفان جليلان هما الصولي والآمدى ، وكان ضلع الصولي مع ابي تمام وضلع الآمدى مع البحرى . فألف الصولي اخبار ابي تمام وألف الآمدى كتابه الموازنة^(١) .

وقد سارا في نقدهما على الموازنة بين الشاعرين في ذكر كل منهما مزايا صاحبه وعيوبه ، وسلك الآمدى مسلكا في الموازنة باختياره قصيدتين

(١) تجد ذلك مفصلا في موضعه من هذا الكتاب .

فى موضوع واحد وروى واحد • ثم النص على أيهما أجود وأيهما
ارذل • وهى موازنة بدائية •

والموازنة الصحيحة هى ان يعرف الناقد عناصر الادب من عاطفة
وخيال ومعنى واسلوب ثم يعرض عليها شعر كل منهما • فمن كان
حظه منها اكثر كان اشعر • واذا زاد احدهما على صاحبه فى عنصر
منها كأن يزيد أبو تمام فى المعنى ويزيد البحتري فى الاسلوب أمكنه
ان يعرف هل زاد الآخر فى العناصر الاخرى زيادة تفوقهما اولا •
وهكذا •

وخبث نار الخصومة بين ابي تمام والبحتري ، ثم ما لبثت أن اشتعلت
بمجيئى ، أبي الطيب المتنبي ، فقد كان فى شعره نوع من التجديد ،
فاختلف الناس فيه فرقتين : فرقة تحط من شأنه ويغفلها تقريبا
سيف الدولة له واغداقه عليه ••• وفرقة ترى انه جدير بذلك
وأن شعره فى المقام الاول ••• وما زالت هذه الخصومة تتناحر حتى
ظهر علي بن عبدالعزيز الجرجاني فألف كتابه المشهور :

* - « الوساطة بين المتنبي وخصومه » ، ووقف موقف القاضي العادل
فقال ماله وما عليه وكان من مزايا كتاب الوساطة التفاته الى تأثير البيئة
فى الادب •

* - وأتى بعد ذلك الثعالبي صاحب اليتيمة ، وهو وان كان كتاب تراجم
بعبارة مسجوعة ثقيلة فانه لا يخلو من نظرات نقدية لطيفة تتناول
محاسن المتنبي ومساوئه وما يرتضى من مذهبه فى الشعر وما يستهجن
والاشارة الى غروره وغروره ••• ولقد لاحظ على المتنبي ملاحظات
لطيفة كتكريره لبعض المعانى مما يدل على انها ملأت نفسه وعمقت
فى صدره كقوله :

عش عزيزا أومت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود

وكملاحظته أن المتنبي يخاطب بمدوحه بمثل مخاطبة المحبوب :

ما لي أكرم جبا قد برى جسدى وتدعي حب سيف الدولة الامم

وجاء بعد ذلك ابو الفرج الاصفهاني صاحب الاغانى • وله تنق

قليلة ، فى بعض الاحيان • ينقد بها الشاعر ، أو بين مزاياه ، تدل

على نظر بصير • وذوق دقيق •

* - ثم جاء بعد ذلك أبو هلال مؤلف كتاب الصناعتين ، وكان كتابه هذا مؤسسا

على كتاب قدامة بن جعفر وزاد عليه تطبيقات كثيرة صبغته صبغة

جديدة وخففت هذه الامثلة من جفاف كتاب قدامة وانتفع برأى

السابقين ونقدمهم •

واذا قلنا ان العسكري حول النقد الى بلاغة وكان هو نفسه

نقطة التحول • وجرى الناس بعده على اثره لم نبعث عن الصواب •

ولذلك نرى من بعده أمثال عبدالقاهر الجرجاني ممن يبحثون فى

البلاغة أكثر مما يبحثون فى النقد •

* - وقد ألف الجرجاني كتابه اللطيفين (دلائل الاعجاز واسرار

البلاغة) ، وهما كتابان لطيفان دقيقان يمتازان بحسن التعبير ،

واكتشاف ابواب من البلاغة وماله من فلسفة لغوية عميقة ، وسلامة

فى الذوق • فقد استنكر اغراق المعانى والالفاظ بالمحسنات البديعية ،

وذكر ان المثل الاعلى ليس اصحاب السجع بل المثل الاعلى ما كتبه

الجاحظ فى صدور كتبه • فلا امعان فى التجنيس ولا امعان فى

السجع • وكان من انصار المعانى ، فعنده ان الالفاظ خدم للمعانى

واستطاع ان يدرك ان هناك الفاظا تحسن فى النثر ولا تحسن فى

الشعر كلفظ ايضا •

ومن مميزاته ان ربط النحو بالمعاني فنفت في النحو روحا لم تكن معروفة من قبل ، ولا جرى الناس عليه فيما بعد . وعنده ان لتركيب الكلام (أو كما نسميه نحن اليوم الاسلوب) شأننا كبيرا في تقريب المعاني أو ابعاده . وحسن الوقع أو استهجانها .

* - وهناك تيار آخر ، وهو يعد امتدادا لحركة النقد . ومن اصحاب هذا التيار ابو العلاء المعري ، فقد كان في رسالة الغفران ناقدا ، وان كان نقده خياليا ، وله كذلك رسائل نقدية كرسالة نقد امرئ القيس والنابغة ، ونقده لابي تمام في رسالته (ذكرى حبيب) وللبحتري في رسالته (عبث الوليد) ، وللمتنبى معجز احمد ونحو ذلك . فهو فيها كلها ناقد فلسفي ديني ادبي .

* - وجرى هذا المجرى نفسه ابن شهيد الاندلسي في رسالته : (التوابع والزوابع) وفيها ينطق الجنب بنقد الشعراء والادباء بملاقات ابن شهيد بشياطين الشعراء والكتاب .

* - كتاب العمدة في صناعة الشعر ونقده لمؤلفه ابن رشيق القيرواني . وقد تعرض فيه لعناصر الشعر وفضله ودواعيه وان لم يتكلم عن العواطف التي تبعث الشعر . وان لم يسمها عواطف ، وذكر المشاهير من الشعراء والمقلين والمولدين . والاوزان والقوافي وآداب الشاعر ، وارجيف الشعراء والرواة وذكر كل نوع من الشعر كالنسيب والهجاء والوصف وذكر شروط جودته الخ . . .

* - كتاب اسرار الفصاحة لابن سنان الخفاجي فتكلم عن السجع ونفى ان السجع عيب . وذكر كثيراً من النماذج الادبية ، ووازن بينها .

* - ومن أهم الكتب النقدية كتاب (المثل السائر) لابن الاثير وهو كتاب قيم مملوء بالالتفات الادبية الرائعة التي تدل على ذوق بارع لو لا ان صاحبه كثير الفخر بنفسه والاعتداد بها . . .

وقد يقع على آراء قيمة ينسبها الى نفسه وهو مسبق اليها •
وذكر القصص في القرآن وابان بلاغتها ، وكان خيرا من ذلك ان
يتعرض لغير بلاغة القرآن حتى يكون حرا في النقد •

* - وهناك كتب ليست كلها نقدا ولكن فيها تنف نقدية ادبية ككتاب زهر
الآداب ، وكتاب المستطرف من كل فن مستظرف للابشيبي وغير
ذلك •

وجرى الادباء على هذا المنحى من غير تجديد كبير وظلت حياة
النقد خامدة في العصور الاخيرة حتى حدث الاحتكاك في العصور
الحديثة بين الشرق والغرب فحيى النقد من جديد • وكان لنا
نقدان : نقد مؤسس على ما لنا من تراث قديم في امهات مصادرنا
العربية ونقد مؤسس على نقد الافرنج • وكلا النقيدين تقليد لا ابتكار
فيه • واختلاف هذا النقد تابع لاختلاف منهج الادب • فهناك ادب
يحتذى القديم في اسلوبه وموضوعاته وله مدرسة قائمة بذاتها
تستكر الادب الغربي ولا تذوقه • وهناك ادب يستوحي الادب
الغربي ويقلده ولا يؤمن بالادب العربي وله مدرسته الاخرى •••
وقد يكون هناك قوم من اهل الاعراف اخذوا من الغرب معانيه
وموضوعاته ، واخذوا من الشرق جزالة اسلوبه وجميل تعبيراته ،
ولكل وجهة هو موليها •

* - فلما جاء العصر الحديث ظهر بعض النقاد • ومنهم الشيخ حسين
المرصفي في كتابه (الوسيلة الادبية) وكان يتعصب للبارودي الذي
عارض بعض الشعراء كالشريف الرضي وابي نؤاس • فوازن بين
قصائدهم التي هي من باب واحد ووزن واحد واشار الى محاسن
كل منها •

* - ثم جاء بعد ذلك المازني والعقاد وألفا كتابهما (الديوان) في نقد

شعر شوقي فوضعا شوقيا في الميزان وهاجماه مهاجمة عنيفة فنقداه
مثلا في قصيدته في رثاء محمد فريد من مثل قوله :

كل حي على المنية غادى تتوالى الركاب والموت حادى
ذهب الاولون قرنا فقرنا لم يدم حاضر ولم يبق بادى
هل ترى منهم وتسمع عنهم غير باقى مآثر وايدى

فيقولان له ان هذه من الاقوال العديدة المألوفة حتى لتسمعها من
المكدين والشحاذين كقولهم دنيا غرور والذى عند الله باق وما اكسر
ما داست الدنيا على الجبابرة ووضعتهم تحت التراب • وفي قوله :

وعلى نائم وسهران منه قدر لا ينام بالمرصاد

يقولون عنه انه سرق هذا المعنى من قصيدة ابي العلاء النسي
عارضها بهذه القصيدة ، وهى :

غير مجد فى ملة واعتقادى نوح باك ولا ترنم شاد

واستمر على هذا المنوال فى نقد شوقي والمنفلوطي • وقد نظرا
فى نقدهما بعين الغرب ومقاييس نقده • وان كان يؤخذ عليهما شئ
من شدة النقد وقسوته والمبالغة فيه •

* - وجاء بعدهما الاستاذ عبداللطيف السحرتي فآلف كتابه الذى سماه
(الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث) • فتبع بعض الشعراء
بالنقد على النمط الاوربي الحديث • وأوضح المذاهب المختلفة فى
النقد من مذهب فنى ومذهب واقعى ، وتكلم فى مقاييس النقد الادبي
والانفعالات الشعرية والفكر فى الشعر والموسيقى الشعرية ، والشعر
الرمزى • ثم نقد الشعر فى مصر واستعرض بعض النقاد كالمآزني
والعقاد فى الديوان وكتاب على السفود للرافعي وحديث الاربعاء
للدكتور طه ، وكتاب فى الميزان للدكتور مندور • وهكذا ••••
فكان حلقة جديدة فى النقد المعاصر •

المصادر المدونة

في النقد والادب

من بداية القرن الثاني للهجرة

تمهيد

تطلق المصادر ويراد بها الاثار الماثلة في تلك الاحقاب البعيد من نقوش
واخبار وكتابات •

اما النقوش والكتابات الموثوق بها لا تزال شحيحة مطمورة في مختلف
بقاع بلاد العرب فالباحث يجد عناءاً في تحقيقها والتثبت منها لانها غير متوفرة
بحال تعين على الاحاطة التامة ولا تشجع المحققين على اعطاء الاحكام
اليقينية فيها •

وأما الاخبار التي يتناقلها الرواة فانها أيضا لا يعتمد عليها تمام
الاعتماد لانها لا تغني الباحثين ولا تمدهم بما يجعل ابحاثهم مترابطة متصلة
الحلقات اللهم الا ما كان متعلقا بعامة عقائدهم واصول اجتماعهم ونوع الحكم
الذي كانوا يحيون بظله ، مما توارثته اجيالهم ، ودرجت عليه اعقابهم ،
وعاشته قبائلهم •

وهذا لا يعنى انهم قوم بدائيون ليس لهم سابق حضارة من قبل فلو
أمعنا النظر في البقية الباقية من تراثهم الادبي لوجدناهم امة ذات حضارة ومدنية
عريقتين • اذ لا يصح في العقل ان امة من الامم تشيع فيها السجايا الحميدة
والافكار القيمة كالعدل والصدق والامانة والحرية وحفظ الجوار وانجاز
الوعد وايواء الغريب ونصرة الضعيف دون ان يكون لها تاريخ مديد تخطى
مراحل البداوة من ادهار طويلة المدى واحقاب بعيدة الغور •

ونحن لا نحب أن نغلو كما يغلو بعض الباحثين ونسرف على أنفسنا؛

كما يسرفون فنجفوا الحقيقة ونقول ان عرب الجاهلية كانوا من الحضارة بمنزلة لا سبيل الى تجاوزها ولا مزيد عليها لمستزيد . لا . لا نقول ذلك ولكننا نود ان نشير الى ان حضارتهم كانت نتيجة حضارات ذات حلقات بدأت منذ شاء الله لها أن تبدأ وانتهت قبل الاسلام بما لا يتجاوز مئة وخمسين سنة . فكان من تلك الحضارات الحضارة الميمنية والسبئية والعادية والثمودية والنبطية التي اشتهرت وازدهرت في شمال الحجاز وجنوب الشام اربعة قرون ثم زال سلطانها السياسي في القرن الثاني بعد الميلاد . ثم الحضارة الحميرية التي امتدت حتى اشرفت على اوائل القرن السادس للميلاد .

فلم يكن اذا ما ذكرناه من أمر هذه الحضارات أمرا جمح به الخيال ونسجه الوهم . بل انها حقيقة ثابتة لا يمكن نكرانها ولا يستطيع اى باحث منصف ان يقول خلاف ذلك . وما ينبغي لمثبت ان يغفل عن الفروق الكثير بين قوم لم يكن لهم في حياتهم الاجتماعية سابقة من علوم وحضارات وبين قوم كان لهم ما كان من حضارات قيمة ثم تقلص ظلها وتسرب الوهن اليها في فترة من الزمن .

نعم ان تاريخ العرب القديم قد ضاع اكثره وعفت آثاره ولكن تاريخهم القريب من قبل عهد الرسالة بقرنين قد أولاه الرواة عناية حفظت شيئا منه وما زال حيا في صدور الرواة يتناقله الابناء عن الآباء . ولولا هؤلاء الرواة لضاع هذا الذي بين ايدينا ايضا كما ضاعت معالمهم الاولى في عصورهم البائدة . وسبب هذه العناية هو ان العرب كسائر الشعوب الحية يتناهبها ما يتناهب غيرها من ادوار اليقظة وادوار الركود . فهي تنام نومة تطول وتقصر ثم تحيا حياة تطول وتقصر ايضا بحسب الطاقة الكامنة في اصلها ، وبحسب العوامل المؤثرة فيها . فتجدها تنبسط تارة حتى لا تكاد الارض تسعها ثم تقلص اخرى حتى يكاد النسيان يطفى رداه عليها . ولما

اختارها الله لرسالته هياً لها اسباب اليقظة والنهوض فأخذت تلم شعنها وتوحد شعوبها وتندفع الى تحقيق ما كتب الله لها من سمو وهداية .

المصادر الاولية للادب العربي

١ - مجموعة حماد الراوية المتوفى سنة ١٥٥ هـ وقد اقتصرها على المعلقات ، وهي عنده سبع :

امرؤ القيس ، وزهير ، وطرفة ، وليد ، وعمرو بن كلثوم ، والحرث بن حلزة الشكري ، وعنترة العبيسي . وعني بشرحها كثير من مؤرخي الادب قديماً وحديثاً . منهم ابو بكر محمد بن القاسم الانباري المولود ٢٧١ والمتوفى سنة ٣٢٧ هـ ، وابو جعفر احمد بن محمد النحاس المتوفى في سنة ٣٣٨ هـ ، وابو عبدالله الحسين بن احمد الزوزني المتوفى سنة ٤٨٦ هـ ، وابو زكريا يحيى بن علي التبريزي المتوفى سنة ٥٠٢ وغيرهم .

وهكذا توالى عليها الشروح حتى زماننا هذا ، وآخر من حققها وعلق على شرح الانباري الاستاذ عبدالسلام محمد هارون فجزاه الله تعالى احسن الجزاء .

٢ - المفضليات نسبة الى جامعها المفضل بن محمد الضبي راوي الكوفة ، وعلامتها المتوفى على أرجح الاقوال سنة ١٧٨ هجرية . انه اختارها حين عهد اليه ابو جعفر المنصور بثقيف ابنه المهدي . قيل انها كانت في الاصل ثمانين قصيدة وزاد فيها الاصمعي اربعين قصيدة ثم زاد فيها بعض تلاميذه حتى بلغ تعدادها مائة وثمانين قصيدة . طبع الجزء الاول منها المستشرق نوربكه في ليزج سنة ١٨٨٥ ميلادية . ثم طبعت كاملة في مصر بجزئين وصححها وعلق عليها تعليقا بسيطا ابو بكر الداغستاني المدني سنة ١٣٢٤ هجرية ثم طبع المستشرق ليال

شرح الانبارى كاملاً سنة ١٩٢٠ على نفقة كلية اكسفورد • ثم تولى
الاستاذ الاديب حسن السندوبي طبع المفضليات مع شرح موجز لها
فى سنة ١٣٤٥ هجرية بمصر •

ثم طبع الجزءان الاول والثانى بتحقيق وشرح الاستاذين احمد
محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون سنة ١٣٦١ •

٣ - الاصمعيات نسبة الى اصمع وهو الجد الخامس لابي سعيد بن عبد الملك
بن قريب المولود سنة ١٢٣ والمتوفى سنة ٢١٦ • امام أهل البصرة
فى اللغة والغرائب والملح وراوى الاصمعيات التى بلغ عدد قصائدها
ومقطوعاتها اثنتين وتسعين قصيدة • وهى موزعة على واحد وسبعين
شاعراً منهم اربعون شاعراً جاهلياً على رأسهم امرؤ القيس • والحارث
ابن عباد ودريد بن الصمة وابو داود الايادى وذو الاصبع العدوانى
وسلامة بن جندل وطرفة بن العبد وعروة بن الورد وقيس بن
الحطيم ، واعاد نشرها الاستاذان عبدالسلام هارون واحمد شاكر
عن نسخة للشنقيطى •

٤ - جمهرة اشعار العرب وهى مجموعة لابي زيد محمد بن ابى الخطاب
القرشى المتوفى سنة ١٧٠ هجرية (ج ٣ ص ٣٦٤ آداب العرب
لرافعى) بينما الدكتور ناصر الدين الاسد يرى انه من رجال القرن
الرابع الهجرى ، وهى تضم ٤٩ قصيدة طويلة موزعة على سبعة
اقسام لكل قسم منها سبع قصائد • والقسم الاول خاص بالمعلقات
ويلى هذا القسم المجهرات ثم المنتقيات ثم المذهبات ، وجميعها لشعراء
من الانصار جاهليين ومخضرمين ثم عيون المرثى • ثم المشبوبات وهى
لشعراء مخضرمين شابههم الكفر والاسلام • ثم الملحقات وجميعها
لشعراء اسلاميين وهى مجموعة غنية بالقصائد الطويلة •

٥ - هي مجموعة ديوان الحماسة لابن تمام الطائي المتوفى سنة ٢٣٢ هـ
الذي قالوا عنه انه في اختياره اشعر منه في شعره . وهي مقطوعات
لجاهليين واسلاميين وعباسيين وقد رتبته في عشرة أبواب في جزئين .
من أكبر الابواب باب الحماسة . وبه سماها . ثم باب المراني .
والبابان في الجزء الاول واما الجزء الثاني فباب الادب ثم باب النسب
ثم باب الهجاء ثم باب الاضياف والمديح ثم باب الصفات ثم باب السير
والنعلات ثم باب الملح ثم باب مذمة النساء . وقد قام بنشره وعلق
على شروحه الاستاذ محمد عبدالقادر سعيد الرافعي صاحب المكتبة
الازهرية سنة ١٣٤٦ هجرية ١٩٢٧ ميلادية .

٦ - مجموعة حماسة البخري المتوفى سنة ٢٨٤ هجرية .

٧ - حماسة الخالدين أو الاشياء والنضائر للاخوين سعيد الخالدي المتوفى
سنة ٣٥٠ ومحمد الخالدي المتوفى سنة ٣٨٠ هجرية .

٨ - دواوين الشعراء كديوان امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة
وعنترة وعلقمة وقد نشرها (الوارد) الا انه لم يكتب برواية
الاصمعي التي احتفظ بها شرح الشنتمري المتوفى سنة ٤٧٦ هجرية .

٩ - مجموعة ابن الشجري المتوفى ٥٤٢ هجرية وهي مختارات من الشعر
الجاهلي والاسلامي . موزعة على ثلاثة اقسام واهم من في القسم
الاول الشنفرى وطرفة ولقيط الايادي والمتلمس . اما القسم الثاني
فمختارات من دواوين زهير وبشر بن أبي حازم وعبيد بن ابرص .
واما القسم الثالث فمختارات من ديوان الحطيئة . وطبعت هذه
المجموعة بالقاهرة . وله ديوان حماسة طبع في حيدرآباد ، واغلب
منتخباته من الشعر الجاهلي .

١٠ - الحماسة البصرية التي ألفها علي بن ابي فرج البصري المتوفى في
القرن السابع الهجري برسم الملك الناصر صلاح الدين وفي المكتبة
الخديوية الجزء الاول منها .

المراجع

- | | |
|-----------------------------------|------------------------------------|
| • لمحمد بن سلام الجمحي | طبقات فحول الشعراء |
| لعبدالله بن قتيبة | الشعر والشعراء |
| • لعمر بن بحر الجاحظ | البيان والتبيين |
| لمحمد بن يزيد المبرد | الكامل |
| لعبدالمالك الثعالبي | يتيمة الدهر |
| • لابي فرج الاصبهاني | الاغانى |
| • لابي اسحاق الحصرى | زهر الآداب |
| للإمام علي بن أبي طالب (رض) | نهج البلاغة |
| • لابي هلال العسكري | الصناعتين |
| • لعبد الله بن المعتز | البيدع |
| • لعبدالقاهر الجرجاني | اسرار البلاغة ودلائل الاعجاز |
| • لعلي بن عبدالعزيز الجرجاني | الوساطة بين المتبني وخصومه |
| • لابي بشر الأمدى | الموازنة بين الطائفتين |
| • لابي علي القالى | الامالى |
| • لعبد الله بن قتيبة | ادب الكاتب ، وعيون الاخبار |
| • للحسن بن رشيق القيرواني | العمدة |
| • لعلي بن يوسف القفطى | انباء الرواة على انباء النحاة |
| • لياقوت الحموي | معجم الادباء ومعجم البلدان |
| • لمحمد بن عمران المرزباني | معجم الشعراء |
| • للمرزباني أيضا | الموشح فى مأخذ العلماء على الشعراء |
| • لشهاب الدين بن عبد ربه الاندلسي | العقد الفريد |

لاحمد بن محمد الميداني	مجمع الامثال
• لمحمد بن اسحاق النديم	الفهرست
لاحمد بن الحسين الشهير بالمتنبي	ديوان ابي الطيب شرح البرقوقى
ليوسف البديعي	الصبح المنبي في حيشة المتنبي
• لاحمد بن عبدالله المعري	لزوم ما لا يلزم
لاسامة بن منقذ	البديع فى نقد الشعر
لابى فرج قدامة بن جعفر	نقد الشعر
• لعبدالمكك النعالبي	سحر البلاغة وسر البراعة
• لمحمد بن طباطبا العلوي	عيار الشعر
• للمفضل الضبي	المفضليات
لعبدالمكك بن قريش الاصمعي	الاصمعيات
• لمحمود بن عمر الزمخشري	اساس البلاغة
• لعلي الموسوي العلوي	امالي المرتضى
• لكمال الدين الانبارى	الانصاف فى مسائل الخلاف
• لابي العلاء المعري	عبث الوليد
• للمعري	سقط الزند
• لاحمد بن الحسين	مقامات البديع الهمداني
• للقاسم بن علي الحريري	مقامات الحريري
• لمحمد القرشي	جمهرة اشعار العرب
• لابي تمام حبيب بن اوس الطائي	ديوان الحماسة
• لابن رشيق القيرواني	قراضة الذهب فى نقد اشعار العرب
• لعلي بن بسام الششتري	الذخيرة فى محاسن اهل الجزيرة
• لاحمد المقرئ التلمساني	نفتح الطيب من الغصن الاندلسى الرطيب
• لعبدالرحمن الشهير بابن خلدون	مقدمة بن خلدون

- رسالة بن القارح
رسالة الغفران
سر الفصاحة
المثل السائر
رغبة الامل من كتاب الكامل
عصر المأمون
النثر الفني
المواهب الفتحية
النقد المنهجي
النقد الادبي
اسس النقد الادبي عند العرب
المعارك الادبية
المدخل الى النقد الادبي الحديث
تاريخ الادب العربي
تاريخ الادب العربي
بلوغ الارب في معرفة أحوال
العرب للآلوسي
الموازنة بين الشعراء
الباذة هوميروس
جمهورية افلاطون
جمهرة خطب ورسائل العرب
من شعر ابي حيان الاندلسي
الحب العذري وكتاب الشعر في
بغداد
الكشف عن مساوي شعر المتنبي
- لعل بن منصور الحلبي
• للمعري الى ابن القارح
• لعبدالله بن سنان الخفاجي
• لضياء الدين بن الاثير
• لسيد بن علي المرصفي
• لاحمد فريد الرفاعي
• لزكي مبارك
• لحمزة فتح الله
• لمحمد مندور
• لاحمد أمين
• لاحمد أحمد بدوي
• لانور الجندي
• لمحمد غنيمي هلال
• لمصطفى صادق الرافعي
• لجرجي زيدان
• لمحمود شكري الآلوسي
• لشارحه وضابطه محمد بهجت الاثري
• لزكي مبارك
• لسليمان البستاني
• لترجمها عن الانكليزية حنا خباز
• لاحمد زكي
• لجمع وتحقيق مطلوب والحديثي
• لاحمد عبدالستار الجواري
• للشيخ محمد حسن آل ياسين

- الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث
الفن ومذاهبه في الشعر العربي
- المؤلف هذا الكتاب رشيد العبيدي
• لعلي الهاشمي
• ليحيى الجبوري
• لمحمود غناوي
• لعلي الجندي
• لنازك الملائكة
• ليوسف عز الدين
• لعبدالرزاق محي الدين
• لاحمد ناجي وخديجة وأحمد مطلوب
• ليوسف عز الدين
• لبروكلمان
• لمحمد مندور
• لمحمد زكي العشماوي
• لعامر رشيد السامرائي
• لعبدالله الجبوري
• لسيد قطب
• لاحمد حسن الزيات
• لاحمد الاسكندري
• لاحمد الشايب
• عباس محمود العقاد وصحبه
• لمخائيل نعيمة
• للاسل آبر كرُمبي ترجمة محمد
• عوض محمد
• لتشارلتن ترجمة زكي نجيب
- الادب ومذاهب النقد فيه
• المرأة في الشعر العربي
• شعر المخضرمين
• نقاض جرير والفرزدق
• البلاغة الفنية
• قضايا الشعر المعاصر
• في الادب العربي الحديث
• أبو حيان التوحيدي
• التمام في تفسير أشعار هذيل
• الشعر العراقي
• تاريخ الادب العربي
• في الميزان الجديد
• الادب وقيم الحياة المعاصرة
• آراء في العربية
• نقد وتعريف
• النقد الادبي اصوله ومناهجه
• دفاع عن البلاغة
• تاريخ الادب العربي
• اصول النقد الادبي
• تراث الانسانية
• الغربال
• قواعد النقد الادبي
• فنون الادب

الفهرس

الصفحة

٣	اقدمه
٥	الفصل الاول - الادب والنقد
٦	النقد الادبي
٧	الناقد الادبي
٩	حاجة الناقد الادبي الى ثقافة شاملة وعميقة
١٣	الفصل الثاني - عناصر الادب
١٣	١ - العواطف الادبية
١٦	٢ - الخيال
١٨	٣ - الاسلوب
٢٠	٤ - الذوق الادبي
٢١	رأي عبدالقاهر الجرجاني وابن خلدون في الذوق
٢٣	حمزة فتح الله والذوق الادبي
٢٥	الفصل الثالث - المعاني والالفاظ
٢٥	نماذج في جده المعاني وعمقها
٢٦	المعاني في نظر صاحب (المثل السائر)
٢٨	الالفاظ في نظر العسكري وابن خلدون
٢٩	المعاني والالفاظ في نظر مصطفى المنفلوطي
٣١	الفصل الرابع - الاجناس الادبية
١٣١	الخطبة

٣٣	هل الخطابة علم أو فن
٣٤	خطبة الرسول عليه الصلاة والسلام
٣٤	الرسالة
٣٥	رسالة عبدالحميد الكاتب
٣٦	رسالة الحسن بن سهل
٣٧	المقامة
٣٧	مقامات البديع الهمداني والحريري
٣٨	المقالة وتعريفها للدكتور جونسن
٣٩	القصة
٤٠	أعلى أنواع القصة
٤١	القصة في أدب العرب
٤٢	قصة سيدنا موسى مع المرأتين
٤٣	مؤلفو القصص العربية القدامى
٤٤	القصة العربية الحديثة
٤٥	المسرحية وتعريفها
٤٦	المسرحية في أول نشأتها
٤٧	صفة المأساة الاغريقية
٤٨	التطور المسرحي
٤٩	المسرحية في القرون الوسطى
٥٠	المسرحية في أدبنا العربي
٥٣	الفصل الخامس - الشعر
٥٤	الشعر عند العرب
٥٥	تعريفه في كتاب نقد الشعر

٥٥	تعريفه عند ابن طباطبا العلوي
٥٥	تعريفه عند اسامة بن منقذ
٥٦	مقارنة بين الشعر والفخر لتوفيق الحكيم
٥٨	للشعر ثلاثة أركان
٥٩	تعريف الشعر لمؤلف هذا الكتاب
٥٩	ضروب الشعر
٦٠	الشعر الغنائي
٦١	الشعر القصصي
٦٣	الشعر التمثيلي
٦٤	الشعر الطبقي
٧٠	موسيقى الشعر
٧١	أوزان الشعر وقوافيه
٧٣	لغة الشعر واتشاده
٧٥	الفصل السادس - النثر الفني
٧٧	أقسام النثر الفني
٧٧	النثر المرسل
٧٨	الرسائل بين الحجاج وعبد الملك
٧٩	النثر المسجوع في القرآن الكريم
٨٠	أنواع النثر المسجوع
٨٤	الفصل السابع - نماذج من النقد في العصر العباسي
٨٤	بشار ينقد كُشَيْرَ عزة
٨٥	نقد أبي العباس أبا تمام

٨٨	نقد قدامة أبا نواس
٨٩	نقد ابن درستويه البحتري
٩١	مجلس من مجالس الادب والنقد في البصرة
٩٦	الفصل الثامن - الكتب النقدية منذ أواخر القرن الرابع الهجري *
٩٧	الأمدي وكتابه الموازنة
١٠٧	أبو الحسن الجرجاني وكتابه الوساطة
١١٧	أبو هلال العسكري وكتابه الصناعتين
١٣١	الفصل التاسع - أبو العلاء المعري
١٣٢	تعصب المعري لأبي الطيب
١٣٣	ذكريات المعري مع تلامذته وأصدقائه في بغداد
١٣٥	تعريف القدماء بأبي العلاء
١٣٦	ذكاء أبي العلاء
١٣٨	فلسفة المعري
١٤٠	إيمان المعري
١٤٢	شاعرية المعري
١٤٣	الوصف عند المعري
١٤٤	الثناء عند المعري
١٤٦	الفخر عند المعري
١٤٧	المدح عند المعري
١٤٩	الغزل عند المعري
١٥٢	مؤلفات المعري
١٥٤	الفصل العاشر - رسالة ابن القارح

١٥٥	نماذج من الرسالة	٢١١
١٦١	الفصل الحادي عشر - رسالة الغفران	٢١١
١٦٨	نماذج من رسالة الغفران	٢١١
١٧٧	الفصل الثاني عشر - كتاب عبث الوليد	٢١١
	نماذج من نقد المعري	٢١١
١٨١	الفصل الثالث عشر - ابن شهيد	٢١١
١٨٢	حياة ابن شهيد في اللهو والتصابي	٢١١
١٨٣	ابن شهيد يصف حاله عند آخر عمره	٢١١
١٨٤	ابن بسام يصف ابن شهيد	٢١١
	شرب بن شهيد	٢١١
١٨٨	فصل من رسالة التوابع والزوابع	٢١١
١٨٩	التعالبي	٢١١
١٩٠	مؤلفات التعالبي	٢١١
١٩٢	ابن رشيق القيرواني وكتابه العمدة	٢١١
١٩٣	مؤلفات ابن رشيق	٢١١
١٩٤	رجع الى كتاب العمدة	٢١١
١٩٨	الفصل الرابع عشر - ابن سنان الخفاجي	٢١١
٢٠٠	كتابه سر الفصاحة	٢١١
٢٠٦	شروط فصاحة اللفظة الواحدة ثمانية	٢١١
٢٠٩	كيفية تأليف الكلام	٢١١
٢١١	رأي عبدالمتعال الصعيدي في كتاب سر الفصاحة	٢١١

٢١٣	الفصل الخامس عشر - عبدالقاهر الجرجاني
٢١٤	كتابه أسرار البلاغة
٢١٦	عود على بدء في كتاب أسرار البلاغة
٢٢١	فصل في التشبيه والتمثيل
٢٢٥	الفرق بين التشبيه والتمثيل
٢٢٧	كتاب دلائل الاعجاز
٢٣١	الفصل السادس عشر - ابن الاثير وكتابه المثل السائر
٢٣٣	مؤلفات ابن الاثير
٢٣٤	المقالة الاولى في الصناعة اللفظية
٢٣٥	المقالة الثانية في الصناعة المعنوية
٢٤٢	الفصل السابع عشر - الكتب النقدية الحديثة
٢٤٣	كتاب تاريخ النقد الادبي عند العرب
٢٤٥	كتاب اصول النقد الادبي
٢٤٨	كتاب اسس النقد الادبي
٢٥٠	كتاب النقد المنهجي عند العرب
٢٥٤	كتاب النقد الادبي لاحمد أمين
٢٥٦	النقد الادبي في الحجاز
٢٥٩	النقد الادبي في الشام
٢٦٣	النقد الادبي في العراق
٢٦٧	النقد في العصر العباسي

المصادر المدونة في النقد والادب

٢٧٦

من بداية القرن الثاني الهجري

٢٧٨

المصادر الاولية للآداب العربية

كتب مطبوعة للمؤلف

- ١ - الأدب ومذاهب النقد فيه .
- ٢ - دراسات في النقد الأدبي في جزئين .
- ٣ - تحقيق ديوان العرجي بالاشتراك مع زميل .
- ٤ - دليل النحو الواضح بالاشتراك مع زميل .
- ٥ - شرح واعراب شواهد نحوية .
- ٦ - سلسلة كتب في القراءة للاميين بالاشتراك مع لجنة .

تحت الطبع

- ٧ - معالم الطريق الى حياة أفضل .
- ٨ - المذاهب الادبية الحديثة .
- ٩ - قالت لي نفسي وقلت لها .
- ١٠ - رسالة في فلسفة الجمال .
- ١١ - رسالة في الامثال العربية .
- ١٢ - المقارنات الادبية في القديم والحديث .
- ١٣ - رسالة في فلسفة التشريع .
- ١٤ - رسالة في الخطابة العربية .

